الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بالوادي
معهد العلوم الاجتماعية و الإنسانية
قسم التاريخ

مذكرة بعنوان:

دور السلطان الظاهر بيبرس في مواجهة الصليبيين في بلاد المشرق (674.659 هـ / 1275.1261 م)

مذكرة مكملة لنيل شهادة الليسانس في التاريخ

إعداد الطالبين:
- الزبير بن بردي
- فؤاد بن عمر

إشراف الدكتور:
- عاشوري قمعون

لجنة المناقشة : 1- رابح رمضان رئيسا .
2- عاشوري قمعون مشرفا ومقررا .
3- البشير غانية عضوا مناقشا .

السنة الجامعية: 1434/1433 هـ - 2012/2011 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى الوالدين الكريمين، أبي وأمي أطال الله عمرهما.
- إلى إخوتي وأخواتي: أسماء، محمد ياسين، إسماعيل، طلحة الخير، محمد، بثينة.
- إلى كل أقاربي وبالخصوص خالتي رشيدة.
- إلى زملائي في الدراسة: الزبير، حسين، معمر، نور الدين، حمزة، عبد القادر عوادي، عبد الرحمن، سليم، سعد، هشام، بوبكر، الصادق.
- إلى من تقاسمت معه دراسة هذا الموضوع: فؤاد.
- إلى أصدقائي: عبد الكريم، عبد الرزاق، ياسين، محمد زكرياء، العروسي، ياسين غيلاني، السعيد، إلياس، محمد غريب، قيس، فوزي، موسى.
- إلى كل أساتذة ودكاترة قسم التاريخ، وبالخصوص الأستاذ عمار غرايسة والدكتور عاشوري قمعون.
- إلى كل من أعرفه ولم يذكره لساني.
- إلى كل طلبة السنة الرابعة قسم التاريخ دفعة سنة 1432ـ1433هـ/2011ـ2012م، وبالخصوص طلبة الفوج الثاني والخامس.

❖ إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي.

الطالب: الزبير بن بردي

إهداء

- إلى الوالدين الكريمين، أبي وأمي أطال الله عمرهما.
- إلى إخوتي وأخواتي: يحي، عبد الودود، مروان، أسماء، مروة، خير الدين.
- إلى كل أقاربي.
- إلى زملائي في الدراسة: الزبير، حسين، معمر، نور الدين، حمزة، عبد القادر عوادي.
- إلى من تقاسمت معه دراسة هذا الموضوع: الزبير.
- إلى أصدقائي: عبد الكريم، عبد الرزاق، ياسين، محمد زكرياء، العروسي، ياسين غيلاني، السعيد، إلياس، محمد غريب، قيس.
- إلى كل أساتذة ودكاترة قسم التاريخ، وبالخصوص الأستاذ عمار غرايسة والدكتور عاشوري قمعون.
- إلى كل من أعرفه ولم يذكره لساني.
- إلى كل طلبة السنة الرابعة قسم التاريخ دفعة سنة 1432ـ1433هـ/2011ـ2012م.

❖ إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي.

الطالب: فؤاد بن عمر

شكر وعرفان

نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدنا في إنجاز هذا البحث، ونخص بالذكر:

- الأستاذ المشرف الدكتور عاشوري قمعون الذي قبل الإشراف على مذكرتا هذه، فلـــه كل الشكر والامتنان على المجهودات والملاحظات التي أعاننا ووجهنا بها في إطار إنجاز هذه المذكرة.
- الأستاذ الشيخ ياسين عموري.
- الأستاذ الشيخ محمد السعيد بن بردي.
- الأستاذ المتقاعد محمد الأمين بن عمر.
- الطالب عبد الغني شوية.
- الأستاذ محمد ونيسي.
- الأخ سفيان محرز.
- الأخ سمير بن بردي.
- الأخ عبد الغني حوبة.
- المشرفون على مكتبة غزة.

فإلى جميع هؤلاء كل الاحترام والتقدير.

الطالبان: الزبير وفؤاد

قائمة المختصرات

- ✓ تح: تحقيق.
- ✓ ع: علق عليه.
- ✓ اع: اعتناء.
- ✓ تق: تقديم.
- ✓ را: راجعه.
- ✓ تع: تعليق.
- ✓ تر: ترجمة.
- ✓ إش: إشراف.
- ✓ ط: الطبعة.
- ✓ ج: الجزء.
- ✓ مج: المجلد.
- ✓ ق: القسم.
- ✓ ف: الفصل.
- ✓ مر: مراجعة.
- ✓ ح: حققه.
- ✓ طا: طالعه.
- ✓ دق: دققه.
- ✓ (ب م): بدون مكان نشر.
- ✓ (ب س): بدون سنة نشر.
- ✓ (ب م س): بدون مكان وسنة نشر.

مقدمة

مقدمة

عاشت بلاد المشرق الإسلامي في العصر الوسيط انقساما داخليا من الناحيتين السياسية والدينية، إذ بينما نرى الخلافة العباسية السُنّية في بغداد، نرى أيضا الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. وبهذا الانقسام عاشت بلاد الشام صراعا عسكريا مريرا بين الفريقين. وفي خضم هذه الأحداث، تمكن الأوربيون استجابة لدعوة البابوية، من السيطرة على بيت المقدس وجميع الساحل الشامي.

وقد جاء هذا الاحتلال تحت ستار ديني، حيث كان الصليب هو شعار الأوربيين الذي حملوه على أرديتهم في مواجهتهم للمسلمين، ومن هنا جاءت تسمية تلك الحروب بالحروب الصليبية.

وأمام هذا الزحف الصليبي ثار من حمل راية الوحدة ونذر نفسه للجهاد ضد الصليبيين، وكان من أشهر هؤلاء السلاطين والأمراء: عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، الذي تمكّن من توحيد مصر وبلاد الشام، ومن ثم إلحاق الهزيمة النكراء بالصليبيين في حطين، وتحرير بيت المقدس وغيرها من المدن الصليبية.

غير أنّ راية الوحدة والجهاد ضد الصليبيين في بلاد المشرق بعد السلطان صلاح الدين الأيّوبي تذبذبت بين الارتفاع والانخفاض، وظلت على هذه الحال إلى أن قامت دولة المماليك البحرية في مصر، فارتفعت الراية من جديد حتى بلغت الذروة، وكان من بين أهمِّ السلاطين الذين حملوا راية الجهاد: المنصور قلاوون، وابنه الأشرف خليل، والظاهر بيبرس الذي استطاع فتح معظم معاقل الصليبيين التي بقيت تحت أيديهم ببلاد الشّام في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، فاعتُبر بحق المؤسس الفعلي للدولة المملوكية البحرية التي ظلت تقوم بدور القوة المدافعة عن الإسلام والمسلمين على ما يزيد عن قرنين ونصف، وهذا بعدما تمكن من توحيد مصر وبلاد الشّام وطرد الصليبيين من الشرق.

ومن خلال ما سبق ذكره، ولتوضيح الموضوع أكثر، نطرح الإشكالية التالية:

إلى أي مدى ساهم السلطان الظاهر بيبرس في مواجهة الصليبيين في بلاد المشرق؟

ولقد ترتب على هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات والإشكاليات الفرعية، وتتمثل فيما يلي:

من هو السلطان الظاهر بيبرس؟ وما أهم الأمور التي رتّبها، والتحالفات التي عقدها من أجل الاستعداد والبداية في جهاده ضد الصليبيين؟ وما هي معاقل الصليبيين التي فتحها؟ وحملاتهم التي تصدى لها؟.

ولدراسة موضوعنا بالتطرق لجميع جوانبه، قسمنا بحثنا إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة:

تطرقنا في الفصل الأول الذي كان بعنوان: نشأة السلطان الظاهر بيبرس وتوليه السلطة، إلى التعريف بالسلطان بيبرس، وكيفية انتقاله من بلده الأصلي إلى مصر حتى صار من مماليك السلطان الصالح أيّوب، بالإضافة إلى مُشاركته في الحملة الصليبية السابعة ومعركة عين جالوت ضد الصليبيين والمغول، وكذا قتله للسلطان قطز على الرغم من اختلاف الروايات حول ذلك، ومن ثمّ توليه السلطنة وقيامه بترتيب أمور دولته، والقضاء على الحركات المناهضة لحكمه، بالإضافة إلى إحيائه الخلافة العباسية مرتين.

أمّا الفصل الثاني الذي كان بعنوان: بداية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس (659ـ665هـ/1261ـ1266م)، إلى ما قام به السلطان بيبرس من تأمين وتقوية الجبهة الداخلية من خلال تحصين الثغور والعناية بالبريد وتقوية الأسطول والجيش، ثمّ إبرامه لسلسلة من الأحلاف والاتفاقيات مع القوى الخارجية المعادية لكلٍّ من الصليبيين والمغول، وهذا حتى يأتمن جانبهم ويضمن حيادهم في الصراع الوشيك ضد الصليبيين ببلاد الشام، ومن ثمّ بدأه لمرحلة عسكرية أولى ضد الصليبيين، مال فيها إلى مهادنتهم على بعض الجبهات وشن هجمات عسكرية على جبهات أخرى. وبعد ذلك بدأ مرحلته الثانية، وهي مرحلة الحرب الشاملة، حيث تمكن من فتح العديد من المدن والحصون والقلاع التي كانت تحت سيطرة الصليبيين، وأهمّها: قيسارية وصفد.

وفيما يتعلق بالفصل الثالث الذي كان بعنوان: مواصلة السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته ودوره في التصدي لحملتي ملكي أراغون وفرنسا (665ـ669هـ/1267ـ1270م)، فقد تطرقنا فيه إلى مواصلة السلطان بيبرس جهاده ضد الصليبيين بفتح

معاقلهم، كمدينتي يافا وأنطاكية. وقد أبان أثناء سيطرته على أنطاكية عن كفاءته العالية من خلال وضعه لخطة استراتيجية محكمة للدخول إلى المدينة. ومن ثمّ عودة السلطان لشن هجماته على الصليبيين في عكا وصور، ومع ذلك عقد هدنة مع ملكة بيروت إيزابيلا دي إبلين سنة 667هـ/1269م.

كما تناولنا تصدي السلطان أيضا لحملة ملك أراغون الصليبية، ومساعيه لمساعدة الأمير الحفصي المستنصر بالله لمواجهة حملة الملك لويس التاسع سنة 669هـ/1270م.

وفي الفصل الرابع الذي كان بعنوان: استئناف السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته وتصديه لحملة الأمير إدوارد ثمّ وفاته (669ـ676هـ/1271ـ1277م)، فقد عالجنا فيه مسألة استئناف السلطان بيبرس مسيرته النّاجحة في جهاده ضد الصليبيين وفتحه لعدد من الحصون والقلاع، أهمّها: حصنا الأكراد وعكار، إضافة إلى أنّه عقد العزم على فتح مدينة طرابلس، غير أنّه آثر عقد هدنة مع أميرها للتفرغ لحملة الأمير الأنجليزي إدوارد، وهذا بعد أن وصلته أنباء عن قرب قدومها. وقد تمكن السلطان بيبرس من التصدّي لهذه الحملة على الرغم من بعض الغارات التي شنّها الأمير إدوارد على معاقل المسلمين ببلاد الشّام.

وفي الأخير تطرقنا إلى وفاة هذا البطل بعد مسيرة حافلة بالإنجازات عن عمر قارب الثلاثة والخمسين سنة.

وقد توجنا بحثنا بخاتمة شملت مجموعة من النتائج التي توصلنا إليها من خلال دراستنا للموضوع.

وفيما يخص دواعي اختيارنا لهذا الموضوع، فهي تعود إلى أهمية الدور الذي قام به هذا السلطان في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين، وطرد الصليبيين وفتح معاقلهم في بلاد الشام، إضافة إلى الرغبة في الاطلاع على عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة، بحكم أنّه العصر الذي شهد نهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام بشكل نهائي، وهذا بعد الدور الكبير الذي قام به سلاطينها في الجهاد ضد الصليبيين، وكان من بينهم السلطان الظاهر بيبرس محل دراستنا.

كما اعتمدنا في موضوعنا هذا المنهج الوصفي، الذي من خلاله تطرقنا إلى جملة من الأحداث والوقائع، محافظين بذلك على التسلسل الزمني بالرغم من اختلاف الروايات،

بالإضافة إلى المنهج التحليلي الذي كان اعتمادنا عليه نسبياً، حيث أنّنا أخذنا مثلا بعض المعلومات من مصادر ومراجع مختلفة، ثمّ قمنا بإعادة صياغتها بأسلوبنا الخاص ليكون فهمنا وشرحنا أكثر لهذه الأحداث، معتمدين في ذلك على عدة مصادر ومراجع عربية وأجنبية أهمّها:

✓ جمال الدين أبو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: حيث أفادنا هذا الكتاب في العديد من الأمور المتعلقة بالموضوع خاصة في فتوحاته لمعاقل الصليبيين ببلاد الشام، مثل فتح حصني عكار والقرين.

✓ وبيبرس المنصوري في كتابه مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيّوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ): إذ يعتبر مصدرا هاما لهذا الموضوع، باعتبار أنّ مؤلفه عاصر عهد السلطان بيبرس، وقد أفادنا في العديد من الأحداث والفتوحات مثل فتحه لقيسارية.

✓ إضافة إلى عزمي عبد أبو عليان في كتابه مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك (648ـ923هـ/1250ـ1517م): حيث يحتوي على ملخص جيد لفتوحات السلطان بيبرس، وقد اعتمدنا عليه في العديد من المهادنات والفتوحات التي قام بها هذا السلطان، مثل فتحه لمدينتي صفد وأنطاكية.

✓ كما اعتمدنا على سعدون عبّاس نصر الله في كتابه رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى: ويعتبر هذا الكتاب من المراجع المهمة التي لها علاقة بهذا الموضوع، فاستفدنا منه كثيرا في بعض المهادنات والفتوحات التي قام بها هذا السلطان.

أمّا عن الصعوبات التي واجهتنا في هذا الموضوع فمنها: اختلاف بعض المصادر في تواريخ الأحداث، وكذا تعدد الروايات في بعض الوقائع واختلافها النسبي في المضمون، بالإضافة إلى عدم تمكننا رغم كل محاولاتنا من الحصول على بعض المصادر المهمة والمتعلقة بموضوعنا، وعلى سبيل المثال: كتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لمؤلفه ابن عبد الظاهر، والذي يعد من المصادر الرئيسية لهذا الموضوع على اعتبار أنّ مؤلفه هو الذي كان يكتب سيرة السلطان الظاهر بيبرس في أيّام حكمه.

الفصل الأول:

نشأة السلطان الظاهر بيبرس وتوليه السلطة

1) نشأة السلطان ودوره في استعادة بيت المقدس وفي الحملة الصليبية السابعة

2) توليه السلطة وتوطيد الحكم

الفصل الأول: نشأة السلطان الظاهر بيبرس وتوليه السلطة

لقد أسس المماليك دولة إسلامية مترامية الأطراف عُرفت بدولة المماليك البحرية، شملت مصر وبلاد الشام، وقد امتد حكمهم على مدى ما يزيد عن قرنين ونصف من الزمن[1]، تخلّل هذه الفترة مراحل من الجهاد الإسلامي للدفاع عن الأخطار التي هددت المنطقة من جانب الصليبيين والمغول، فأحرزت بذلك انتصارات باهرة في عين جالوت، والمنصورة، وأنطاكية، وطرابلس، وعكا، وقد تحققت هذه الانتصارات بفضل حنكة ودهاء سلاطينهم الذين كان من بينهم السلطان الظاهر بيبرس، الذي استطاع فتح معظم معاقل الصليبيين التي بقيت تحت أيديهم في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في بلاد الشّام. ومن هنا نطرح التساؤل التالي: من هو السلطان الظاهر بيبرس؟.

1) نشأة السلطان ودوره في استعادة بيت المقدس وفي الحملة الصليبية السابعة:

❖ نشأة السلطان:

من بين المماليك الذين استكثر منهم السلطان الأيّوبي الصالح نجم الدين أيّوب[2]، ظهر عدّة رجال كان لهم أثر كبير في تغيير مجريات الأحداث في مصر وبلاد الشّام، وكان أشهرهم قلاوون وركن الدّين بيبرس[3]. هذا الأخير أجمع المؤرخون على أنّ أصله تركي، ولد بصحراء القفجاق[4] أو القبجاق[5]، وكان من أهل بلدة كيبشاد في وادي نهر

---

[1] قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والاجتماعي)، ط1، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 1998م، ص 84.

[2] هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن السلطان الكامل محمد، ولد سنة603هـ/1206م، ولمّا قدم أبوه إلى دمشق سنة 625هـ/1228م استنابه على مصر، وقد توفي سنة647هـ/1249م. ينظر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، ح: إحسان بنت سعيد خُلوصي وزهير حميدان الصمصام، ق2، منشورات دار الثقافة، دمشق، سوريا، 1992م، ص 143.

[3] لقب من العصر المملوكي بمعنى الأمير الفهد. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1966م، ص 93.

[4] تشمل بلاد القفجاق حوض نهر الفلجا (الفولجا) والأراضي حتى بحر قزوين وهي جنوب أسيا. ينظر: حمدي عبد المنعم محمد حسين، دراسات في تاريخ الأيّوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، السويس، مصر، 2000م، ص 165.

[5] جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ع: محمد حسين شمس الدين، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992م، ص 86.

الفولجا[1]، وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ ميلاده، فمنهم من يردّها إلى سنة 620 هـ/1223م[2]، ومنهم من يردّها إلى سنة 624هـ/1227م تقريباً[3] وهذا الأرجح. وقد بيع لأحد تجار الرقيق على إثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة 640هـ/1242م، فقدم به هذا التاجر إلى حماه وعمره 16سنة، ولمّا عرضه على الملك المنصور محمد صاحب حماه لم يعجبه، فبيع بدمشق بـ 800 درهم، ثمّ َردّه مُشتريه لبياض في إحدى عينيه، فبيع للعماد الضائع أو الصائغ[4]، ثمّ اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار (وفي رواية أخرى البندقداري) مملوك السلطان الصالح أيّوب، وبه عُرف بالبندقداري[5]، فأقام في خدمته مدّة ثمّ أخذه منه السلطان أيّوب فاتّخذه رئيسا لإحدى فرق حرسه الخاص لِما رآه فيه من الفروسية والهمّة والفطنة والذكاء[6].

وقيل أنّ السلطان الصالح أيّوب قد نقم على الأمير علاء الدين أمراً، فاعتقله وارتجع مماليكه وأضافهم إلى المماليك السلطانية[7]، وكان من بينهم بيبرس الذي صار من أعيان مماليكه بعد أن اعتقه[8].

---

(1) أنتوني نتنج، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، تر: راشد البرواي، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1974م، ص 272.

(2) عبد المنعم ماجد، الدولة الأيّوبية في تاريخ مصر الإسلامية (التاريخ السياسي) (567ـ648هـ/1171ـ 1250م)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997م، ص 156.

(3) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تق: سيد حسين العفّاني، تح: خيري سعيد، ج17، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (ب س)، ص 321.

(4) محمود شلبي، حياة الملك الظاهر بيبرس الأسد الضاري! قاهر التتار ومدمّر الصليبيين!، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992م، ص14.

(5) جمال الدين أبو المحاسن، مورد اللطافة في من وَلِيَ السلطنة والخلافة، تح: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، ج2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1997م، ص33.

(6) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص 165.

(7) بيبرس المنصوري، مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيّوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ)، تح: عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1993، ص 12.

(8) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، ج47، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1998م، ص 32.

وقيل كذلك أنّه بيع إلى السلطان الصالح أيّوب بـــ 40 ديناراً لأنّه كان مجروحاً عند العين[1]، مع أنّه كان ضخم الجثة، أسمر البشرة، أزرق العينين، ذا صوت جهوري[2].

كما أنّ هناك رواية أخرى في هذا الصدد منقولة عن شيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي الذي قال: << كان الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي لمّا قُبض عليه وأُحضر إلى حماه واُعتقل بجامع قلعتها، اِتّفق حضور ركن الدين بيبرس مـــع تاجر، وكان الملك المنصور ــ يعني صاحب حماه ــ إذ ذاك صبياً، وكان إذا أراد شراء رقيق تُبصره الصّاحبة[3] والدته، فأُحضر بيبرس هذا مع آخر ... وقالت ــ أمّه ــ: هــذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فإنّ في عينيه شــراً لائحــاً، فردّتهمــا ...، فطلــب البندقداري الغُلامين ... فاشتراهما وهو معتقل، ثمّ أُفرج عنه فسار إلى مصر، وآل أمــر ركن الدّين إلى ما آل >> [4].

هذا بالإضافة إلى رواية أخرى رواها الشيخ عزّ الدين عمر بن علي بن إبراهيم بن شــدّاد الذي قال: << أخبرني الأمير بدر الدين بَيْسَري الشّمسي[5] أنّ ... سبب انتقالـــه ــ أي بيبرس ــ من وطنه إلى البلاد أنّ التّتار لمّا أزمعوا على قصد بلادهم سنة 639هـ/1241م، وبلغهم ذلك، كاتبوا أنس خان ملك أولاق[6] أن يعبروا بحــر ســوداق[7] إليــه ليجيرهم من التّتار، فأجابهم إلى ذلك وأنزلهم وادياً بين جبلين، وكان عُبورهم إليه في سنة 640هـ/1242م، فلمّا اطمأنّ بهم المقام غدر بهم وشنّ غارة عليهم فقتل منهم وســبى[8].

---

[1] عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 156.

[2] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية (المغول والمماليك ونهاية الشرق الفرنجي)، مج 3، ق 2، تر: السّيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997م، ص 541.

[3] الصّاحبة: لقب مؤنّث يعبّر به عن المرأة، وقد ورد ذكره في كثير من المؤلفات في تلقيب أميرات البيت الأيّوبي. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص87.

[4] نفسه، ج7، ص 87ــ88.

[5] هو الأمير بَيْسَري بن عبد الله الشّمسي الصّالحي، كان من أعيان الأمراء بالدّيار المصرية. توفي سنة 698هـ. ينظر: نفسه، ج7، ص87.

[6] أي ملك البلغار. ينظر: نفسه، ج7، ص88.

[7] سوداق أوصوداق: تقع في ذيل جبل على شط بحر القرم. ينظر: نفسه، ج7، ص88.

[8] نفسه، ج7، ص 88.

قال بَيْسَري: وكنت أنا والملك الظاهر فيمن أسر، ... فبيع فيمن بيع وحُمِل إلى سيواس[1]، ثمّ افترقنا واجتمعنا في حلب[2] في خان ابن قليج ثمّ افترقنا، فاتّفق أن حُمل إلى القاهرة فبيع إلى الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، وبقي في يده إلى أن انتقل عنه بالقبض عليه في جملة ما استرجعه السلطان الصالح نجم الدين أيّوب منه، ... >>[3].

ومن هنا تَسمّى بالصالحي والنّجمي نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيّوب[4]، فأصبح اسمه الكامل هو ركن الدّين بيبرس البندقداري الصالحي النّجمي[5].

وبهذا صار بيبرس أحد المماليك[6] البحرية للسلطان أيّوب، والواقع أنّ هذا السلطان هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك، والتي عرفت بالمماليك

---

(1) سيواس: هي ولاية تركية، تبعد حوالي 225 ميلاً إلى الشرق من أنقرة. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص88.

(2) حلب: مدينة على ساحل بحر الشّام بين قيسارية ويافا. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977م، ص 151.

(3) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص88.

(4) ناصر الأنصاري، المجمل في تاريخ مصر (النظم السياسية والإدارية)، ط2، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1997م، ص 155.

(5) جمال الدين أبو المحاسن، مورد اللطافة، ج2، ص33.

(6) المماليك: كلمة مملوك لغوياً من الفعل ملك وتعني الرقيق. واصطلاحاً هي جموع الرقيق البيض الذين صاروا رقيقا نتيجة للأسر في الحروب أو الشراء من التجّار، وكان أوّل من استخدمهم الخلفاء العبّاسيون، ومن أهمّهم المأمون، ولكن سرعان ما أخذ هؤلاء في التدخل في شؤون الدولة، وكانت مصر مثالاً لولايات الدولة التي شهدت ذلك، وقد كان أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (254ــ292هـ/868ــ905م) أحد أبناء المماليك، لذا أكثر من شراء المماليك الديالمة (سكان جنوب بحر قزوين)، ثمّ جاءت الدولة الإخشيدية (323ــ358هـ/935ــ969م) التي سارت على نفس المنوال. ولمّا جاء الفاطميّون إلى مصر (358ــ567هـ/969ــ1171م) اعتمدوا عليهم في الجيش. ولمّا انتقلت السلطة إلى الأيّوبيين (567ــ648هـ/1171ــ1250م) أكثروا من استخدامهم في الجيش خاصة السلطان الصالح أيّوب. وقد جلب الأيّوبيون أغلبهم من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى، وقد سنحت الفرصة للمماليك في آخر أيّام الأيّوبيين ليسيطروا على الحكم، بعد مشاركتهم الفعّالة في القضاء على الحملة الصليبية السّابعة. وقد ظهرت في مصر دولتان للمماليك: الأولى المماليك البحرية (648ــ783هـ/1250ــ1381م)، والثانية المماليك البرجية (784ــ923هـ/1382ــ1522م)، وهكذا استمر المماليك في الحكم إلى غاية السلطان 47 طومان باي. ينظر: عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين (648ــ923هـ/1250ــ1517م) (923ــ1213هـ/1517ــ1798م)، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر، 1996م، ص 29ــ34، أسامة حسن، طومان باي آخر سلاطين المماليك، ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، 2000م، ص 8ــ10.

البحرية[1]، خاصة بعد أن أحسّ بفضلهم عليه في الوصول إلى السلطة من ناحيـــة، كمـــا أحسّ بحاجته إلى جيش قوي من المماليك يسانده، بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند من ناحية أخرى[2].

❖ استرداد بيت المقدس:

في يوم 22 ربيع الأول سنة 626هـــ/18 فيفري 1229م[3] وقع السلطان الأيّـــوبي الكامل[4] اتفاقية يافا مع إمبراطور الإمبراطورية الرّومانية وصقلية ونابلي فردريك الثاني (608ــ648هـــ/1212ــ1250م)[5]، وتقرر بمقتضاها عقد صلح بين الطرفين لمدّة 10 سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والنّاصرة وتِبنين[6] وصيدا[7].

وكان تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة قد أثار موجة عارمة من الـــسخط والأسى في العالم الإسلامي، على أنّ هذا الفعل كان نتيجة ضعف السلطان الكامل وخوفه

---

[1] تعدّدت التفسيرات حول هذه التسمية، فبعض المؤرخين نسبها لكون التجار جلبوهم عن طريق البحر من بلاد القفجاق، والبعض الآخر نسبها لقلعة الروضة (نسبة إلى جزيرة الروضة) التي بناها السلطان أيّوب لهم بين ضفتي نهر النّيل سنة 638هـــ/1241م. ينظر: عزمي عبد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك (648ــ923هـــ/1250ــ1517م)، ط1، دار النفائس للنشر والتوزيع، عَمان، الأردن، 1995م، ص 11، إبراهيم أحمد العدوى، مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، مطبعة هيئة الآثار المصرية، مصر، 1992م، ص150.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيّوبيين والمماليك، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، 1972م، ص 152.

[3] جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 241.

[4] هو السلطان الكامل أبو المظفر محمد بن السلطان الملك العادل، ولد بمصر سنة 576هـــ/1180م، ملك الديار المصرية أربعين سنة شطرها في أيام والده، توفي في دمشق سنة635هـــ/1237م. ينظر: صلاح الدين الصفدي، ق2، المصدر السابق، ص 137ــ139.

[5] جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور)، ط2، دار النّهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م، ص 31.

[6] تِبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلدة بانياس بين دمشق وصور. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 14.

[7] سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 91.

من هجوم صليبي جديد، بالإضافة إلى حرص الأيّوبيين على عدم إثارة حرب مع الصليبيين تخوفهم من الخوارزمية[1] الذين هدّدوا المنطقة عدّة مرات[2].

وعندما توفي السلطان الكامل في 21 رجب سنة 635هـ/9 مارس 1238م[3] بدأت الدولة الأيّوبية[4] في التفكك والانهيار، ولم يلبث النّزاع أن دبّ بين الصالح أيّوب في مصر وعمّه الصالح إسماعيل في دمشق، وكان أن لجأ هذا الأخير إلى طلب المساعدة من الصليبيين، وعَرض بالمقابل أن تكون سيطرتهم على بيت المقدس تامة بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وفي الوقت نفسه عرض الصالح أيّوب على الصليبيين محالفته مقابل نفس العرض[5].

وقد اختار الصليبيون الوقوف إلى جانب الملك الصالح إسماعيل لأنّه أقرب إليهم وكذا أنّ التحالف معه يعني كسب النّاصر داود صاحب حلب[6] والمنصور إبراهيم ملك

---

(1) الخوارزميون: هم تتر ينتسبون إلى بلاد خوارزم في أواسط آسيا شرقي بحر قزوين، وقد فتحها العرب سنة61هـ/680م، فاعتنق سكانها الدين الإسلامي وساهموا في الفتوحات الإسلامية. فكانوا أصحاب دولة، ولمّا غزاهم المغول وأبادوا دولتهم ساحوا في البلاد يقتلون وينهبون كلّ من اعترض طريقهم. وفي سنة 629هـ/1231م لقي سلطانهم جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه مصرعه على يد التتار بالقرب من آمد، فتفرقوا وعاثوا فساداً في بلاد الشّام، ثمّ تجمّعوا من جديد ودخلوا في خدمة السلطان علاء الدين السلجوقي سنة 635هـ/1237م، وكان عددهم يزيد عن 12 ألف فارس يترأسهم جماعة من الأمراء منهم حسام الدين بركة خان وكشلوخان، وبعد وفاة السلطان خلفه ابنه كيخسرو فقبض على بركة خان ممّا اضطرهم إلى الهرب وعبور نهر الفرات، في هذه الأثناء استمالهم السلطان الصالح أيّوب كما سنذكر. ينظر: عمر الصّالح البرغوثي، خليل طوطح، تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 2001م، ص 187، سعدون عبّاس نصر الله، رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النّهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1995م، ص 6ـ10.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 93.

(3) جرجس بن العميد المكين، أخبار الأيّوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، (ب س)، ص 22.

(4) تنحدر الأسرة الأيّوبية من أصل كردي، وكان شادي جد صلاح الدين أقدم من عُرف منهم، قدم إلى بغداد وكان معه ولداه نجم الدين أيّوب (والد صلاح الدين الأيّوبي) وشيركوه، وتنتسب الدولة الأيّوبية إلى نجم الدين سالف الذكر، ينظر: أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج5، ط7، مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1986م، ص 175.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 101ـ102.

(6) هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود، ولد سنة603هـ/1206م، وولّي الحكم سنة624هـ/ 1227م، وتوفي سنة656هـ/1258م. ينظر: صلاح الدين الصفدي، ق2، المصدر السابق، ص 115.

حمص[1]، ولم يلبث هؤلاء الملوك الأيّوبيون أن قرروا غزو مصر بمساعدة الصليبيين، فجمعوا قواتهم عند غزّة[2].

أمّا السلطان الصالح أيّوب فلم يجد قوة أمامه يُمكنها أن تُسعفه سريعا سوى الخوارزمية بعد أن استمالهم، فقد تزوج مقدّمهم حسام الدين بركة خان من أخت السلطان أيّوب من أمّه[3]، وبهذا أتاح لهم السلطان أيّوب الفرصة لدخول بلاد الشّام[4].

في سنة 642هـ/1244م اجتاح الفرسان الخوارزميون بلاد الشام، وتراوح عددهم ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألف رجل، فأغاروا على دمشق ثمّ اتجهوا نحو الخليل[5] فاستولوا على طبرية[6]، ثمّ ساروا نحو مدينة القدس التي اقتحموها في 2 صفر سنة 642هـ/11 جويلية 1244م، وقتلوا حاكمها ومقدم الإسبتارية[7] وهدموا مقبرة القُمامة[8][9].

استنجد صليبيو مدينة القدس بالنّاصر داود الذي طلب لهم الأمان من الخوارزميين، فغادر المدينة حوالي ستة آلاف منهم. ومن ثمّ غادر الخوارزميون القدس إلى غزّة بعد أن أرسل إليهم السلطان الصالح أيّوب يطلب منهم التوقف لملاقاتهم فيها[10].

---

(1) هو الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه، توفي بدمشق يوم الأربعاء 11 صفر 644 هـ/28 جوان 1246م. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 315.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 102ـ103.

(3) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 36.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 103.

(5) الخليل: مدينة بالقرب من بيت المقدس، فيها قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، في مغارة تحت الأرض. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 387.

(6) طبرية: بلدة بالأردن في طرف جبل، مطلّة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية. ينظر: نفسه، مج4، ص 17.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 9.

(8) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 286.

(9) مقبرة القمامة: هي المقبرة التي يعتقد النصارى أنّ المسيح دفن فيها، وهي في كنيسة القيامة، والعرب تقول كنيسة القمامة. ينظر: نفسه، ج6، ص 286.

(10) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 11.

في هذه الأثناء بدأ الصليبيون يحشدون قواتهم خارج عكا، وقد تحالف معهم المنصور إبراهيم، والصالح إسماعيل[1]، والنّاصر داود، وسار ثلاثتهم إلى عكا ثمّ إلى غزّة مع الصليبيين في الأول من جمادى الأولى/5 أكتوبر من نفس السنة[2].

ويُعتبر الجيش الصليبي في هذه الموقعة أكبر جيش مسيحي اجتمع في ساحة قتال بعد موقعة حطين[3][4]، حيث ضمّ عدّة تحالفات بقيادة فيليب مونتفورت حاكم تِبنين وصور، ووالتر بريين كونت يافا، وكذا فرسان الداوية والإسبتارية بقيادة المقدمين أرمان بريجورد ووليم شاتونيف، مع إرسال رئيس أساقفة مدينة صور وأسقف الرّملة كتيبة من الفرسان[5].

أمّا الجيش المصري فكان معسكراً قرب غزّة بقيادة ركن الدين بيبرس وعدده حوالي خمسة آلاف جندي، إضافة إلى الفرسان الخوارزميين، والقيمريين[6] القادمين من الشرق.

وقعت المعركة بين الفريقين يوم الاثنين 12 جمادى الأولى/17 أكتوبر على مسافة بضع أميال شمال شرقي غزّة في قرية الحربية أو خربيا[7]، وأسفرت عن نصر كبير حققه المسلمون بقيادة بيبرس على القوى المتحالفة، فبلغ عدد القتلى من الصليبيين خمسة آلاف، وقيل ثلاثين ألفاً[8]، وعدد الأسرى حوالي ثمانمائة أسير من بينهم مقدم الإسبتارية[9].

---

(1) هو الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل محمد المعروف بأبي الخيش، ملك دمشق سنة 635هـ/ 1237م، توفي سنة 648هـ/1250م. ينظر: صلاح الدين الصفدي، ق2، المصدر السابق، ص 134.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 11.

(3) أحمد الشّامي، صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الأيّوبية)، ط1، مكتبة النّهضة العربية، القاهرة، مصر، 1991م، ص 239.

(4) حطين: قرية بين أرسوف وقيسارية، وبها قبر النّبي شعيب عليه السّلام. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 273.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 12.

(6) القيمريون: نسبة إلى قلعة قيمر بين الموصل وخلاط. ينظر: نفسه، ص 12.

(7) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية (مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة)، ج3، تر: نور الدين خليل، مكتبة الشروق، القاهرة، مصر، (ب س)، ص 275.

(8) عفاف سيّد صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ط1، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 1987م، ص 293.

(9) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 13.

وقد كانت هذه المعركة أكبر هزيمة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة 583هـ/1187م، حتى أنّ بعض المؤرخين أطلقوا عليها اسم حطين الثانية[1].

في هذه الأثناء بعث روبرت بطريرك[2] القدس واتريكس أسقف النّاصرة برسالة إلى أساقفة فرنسا وانكلترا يطلبان منهم المساعدة للاحتفاظ بما تبقى في أيديهم من المناطق غير أنّ هذه المساعدات تأخرت حتى شهر شوّال سنة 642هـ/مارس 1245م[3].

بعد معركة غزّة سارع القائد بيبرس إلى السيطرة على غزّة والقدس والخليل وبيت جبريل[4]، ثمّ حاصر دمشق، ولمّا اشتدّ عليها الحصار سيّر ملكها الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة إلى العراق متشفّعاً بالخليفة العباسي المستعصم بالله ليصلح بينه وبين الصالح أيّوب، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك، وبعد حصار دام ستة أشهر استسلمت المدينة في 8 جمادى الأولى سنة 643هـ/1 أكتوبر 1245م[5].

وأمّا الخوارزمية فقد انقلبوا على السلطان أيّوب لأنّهم لم يحصلوا على ما كانوا يطمحون إليه، فهم ظنّوا أنّهم بعد أن ساعدوه في التغلب على خصومه سوف يقاسمهم الغنائم ويمنحهم بعض الإقطاعيات الهامّة، لكنّ ظنّهم خاب عندما منعهم من دخول دمشق وأقطعهم بلاد الساحل، فاتفقوا على الخروج عنه، كما قاموا بالاتصال بالأمير بيبرس (كانت أمّه خوارزمية) ورغّبوه في الانضمام إليهم، وهو ما حدث[6]، ثمّ راسلوا الصالح إسماعيل الذي كان قد فرّ إلى بعلبك، فسار إليهم[7]، وفي هذه الأثناء سارع كذلك النّاصر

---

(1) إسمت غنيم، الدولة الأيّوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1990م، ص 102.

(2) بطريرك: ومفردها بطرك، وهو رئيس رؤساء الأساقفة. ينظر: محمد أحمد وهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1990م، ص 80.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 15.

(4) بيت جبريل: أو بيت جبرين، وهي بلدة بين بيت المقدس وغزة. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 519.

(5) علي محمد محمد الصّلابي، الأيّوبيون بعد صلاح الدين، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر، (ب م س)، ص 496.

(6) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيّوبيون والمماليك في مصر والشّام، دار النّهضة العربية، القاهرة، مصر، 1996م، ص 126.

(7) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 288.

داود بالانضمام إليهم، فزحفوا جميعاً إلى دمشق وحاصروها وقطعوا عنها الإمدادات، فمات بها كثيرٌ من النّاس جوعاً، واستمر هذا الحال ثلاثة أشهر[1].

هنا أظهر السلطان أيّوب صبراً ومهارةً، فلجأ إلى الحيلة بإغراء الملك المنصور إبراهيم[2] للانضمام إليه، كما تمكن من استمالة بيبرس، هذا الأخير أُعتقل بعد ذلك بمجرد وصول السلطان أيّوب إلى مصر[3]. وبفضل ذلك تمكن الأخير من إنزال الهزيمة بالخوارزمية بالقرب من حمص وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وكان ذلك في أوّل محرم سنة 644هـ/19 ماي 1246م[4]، ثمّ عُلّق رأس هذا الأخير على قلعة حلب[5].

بعد ذلك زحف إلى عسقلان[6] جيش يقوده الأمير بيبرس وابن أبي علي، غير أنّ هذا الجيش لم يستطع دخول المدينة فلجأ إلى حصارها.

في هذه الأثناء وصلت المساعدات الصليبية إلى المدينة، وتزامن ذلك مع وصول إحدى وعشرين سفينة مصرية لتشديد الحصار، وقد تقدمت هذه السفن للقاء الصليبيين فهبت عليها عاصفة حطمت أغلبها، واستمرت هذه العاصفة، ممّا اضطرت الصليبيين للعودة إلى عكا، فاستغلّ المسلمون ذلك واقتحموا المدينة، ووصلوا إلى قلعتها يوم الخميس 12 جمادى الآخرة سنة 645هـ/15 أكتوبر 1247م، فلقي من بها من الصليبيين مصرعهم وأُسر من بقي منهم، ثمّ أمر السلطان أيّوب بتدمير الحصن فأصبح خراباً[7].

---

(1) علي محمد الصّلابي، المرجع السابق، ص 496.

(2) توفي عقب هزيمة الخوارزمية بدمشق ببستان النيرب في صفر 644هـ/جوان1246م. ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص 65.

(3) أحمد الشّامي، المرجع السابق، ص 240.

(4) علي محمد الصّلابي، المرجع السابق، ص 496.

(5) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 288.

(6) عسقلان: مدينة فلسطينية على ساحل البحر بين غزة وبيت جبريل، ويقال لها عروس الشّام. ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج4، ص 122.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 15.

ثمّ استناب السلطان أيّوب على دمشق جمال الدين بن يغمور[1]، ومن ثمّ قرّر الرحيل إلى القاهرة، وقد كان السلطان يعاني مرضاً خطيراً في حنجرته تطلب نقله في محفة[2] إلى القاهرة، مع أنّه لم ينس أن يأمر بإعدام أخيه العادل الثاني في سجنه[3].

❖ الحملة الصليبية السابعة 646ـ648هـ/1248ـ1250م:

أحدث سقوط بيت المقدس ضجةً كبيرة في أوربا، فنشطت الدعوة لإرسال حملة صليبية جديدة، وقد تحمّس الملك الفرنسي لويس التاسع لهذه الحملة[4].

وفي مجمع ليون الكنسي الذي عقد برئاسة البابا أنوسنت الرابع (640ـ652هـ/ 1243ـ1254م)[5] سنة 643هـ/1245م، تقرّر إرسال حملة صليبية وإسناد قيادتها إلى الملك لويس التاسع[6]، وقد استغرقت استعدادات هذا الأخير ثلاث سنوات[7].

وبينما كان السلطان الصالح أيّوب في بلاد الشّام جاءته الأنباء بقدوم حملة صليبية إلى مصر، وبالرغم من مرضه عاد إلى مصر في أواخر ذي الحجة سنة 646هـ/أفريل 1249م بعد أن عقد صلحاً مع ملك حلب النّاصر[8].

---

(1) نعمان قساطلي، الرّوضة الغنّاء في دمشق الفيحاء، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1982م، ص 61.

(2) محفة: هي مَحمل مصنوع من الخشب له ساعدان من الأمام وآخران من الخلف، تعلوه قبة مغطّاة بالقماش الفاخر، تُحمل على جملين أو فرسين الأول من الأمام والثاني من الخلف، يكون الجالس فيها كالجالس على السرير، ترافق الملك أو السلطان في تنقلاته، يقوم على خدمتها صنف من الجنود يعرفون بلقب محفدارية، يرأسهم شخص يعرف بلقب محفدار. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 389.

(3) السيّد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)، ج1، دار النّهضة العربية، (ب م)، 1967م، ص 143.

(4) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص 125.

(5) جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 31.

(6) هو ريد افرنس (تعريب لعبارة Roi de France) أو لويس التاسع (1226ـ1270م) ملك فرنسا، ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة ، ج6، ص 292، ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، تر: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، الإتحاد السوفييتي، 1980م، ص 310.

(7) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ط1، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، مصر، 2000م، ص 90.

(8) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، الأيّوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، (ب س)، ص 103.

وتروي بعض الكتب أنّ الإمبراطور فريدريك الثاني صديق الأيّوبيين وعدو البابوية، أرسل أحداً من رجاله متخفياً في زي تاجر ليحذر السلطان أيّوب من هذه الحملة[1].

ولقد رأى الملك لويس أنّ استعادة بيت المقدس لا يتم إلاّ بالاستيلاء على مصر، لذلك جهّز حملته سنة 646هـ/1248م لغزوها[2].

كان السلطان أيّوب قد أحس بعد انتصاره في غزّة أنّ الصليبيين سيحاولون غزو مصر ثانية، لذلك اهتمّ بتحصينها وخاصة مدينة دمياط[3]، لعلمه أنّها كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة على مصر[4]، وقد أوكل إلى حامية من فرسان بني كنانة بحمايتها[5].

أبحرت الحملة من ميناء إيجو مونت متجهة إلى جزيرة قبرص في 4 جمادى الأولى سنة 646هـ/25 أوت 1248م، وقد قضى الأسطول المكون من مائتي سفينة[6] بالجزيرة فترة طويلة حصل خلالها على كميات كبيرة من المُؤن[7][8]، وما إن وصل الملك لويس (وفي رواية أخرى ريد افرنس)[9] دمياط في 20 صفر سنة 647هـ/4 جوان 1249م حتى أرسل إلى السلطان أيّوب رسالة جاء فيها: << نحن نسوق المسلمين كسوق البقر، ونقتل منهم الرجال، ونرمّل النّساء، ونستأسر البنات والصبيان، ولو حلفت بكل

---

(1) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 103.

(2) محمد عبد الله عودة، حكمت فريحات، إبراهيم ياسين الخطيب، مختصر التاريخ الإسلامي، الأهليّة للنشر والتوزيع، عَمان، الأردن، 1989م، ص 123.

(3) دمياط: مدينة بين جزيرة تنّيس ومصر. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 472.

(4) نسيم يوسف جوزيف، المرجع السابق، ص 82.

(5) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 123.

(6) محمد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، دار الرّشاد، القاهرة، مصر، 1997م، ص 69.

(7) محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، ط2، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2002م، ص 213.

(8) قيل أيضا أنّ من أسباب بقائه في قبرص تلك المدة، تقديره أنّ خوض المعركة في الشتاء مخاطرة كبرى. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 292.

(9) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ف6، موقع الوراق، المكتبة الشاملة، ص 432.

الأيمان ما ردّني من الوصول إليك، وقد عرّفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي ... وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا ... >>[1].

ولمّا وصلت الرّسالة إلى السلطان أيّوب وهو على فراش الموت يعاني آلام المرض، كتب إليه جوابه بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد[2][3] قائلاً: << وصل كتابك، وفهمنا خطابك، وها قد أتيتك بالخيول والرجال، فلو رأت عيناك أيّها المغرور حدّ سيوفنا، وعظم حروبنا ... لكان منك أن تعضّ على أناملك بالنّدم >>[4].

ولمّا نزلت القوّات الصليبية البالغة خمسين ألفاً وقيل ثمانين ألفا[5] على الضفة الغربية لمدينة دمياط حتى تصدّى الأيّوبيون لها، غير أنّ كفة الصليبيين رجحت، فانسحب الأيّوبيون إلى الضفة الشرقية، وما أن رأتهم حامية المدينة حتى لاذت بالفرار[6].

غضب السلطان أيّوب لانسحاب الجيش الأيّوبي وسقوط المدينة دون قتال، فوبّخ جنده وقال لهم: << ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج؟ >>[7]، ومن ثمّ أمر بشنق الهاربين، وكان من بينهم خمسون أميراً من الجيش، ماعدا قائده الأمير فخر الدين[8].

بقي لويس التاسع نحو ستة أشهر في دمياط ينتظر المدد، وقد مكّن هذا التأخير الأيّوبيين للاستعداد وجمع الجيوش.

وعندما وصل المدد للصليبيين بقيادة شقيق الملك لويس الفونس دي بواتيه، شرعوا في الزحف على القاهرة في 12 شعبان سنة 647هـ/20 ديسمبر 1249م، وبعد يومين

---

(1) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 123.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، موقع الوراق، المكتبة الشاملة، ص 109.

(3) ولد القاضي بهاء الدين زهير بمكة سنة 581هـ/1186م، وقد اتصل بخدمة الملك الصالح أيّوب بالقاهرة في حياة أبيه الملك الكامل محمد، وأصبح كاتباً عند الملك الصالح أيّوب لمّا أصبح الأخير ملكاً لمصر سنة 637هـ/1240م، وكان من فضلاء عصره وأحسنهم نظماً ونثراً، وقبل وفاة الملك الصالح أيّوب بمدة قصيرة صرفه عن خدمته، فلزم البهاء داره بمصر حتى توفي سنة 656هـ/1258م. ينظر: نسيم يوسف جوزيف، المرجع السابق، ص 95.

(4) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 123.

(5) أحمد الشّامي، المرجع السابق، ص 243.

(6) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 124.

(7) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النّهضة العربية، القاهرة، مصر، 1976م، ص 7.

(8) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 124.

توفي السلطان الصالح نجم الدين أيّوب بعد أن عهد بالسلطنة إلى ابنه المعظم توران شاه[1].

ويبدو أنّ السلطان أيّوب رتب كلّ أمور الحكم قبل وفاته، فتولّى الأمير حسام الدين نيابة السلطنة والأمير فخر الدين القيادة العامة بالمنصورة[2]، وقد أخفت زوجته شجر الدر[3] وفاته إلاّ على الأمير فخر الدين، ولم يذع خبر موته إلاّ بعد مضي أسبوع[4]، ومن ثمّ أرسلت في إحضار ابنها توران شاه الذي كان بحصن كيفا[5][6] ليتسلّم الحكم، إلاّ أنّ خبر وفاة السلطان تسرّب إلى الصليبيين الذين زحفوا على القاهرة، فأخذ الأمير فخر الدين ينظم هجمات مفاجئة لعرقلتهم، لكنّه سرعان ما استشهد[7].

وقد برز في هذه الحرب المماليك البحرية بقيادة الأميرين فارس الدين أقطاي[8][9]، وبيبرس البندقداري، هذا الأخير أعاد تنظيم صفوف المماليك بعد أن كلفته شجر الدر قيادة الجيش، فأعدّ خطة ماكرة للقضاء على الصليبيين داخل مدينة دمياط، فقد اختبأت القوّات الأيّوبية في عدّة كمائن داخلها، وكانت فرقة من الصليبيين قد قصدت المدينة، فدخلوها

---

(1) هناك رواية أخرى وهي أنّ السلطان لم يوص بالمُلك إلى ابنه لأنّه كان في رأيه لا يصلح للملك فأبعده إلى حصن كيفا. ينظر: فايد حمّاد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1995م، ص 62ــ63.

(2) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 107ــ108.

(3) هي أرمينية الأصل على جانب كبير من الذكاء والجمال، بعثها الخليفة العباسي المستعصم بالله من بغداد إلى نجم الدين أيّوب بالقاهرة، فجعلها في حريمه وعندما اعتلى العرش اعتقها وتزوجها، أنجب منها ابنه خليل فعرفت بأمّ خليل. ينظر: ناصر الأنصاري، المرجع السابق، ص 157، عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 41.

(4) محمود السيد، تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيّوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1998م، ص 92.

(5) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج47، ص 43.

(6) حصن كيفا: ويقال كيبا، وسماه الروم كيفس، وهي مدينة في ديار بكر مشرفة على نهر دجلة. ينظر: صلاح الدين الصفدي، ق2، المصدر السابق، ص 144.

(7) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 125.

(8) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 156.

(9) هو فارس الدين أقطاي الصالحي نسبة إلى السلطان الصالح أيّوب، وكان قد أشتراه بألف دينار، وبعد وفاة هذا الأخير أصبح مقدم المماليك البحرية، توفي سنة 671هـ/1272م. ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص 109، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 156.

وأخذوا يتجولون في شوارعها، إلاّ أنّ القوّات الأيّوبية وأهل المنصورة انقضوا عليهم وقتلوا منهم الكثير، وكان ذلك في 4 ذي القعدة سنة 647 هـ/8 فيفري 1250م[1].

واصل بيبرس هجومه على الصليبيين الذين استطاعوا الوصول إلى قرية جديلة شرق المنصورة، حيث ألحق بهم العديد من القتلى والجرحى[2].

وفي يوم 23 ذي القعدة/27 فيفري[3] وصل السلطان المعظم توران شاه، عندئذ أدرك الملك لويس استحالة إكمال الزحف، وفكر في العودة إلى دمياط، وزاد موقفهم سوءاً نقص مؤونتهم، ولكنّ السلطان توران شاه قطع الطريق عليهم واستولى على بعض سفنهم[4].

أراد الملك لويس أن يفاوض السلطان توران شاه، ولكنّ هذا الأخير قابله بالرفض حينئذٍ هاجمهم المسلمون من كلّ ناحية، وما إن وصل الصليبيون قرية فارسكور[5] حتّى تمت محاصرتهم، فالتجأوا إلى قرية مُنية أبي عبد الله[6] وتحصنوا بها[7].

أعاد المسلمون مهاجمتهم فوقع الجيش الصليبي بأكمله تقريباً بين قتيل وأسير، ومنهم الملك لويس الذي سيق مقيّداً إلى دار القاضي إبراهيم بن لقمان[8] كاتب الإنشاء[9]، وكان

---

(1) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 109.

(2) محمد فريد عبد القادر، معارك فاصلة في تاريخ الإسلام، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، 1998م، ص 239.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، 1986م، ص 108.

(4) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 125.

(5) فارسكور: من قرى مصر قرب دمياط. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 228.

(6) مُنية أبي عبد الله: قرية لا تزال موجودة إلى اليوم على الشاطئ الشرقي لفرع النّيل الشرقي. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 323.

(7) نفسه، ج6، ص، 323.

(8) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، (ب م)، 1982، ص 122.

(9) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ــ مصر ــ، ج7، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1990م، ص 33.

ذلك يوم الأربعاء 2 محرم سنة 648هـ/6 أفريل 1250م[1].

وقد قتل في هذه المعركة من الصليبيين ثلاثون ألفاً[2] وقيل حوالي خمسين ألفاً[3]، أمّا الأسرى فكانوا حوالي عشرين ألفاً، واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل[4].

وأخيراً عُقد الصلح بين السلطان المعظم توران شاه والملك لويس لمدّة عشر سنوات يقضي بانسحاب هذا الأخير من دمياط، وأن يدفع مبلغاً من المال مقابل إطلاق سراحه، ولكنّ السلطان توران شاه قُتل، فلم تنفذ بنود الصلح[5].

وحول مقتل هذا الأخير، فإنّه كان قد بدأ بإبعاد المماليك البحرية واعتقالهم، فكان يكرههم لأنّه من أبناء الأسرة الأيّوبية، إضافة إلى أنّه قد وعد الأمير أقطاي بولاية الإسكندرية عندما قدم عليه في حصن كيفا، غير أنّه لم يف بوعده وأراد التخلص منه.

عندئذٍ قرر أمراء المماليك وهم: فارس الدين أقطاي، بيبرس البندقداري، قلاوون الصّالحي، أيبك التركماني[6]، التخلص منه يوم الاثنين 28 محرم/2 ماي من نفس السنة، حيث ضربه أوّلاً الأمير بيبرس، ففرّ السلطان إلى البرج الخشبي، فأضرم المماليك النّار فيه ممّا اضطره إلى إلقاء نفسه من البرج في نهر النيل، فتبعه الأمير أقطاي وقتله[7].

اجتمع أمراء المماليك البحرية واتفقوا على تنصيب شجر الدر سلطانة على مصر. ومن ثمّ تجددت المفاوضات بينهم وبين الصليبيين وتم الاتفاق على تسليم دمياط ودفع فدية قدرها ثمانمائة ألف بيزنطية ذهبية، والإفراج عن جميع الأسرى من الطرفين[8].

---

(1) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 65.

(2) شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل، تق: محمود الأرناؤوط، ج2، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1999م، ص 164.

(3) مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط1، مكتبة الأيمان، المنصورة، مصر، 1997م، ص 53.

(4) شهاب الدين بن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، مج 7، ط1، دار ابن الكثير، بيروت، لبنان، 1991م، ص 414.

(5) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 125.

(6) محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشّام (648ـ923هـ/1250ـ1517م)، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1997م، ص 33.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 41.

(8) محمد فريد عبد القادر، المرجع السابق، ص 244ـ245.

ومن ثمّ غادر الملك لويس دمياط في 2 صفر/8 ماي من نفس السنة متجهاً إلى عكا[1].

ولقد واجهت السلطانة شجر الدر معارضة داخلية وخارجية بسبب توليتها السلطنة، الأولى من طرف الفقيه عزّ الدين بن عبد السلام، والثانية من الخليفة العبّاسي المستعصم بالله، وعندئذ أجمع أمراء المماليك رأيهم على أن تتزوج شجر الدر من الأمير عزّ الدين أيبك[2] وتتنازل له على السلطة، وهو ما تمّ أواخر ربيع الآخر/جوان من نفس السنة[3].

غير أنّ هذه الخطوة لم تكن لتنهي معارضة الأيّوبيين كذلك، فقام أمراء المماليك بتنصيب الأمير الأيّوبي موسى بن يوسف بن الملك الكامل شريكا مع المعزّ أيبك في السلطنة، وذلك في جمادى الأولى/أوت من نفس السنة[4].

لكن هذه المحاولة لم تنجح، فزحف الأيّوبيون باتجاه مصر بقيادة الملك النّاصر يوسف والتقوا مع المماليك قرب بلدة العبّاسة بين مدينتي بلبيس[5] والصالحية[6]، وذلك في 10 ذي القعدة سنة 648 هـ/3 فيفري 1251م[7] في معركة هُزم فيها الأيّوبيون.

شجعت هزيمة الأيّوبيين السلطان المعزّ أيبك على الزحف على بلاد الشّام للقضاء عليهم، فدفع ذلك الملك النّاصر إلى طلب المساعدة من الملك لويس التاسع مقابل التنازل له عن بيت المقدس، لكنه لم يستجب له لأنّه وجد نفسه مُقيّداً بصلح دمياط[8].

بدوره طلب السلطان المعزّ أيبك من الملك لويس التاسع مساعدته ضد الأيّوبيين، فاستغل الملك لويس هذا العرض ليطالبه بشروط أهمّها:

---

(1) محمد عبد الله عودة وآخرون، المرجع السابق، ص 126.

(2) هو السلطان المعزّ عزّ الدين أيبك (لفظ تركي مركب بمعنى أمير القمر) بن عبد الله الصّالحي النّجمي المعروف بالتركماني، أوّل السلاطين المماليك بالديار المصرية. تولى السلطنة سنة 648هـ/1250م، وتلقب بالمعزّ. توفي سنة 655هـ/1257م. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7 ، ص 3، 37.

(3) نفسه، ج7، ص 5.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 14.

(5) بلبيس: مدينة في الحدود بين مصر وبلاد الشّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 479.

(6) الصالحية: قرية قرب مدينة الرها. ينظر: نفسه، مج3، ص 389.

(7) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 126.

(8) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 14.

- إطلاق سراح جيشه المأسور في مصر.
- التنازل عن بقية الفدية المطلوبة منه.

وافق السلطان المعزّ أيبك على هذه الشروط وتم عقد الاتفاق سنة 650هـ/1252م، وتنفيذاً لذلك اتفقا على الالتقاء بفلسطين لشنّ هجومهم على الأيّوبيين، غير أنّ الملك النّاصر انسحب بقواته قبل وصولهم. وقد استمر العداء بين الطرفين حتى سنة 651هـ/ 1253م، حين تدخل الخليفة العبّاسي المستعصم بالله وأصلح بينهما[1].

وبهذا الاتفاق تفرّغ السلطان المعزّ لتدعيم سلطانه في مصر، فقتل أكبر منافسيه الأمير أقطاي، وخلع الملك الأشرف[2] سنة 652هـ/1254م، ونتيجة لذلك فرّ أمراء المماليك البحرية ليلاً من القاهرة وتفرقوا في بلاد الشّام عند ملوك البيت الأيّوبي في حلب والكرك[3]، ويقال أنّ عددهم بلغ نحو السبعمائة فارس[4]، من أهمّهم ركن الدين بيبرس، وسنقر الرّومي، وسنقر الأشقر، وقلاوون الألفي[5].

لكن لم تلبث العلاقة أن ساءت بين الملك النّاصر والمماليك، فغادروا حلب سنة 655هـ/1257م وتوجهوا إلى الكرك عند ملكها المغيث[6].

أمّا في مصر فقد أقدمت شجر الدر على قتل زوجها السلطان المعزّ، ممّا جعل مماليكه يقومون بقتلها، ومن ثمّ أقاموا في السلطنة ابنه المنصور نور الدين علي[7].

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 15.

(2) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7 ، ص 11.

(3) الكرك: قرية كبيرة قرب بعلبك، بها قبر طويل يزعم أهل تلك النّواحي أنّه قبر نوح عليه السلام. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 453.

(4) محمد حمزة إسماعيل الحدّاد، صفحات من تاريخ مصر (السلطان المنصور قلاوون (تاريخ ــ أحوال مصر في عهده ــ منشآته المعمارية))، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1998م، ص 17.

(5) صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ط: يحيى بن حجى الشّافعي بن أيبك الصفدي، تح: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، ج10، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2000م، ص 207.

(6) تولى السلطنة سنة 655هـ/1257م وعمره 15 سنة، وعزل بعد عامين. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 37، 65.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 16ــ17.

في هذه الأثناء كـــان المغول[1] بقيادة هولاكو[2] يزحفون باتجـــاه بغداد، وقد راســـل هذا الأخير الخليفة العبّاسي المستعصم بالله[3]، وممّا جاء في رسائله: << إنّ الله ... منحنا الأرض ... من الشرق إلى الغرب، وكل من سار معنا وأطاعنا تبقى له أمواله ... >>[4].

ومن ثمّ احتل المغول بغداد وقتلوا الخليفة سنة 656هـــ/1258م، واستمروا في القتل والسبي أكثر من ثلاثين يوماً[5]، ثمّ واصلوا زحفهم باتجاه الشّام، عندئذ قام الأمير قطـــز[6] بعزل السلطان المنصور واعتلاء العرش ليتسنى له مواجهتهم[7].

---

[1] المغول: هي طائفة من التتار نشأت في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وقد ظهر اسم المغول أو التتار بشكل أوضح منذ بداية القرن 7هـــ/13م، عندما استطاع أحد زعمائهم المسمّى تيموجين أن يوحّد منغوليا وتلقب بجنكيزخان. ينظر: رجب محمد عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول، دار النّهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (ب م)، 1986م، ص 13ـــ16.

[2] هو هولاكو بن تولى بن جنكيزخان، أصله من براري الصين مما يلي السند، أحد أشهر قادة المغول، كان له الفضل الكبير عليهم في فتح العديد من البلدان، توفي سنة 663هـــ/1265م. ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء ج17، ص 48ـــ49.

[3] هو المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظّاهر محمد بن الناصر العبّاسي، آخر الخلفاء العبّاسيين ببغداد، ولد سنة 609هـــ/1212م، وتولى الخلافة سنة 640هـــ/1242م، وتوفي سنة 656هـــ/ 1258م. ينظر: شهاب الدين بن العماد، مج 7، المصدر السابق، ص 467.

[4] محمد الأنطاكي، معارك حربية فاصلة عربية وإسلامية (معركة عين جالوت 658هـــ/1260م)، ج6، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، (ب س)، ص 26.

[5] شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985م، ص 278.

[6] هو السلطـــان المظفر سيف الدين قطز (تعني كلمة قطز الكلب الشرس) بن عبد الله المعزّي (نسبة إلى الملك المعزّ)، ويقال أنّ اسمه الأصلي محمود بن ممدود، وأنّ خاله السلطان جلال الدين خوارزم شاه. سُبي عند زحف المغول على بلادهم، فبيع في دمشق ثم انتقل إلى القاهرة إلى أن أصبح من مماليك الملك المعزّ، تسلطن سنة 657هـــ/1259م ولقب نفسه بالملك المظفر. كان له دو كبير في معركة عين جالوت ضد المغول، وقد قتله بيبرس بعد سنة. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 67، راغب السّرجاني، التتار من البداية إلى عين جالوت، د 8، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، ص 2، سيد علي الحريري، الأخبار السنّية في الحروب الصليبية، ط3، الزّهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر، 1985م، ص 331.

[7] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 17.

أمّا المماليك البحرية فقد غادروا الكرك إلى مصر بعد أن أمّنهم السلطان قطز، هـذا في الوقت الذي واصل فيه المغول زحفهم حتى وصلوا غزّة، ومن هناك أرسل هولاكـو كتابا إلى السلطان قطز كُلّه وعيد وتهديد إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطانه[1].

ولكنّ السلطان قطز ردّ عليه ردّاً عملياً بأن قتل رُسله، وكان هذا التدبير مـن فعـل الأمير بيبرس، ومن ثم التقى الطرفان في عين جالوت من أرض بيسان في فلسطين يـوم 25 رمضان سنة 658هـ/2 سبتمبر 1260م، فكان جيش هولاكو يزيد عن مائة وعشرين ألفاً، بينما كان عدد جيش قطز أربعة آلاف[2]، وانتهت المعركة بهزيمة المغـول هزيمـة نكراء ومقتل قائدهم كتبغا نوين، مع الإشارة إلى أنّ هولاكو كان قد عاد إلى خراسان قبل ذلك[3].

وبعد هذا الانتصار سار السلطان قطز إلى دمشق واستردّها من المغول يوم الأحـد 27 رمضان/4 سبتمبر[4] من نفس السنة، وأنفذ في أثرهم الأمير بيبرس على رأس قـوة عسكرية، فلاحقهم حتى طهّر شمال بلاد الشّام منهم[5].

---

(1) محمد فتحي الشاعر، مصر قاهرة المغول في عين جالوت، دار المعارف، (ب م)، 1995م، ص 38.

(2) بدر الدين العيني، السّيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد (شيخ المحمودي)، تح: فهيم محمد علوي شلتوت، مر: محمد مصطفى زيادة، ط2، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، 1998م، ص 228.

(3) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 18.

(4) ابن كثير، البداية والنّهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركى، ج17، ط1، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، مصر، 1998م، ص 402.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 18.

2) توليه السلطة وتوطيد الحكم:

بعد نهاية معركة عين جالوت قام السلطان المظفر قطز بتنظيم حكم بلاد الشّام، كما أعاد إلى مدنها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول، وفي تلك الأثناء كان الأمير بيبرس يطارد بقايا المغول في شمال بلاد الشّام حتى لحق بهم إلى حمص.

ومن ثمّ قرّر السلطان قطز الذهاب إلى حلب لتنظيمها، ومن ثمّ الرحيل إلى القاهرة.

❖ مقتل السلطان المظفر قطز:

نقل القاضي عزّ الدين بن شداد أنّ السلطان المظفر قطز لما ملك دمشق عزم على التوجه إلى حلب، فأخبره أحد رجاله أنّ الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري قد أضمر له السوء، فعزم على التوجه إلى مصر، وقد أضمر الشَّرَّ لبيبرس[1]. هذا الأخير كان يتحين الفرصة للتخلص من السلطان قطز لثلاثة أسباب:

- أنّ السلطان قطز كان قد وبّخ وشتم وتوعّد بعض الأمراء من خشداشية[2] الأمير بيبرس بسبب هروبهم من معركة عين جالوت، لذا أضمر له بيبرس والأمراء السوء.
- أنّه أراد الانتقام لمقتل الأمير فارس الدين أقطاي الذي شارك السلطان قطز في قتله.
- أنّه استاء من تراجع السلطان قطز عن وعده بمنحه نيابة حلب إذا انتصر على المغول، وولاّها لملك الموصل السعيد علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ[3].

ولا شك في أنّ السلطان قطز قد تجاهل مكانة الأمير بيبرس التي ارتفعت بعد معركة عين جالوت، وكان من الأفضل عليه توليته إحدى النيابات الكبرى في بلاد الشّام، وإبعاده عن الحياة السياسية في مصر تجنّباً لخطورته، لا سيما أنّه كان بينه وبين المماليك البحرية بصفة عامة عداء، خاصة منذ أن شارك السلطان قطز في قتل الأمير فارس الدين أقطاي كما ذكرنا[4].

---

(1) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص 64.

(2) خشداشية: وهم الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد. وهم المماليك البحرية في هذه الحالة. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 68.

(3) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 76.

(4) أحمد عبد الكريم سليمان، المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس 648ـ676هـ/1250ـ1277م، ط1، دار النّهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، مصر، 1984م، ص 74.

صمّم الأمير بيبرس على الانتقام من السلطان قطز، فدبّر مؤامرة لقتله مع أمراء البحرية وأهمّهم: سيف الدين البلبان الرَّشيدي، وبهادر المُعزّي، وبيدغان الركني، وبكتوت المُعزّي، وبلبان الهاروني، وأنص الأصبهاني، وغيرهم. وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل السلطان قطز إلى القصير[1] في طريقه إلى القاهرة، ذلك أنّ الأخير رغب في الصيد، فلمّا فرغ من ذلك وكان بعيداً عن معسكره، تقدم الأمير بيبرس وطلب منه امرأة من سبي المغول[2]، فمنحه إيّاها، فأخذ بيبرس يده ليقبّلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين أمراء المماليك، فبادر بكتوت المُعزّي وضربه بالسيف، ثمّ رماه بهادر المُعزّي بسهم قضى عليه، وكان ذلك يوم السبت 16 ذي القعدة سنة 658هـ/23 أكتوبر 1260م[3].

وهناك روايات أخرى في هذا الصدد، منها أنّ السلطان قطز لمّا ذهب إلى الصيد تبعه الأمير بيبرس وأنص الأصبهانى، فتقدم إليه أنص على أنّه يسأله زيادة وإصلاحاً لبيبرس، ولمّا أجابه إلى طلبه نزل وقبّل الأرض ثمّ مسك يده على أنّه يُقبّلها، وضبطها ضبطاً شديداً، فضربه بيبرس ضربة بسيفه فقتله[4].

وفي رواية أخرى أنّ السلطان قطز عندما وصل إلى منطقة القصير رأى أرنباً فلحق به، وتبعه جماعة من الأمراء اتفقوا على قتله، وكان كبيرهم بيبرس البندقداري، وأنص الرّومي، وصنغلى، والهاروني، وغيرهم، ولمّا دنوا منه تقدم إليه بيبرس وشفع عنده شفاعة قبلها السلطان، فدنا منه بيبرس ليقبّل يده، فقبض عليها وتقدّم إليه أنص وضربه بالسيف، ثمّ التف حوله الأمراءً وقتلوه، ومن ثمّ دُفن السلطان قطز في موضع قتله[5].

وذكر أبو الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر أنّه لمّا وصل السلطان قطز إلى القصير ساق على أرنب، وساق معه بيبرس البندقداري الصالحي، وأنص مملوك نجم الدين الرّومي الصالحي، والهاروني، وعلم الدين صغن أغلي، فلمّا بعدوا تقدّم إليه أنص

---

(1) القصير: مدينة وميناء على البحر الأحمر بين الغرابي والصالحية. تعرف اليوم باسم الجعافرة. ينظر: شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص 64، جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 77، إبراهيم الأبياري، نظرات في التاريخ الإسلامي، مج2، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، 1987، ص 633.

(2) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص 65.

(3) جمال الدين أبو المحاسن، مورد اللطافة، ج2، ص32.

(4) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 11.

(5) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 78.

وشفع عند السلطان المظفر قطز في إنسان، فأجابه إلى ذلك، فدنا منه ليقبل يده، فقبض عليها وحمل عليه بيبرس البندقداري حينئذ وضربه بالسيف، ثمّ اجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثمّ قتلوه بالنّشاب[1]، وذلك في 17 ذي القعدة/24 أكتوبر من نفس السنة[2]. فكانت مدة حكمه أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً[3]، وهذه الرواية الأقرب إلى الحقيقة.

وقد كان قبر السلطان قطز يُقصد دائماً للزيارة، فلمّا بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه ونقله إلى غير ذلك المكان[4]، فحُمل إلى القاهرة ودُفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين[5].

❖ توليه عرش السلطنة:

كان من الطبيعي أن تؤول السلطنة بعد مقتل السلطان قطز إلى قاتله الأمير بيبرس، والذي أضحى أقوى أمراء البحرية بعد مواقفه الشجاعة في مواجهة الصليبيين والمغول.

ومن الأمور المألوفة في العصر المملوكي غالباً أن يحل القاتل محل القتيل في سدة الحكم[6]، فاتفق الأمراء الذين اشتركوا معه في قتل قطز على سلطنته، فلمّا اتجهوا إلى الدهليز السلطاني[7] قابلهم الأتابك[8] الأمير أقطاي المستعرب، فأخبروه بما فعلوا، وعندئذ سألهم: من قتله منكم؟، فقال بيبرس: أنا قتلته، فرد عليه: اجلس في مرتبة السلطنة مكانه، فجلس، ثمّ بايعه وحلف له، ثمّ تلاه الأمراء وهم: بدر الدين بيسري، وسيف الدين قلاوون، وبيليك الخازندار، ثمّ بقية الأمراء والجند، وتمّ ذلك الحلف على المصحف الشريف[9].

---

(1) النّشاب: هو النّبل، وهو من أدوات الصيد والحرب، على هيئة السهم، سمّي كذالك لأنّه مسنن، سهل الدخول في الجسم وصعب الخروج، يطلق بواسطة أداة على هيئة القوس. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 422.

(2) أبو الفداء، ف6، المصدر السابق، ص 453.

(3) جرجس بن العميد المكين، المرجع السابق، ص 55.

(4) علي محمد الصّلابي، المغول (التتار) والمماليك بين الانتشار والانكسار، ط1، الأندلس الجديدة، مصر، 2009م، ص 373.

(5) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 145.

(6) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 87.

(7) الدهليز السلطاني: هو المعسكر الذي يقيم فيه السلطان إذا خرج للحرب أو الصيد. ينظر: نفسه، ص 87.

(8) الأتابك: لفظ تركي مركب من أتا: بمعنى الأب أو الشيخ المحترم، وبك: بمعنى الأمير. وقد أطلق هذا اللقب في العصر المملوكي على أمير الجيش وقائده. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 17.

(9) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 58.

ومن ثمّ توجه بيبرس إلى القاهرة التي وصلها ليلة الاثنين 19 ذي القعدة/26 أكتوبر من نفس السنة لإجراء مراسم التنصيب، فلقيه الأمير عزّ الدين أيدمر الحلي على مدخلها، وكان هذا الأخير قد خرج للقاء السلطان قطز، فأعلمه بيبرس بما جرى، فبايعه الحلي وتقدمه إلى القلعة[1]، فدخلها بيبرس وجلس على سدة السلطنة وتلقّب بالملك القاهر[2].

تزيّنت القاهرة لاستقبال السلطان قطز، فإذا بالمنادي يصيح: ترحّموا على السلطان قطز وادعوا لسلطانكم الملك القاهر[3]، فأصابت النّاس الحيرة لأنّهم لم ينسوا ظلم المماليك البحرية من قبل ــ حدث ذلك زمن الصالح أيوب ــ، فخشوا من استبدادهم بالحكم[4].

وكان من بين من حضر مراسيم التنصيب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير[5]، وكان فاضلاً في الأدب وعلم التاريخ[6]، فأشار على السلطان بيبرس أن يغيِّر لقبه، وقال: ما لُقّب به أحد فأفلح[7]، فاستجاب بيبرس لنصيحته فغيّره بلقب السلطان الظاهر، وأمر المنادي بأن يطوف في شوارع القاهرة ويدعوا للسلطان الظاهر[8].

❖ الأوضاع الداخلية في عهد السلطان الظاهر بيبرس:

اتصف بيبرس بالحزم وعلو الهمة والبأس الشديد، وبعد النظر وحسن التدبير، كما اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام، فلم يكد يستقر في الحكم حتى اتخذ عدة إجراءات بهدف تثبيت أقدامه في السلطة، وتحصين دولة المماليك النّاشئة، ومنها:

- **التقرب من الخاصة والعامة:**

بعد توليه السلطة أخذ السلطان بيبرس يتقرب إلى الخاصة والعامة ليستقطب الأمراء وليلتف النّاس حوله ويدعموا حكمه، فأقدم أولاً على توزيع المناصب على الأمراء الذين

---

(1) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 145.

(2) أبو الفداء، ف6، المصدر السابق، ص 454.

(3) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص 65.

(4) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 88.

(5) هو زيد الدين يعقوب بن الزبير الأسديّ، من أحفاد عبد الله بن الزبير، كان وزيراً للسلطان قطز ثمّ للسلطان بيبرس. توفي سنة 668هـ/1269م. ينظر: صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص 208.

(6) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 94.

(7) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص 66.

(8) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 88.

يثق بهم، فعيّن الأمير أقطاي المُستعرب أتابكاً للعسكر، والأمير صيام الدين لاجين دواداراً[1] أوّلاً، والأمير سيف الدين بلبان الرّومي دواداراً ثانياً، والأمير بهاء الدين يعقوب أمير آخور[2] أوّلاً، والأمير أيبك الأفرم أمير جاندار[3]، والأمير جمال الدين آقوش النّجيبي الصالحي أستداراً[4][5]، وغيرهم من المماليك الذين ساندوه في قتل السلطان قطز[6].

وبذلك يكون السلطان بيبرس قد أرضى الأمراء وحال بينهم وبين تدبير المؤامرات فسانده هؤلاء في إدارة شؤون الدولة مُشكلين عاملا من عوامل استقرار الدولة الداخلي.

كما رتّب في الوزارة زيد الدين يعقوب بن الزبير، وعيّن الأميرين ركن الدين إياجي وسيف الدين بكجري حاجبين[7][8].

ثمّ أقدم السلطان بيبرس على تخفيف الضرائب عن السكان، فألغى ما كان قد أحدثه السلطان قطز من ضرائب بحجة محاربة المغول، وكانت هذه الضرائب بواقع دينار على كل فرد في مصر، كما عفا عن بعض المعتقلين من بينهم الملك المنصور بن الملك المعز أيبك وأمّه وأخاه ناصر الدين قاقان[9]، وكانوا معتقلين بقلعة الجبل، غير أنّه نفاهم إلى بلاد الأشكري[10]. كما أنّه أمر بإحضار المماليك البحرية الذين كانوا خارج مصر[11].

---

(1) دواداراً: لقب يطلق على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، ويتولى أمرها مع ما ينضم إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك. ينظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 89.

(2) أمير آخور: هو الذي يهتم باصطبل السلطان أو الأمير، فيتولّى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما ممّا هو داخل في حكم الاصطبلات. ينظر: نفسه، ص 89.

(3) أمير جاندار: لقب يطلق على الذي يستأذن على الأمراء وغيرهم عند الجلوس بدار العدل. ينظر: نفسه، ص 89.

(4) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 146.

(5) أستداراً: أو الأستدار، لقب مملوكي يطلق على القائم بالشؤون الخاصة بالسلطان. والأستدارية وظيفة تختص بالإشراف على أمر بيوت السلطان من المطابخ والغلمان والنفقات. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 15.

(6) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 89.

(7) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 146.

(8) الحاجب: منصب يقوم صاحبه مقام النائب في الولايات. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 69.

(9) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص 66ــ67.

(10) بلاد الأشكري: أي الدولة البيزنطية، والأشكري لقب أطلق على ملوك القسطنطينية. وإمبراطورها في هذه السنة هو تيودور لاسكاريس الثاني (1254ــ1258م). ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 52.

(11) ابن إياس الحنفي المصري، المختار من بدائع الزّهور في وقائع الدّهور، مطابع الشعب، مصر، 1960م، ص 82.

ثمّ كتب إلى الأمراء والملوك في بلاد الشّام يُبيّن لهم انتصار الدولة المملوكية على المغول في عين جالوت، ويوضّح لهم أنّ ما جرى من تغيير في الحكم اقتضته الظروف المُستجدة بعد هذا الانتصار. فكتب إلى ملك حمص الأشرف، وملك حماه المنصور، وملك الموصل علاء الدين لؤلؤ، وأمير دمشق علم الدين سنجر الحلبي، وكذلك إلى الإسماعيلية[1][2]. وتعتبر هذه الخطوة انفتاحاً منه على العالم الإسلامي لكسب ودّ زُعمائه[3].

- **القضاء على الحركات المناهضة لحكمه:**

- **ثورة علم الدين سنجر الحلبي:**

قاد علم الدين سنجر الحلبي ثورة ضد حكم السلطان بيبرس، وقد برّر ذلك بسببين:

✓ أنّه استاء كثيراً لمقتل السلطان قطز الذي كان قد ولاّه حاكماً على دمشق.

✓ تولّي بيبرس السلطنة دون استشارة أمراء بلاد الشّام.

بادر هذا الأخير بإعلان نفسه ملكاً على دمشق[4]، كما جمع النّاس وحلّفهم لنفسه بالسلطنة، وذلك في أوائل ذي الحجة سنة 658هـ/نوفمبر 1260م، فأجابه النّاس إلى ذلك، ولقّب نفسه بالملك المجاهد، وخُطب له بالسلطنة على منابر دمشق[5]، وضُربت السكة باسمه، ثمّ كاتب هذا الأمير ملك حماه المنصور في ذلك وطلب منه الانضمام إليه، غير أنّ هذا الأخير ردّ عليه قائلاً: أنا مع من يملك الدّيار المصرية كائناً من كان[6].

وفي رواية أخرى أنّ هذا الأمير قد تسلطن وخُطب له بدمشق في 6 ذي الحجة/12 نوفمبر من نفس السنة مع السلطان بيبرس، كما أنّه أمر بضرب الدّراهم باسمهما[7].

---

(1) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدُّرر وجامع الغرر (الدُّرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تح: أولرخ هارمان، ج8، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، مصر، 1971م، ص 63.

(2) الإسماعيلية: هي فرقة شيعية ببلاد الشّام، تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد كان لهذه الفرقة عدّة حصون وقلاع ببلاد الشّام سيتمّ ذكرها لاحقاً. ينظر: بدر الدين العيني، المصدر السابق، ص 60.

(3) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 90.

(4) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 87.

(5) حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 166.

(6) أبو الفداء، ف6، المصدر السابق، ص 454.

(7) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص 66.

وحتى يدعم موقفه أرسل إلى الأمير الحلبي حسام الدين لاجين، وملك حماه المنصور كما ذكرنا، وملك حمص الأشرف موسى، ليدخلوا في طاعته، وكان أن وعدهم بالأموال والإقطاعات[1]، فرفضوا إجابة طلبه خشية السلطان بيبرس على ما يبدو[2].

حاول السلطان بيبرس أن يتعامل مع هذه القضية التي هدّدت حكمه في بلاد الشّام بالحكمة أولاً، فأرسل الكتب والرّسل إلى الأمير سنجر لإقناعه بالعدول عن موقفه، غير أنّه رفض الاستجابة، وأخذ في تحصين قلعة دمشق استعداداً للقتال[3].

عندئذ قرّر السلطان الظاهر بيبرس القضاء على حركته، فأرسل حملة عسكرية بقيادة الأمير علاء الدين البندقداري الذي وصل دمشق يوم الاثنين 13 صفر سنة 659هـ /17 جانفي 1261م، في هذه الأثناء خرج الأمير سنجر الحلبي لقتالهم، غير أنّه مُني بالهزيمة ودخل قلعة دمشق إلى أن حل اللّيل، فهرب من القلعة إلى جهة بعلبك[4]، فتبعه الأمير علاء الدين وقبض عليه وساقه مُكبلاً إلى القاهرة حيث سُجن في قلعة الجبل، وبعد فترة قصيرة عفا عنه السلطان بيبرس[5].

وقد ولّى هذا الأخير الأمير علاء الدين نيابة دمشق، وكلّفه بالقبض على الأمراء الذين كان يخشى منافستهم في بلاد الشّام بعد أن فرّ أحدهم، وهو شمس الدين آقوش البُرلي، الذي فرّ إلى حلب واستولى عليها بمساعدة أعوانه، ثمّ عزم على السير إلى مصر لانتزاعها من السلطان بيبرس، لكن هذا الأخير أرسل حملة عسكرية قضت على قواته، وفرّ البُرلي إلى خارج حلب غير أنّه تم القبض عليه في ذي القعدة سنة 660هـ/أكتوبر 1262م[6].

---

(1) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 64.

(2) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 178.

(3) قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، المرجع السابق، ص 149.

(4) بعلبك: مدينة قديمة بينها وبين دمشق مسيرة ثلاثة أيّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 453.

(5) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 91.

(6) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيّوبيون والمماليك، ص 203.

- **انتفاضة الكوراني[1]:**

واجه السلطان بيبرس في مستهل حكمه حركة داخلية قامت في القاهرة تزعمها رجل شيعي عُرف بالكوراني، والذي أظهر الزهد والورع، وسكن قُبة جبل المقطم المتاخم للقاهرة[2]، فالتف حوله الغلمان والركابدارية[3] وجماعات من السودان، فوعدهم بمنحهم الإقطاعيات الواسعة في محاولة لاستقطابهم، ومن ثمّ أخذ يُحرضهم على الانتفاضة ضد الحكم المملوكي السنّي واستبداله بحكم شيعي، وهذا بهدف إعادة إحياء الخلافة الفاطمية[4].

وقد قام أتباعه بانتفاضة كبرى في أواخر سنة 658هـ/1260م، فانطلقوا في شوارع القاهرة ليلاً وهم ينادون بشعار الشيعة << يا آل علي >>، وفتحوا حوانيت السيوفيين واستولوا على ما بها من أسلحة، كما استولوا على عدد من الخيول من اصطبلات المدينة[5].

لم يتردد السلطان بيبرس في قمع حركتهم، فنجح في إخمادها وإلقاء القبض على زعمائها، وقد أمر بصلب الكوراني وغيره من الزعماء على باب زويلة[6].

- **انتفاضة حصن الدين بن ثعلب:**

قام حصن الدين بن ثعلب بانتفاضته بمصر سنة 659هـ/1261م ضد حكم السلطان الظاهر بيبرس، والجدير بالذكر أنّ أتباعه لم يتمتعوا بالمهارة القتالية وحسن الاستعداد والتنظيم، لذلك لم يتمكنوا من الصمود في وجه القوّات الإسلامية، فكانت الهزيمة مآلها، وألقي القبض على حصن الدين الذي شنقه السلطان بيبرس فيما بعد في الإسكندرية[7].

---

(1) نسبة إلى كوران إحدى قرى آسفرايين، وهي بلدة في نواحي نيسابور في منتصف الطريق من جرجان. ينظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 91.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 88.

(3) هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحافلة، كالميادين والأعياد. وهم تابعون للركاب خاناه، وهو بيت الركاب الذي تكون فيه السروج واللجم. ينظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 91.

(4) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 60.

(5) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 88.

(6) أحمد مختار العبّادي، في تاريخ الأيّوبيين، ص 153.

(7) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 92.

وهكذا قضى السلطان بيبرس على الحركات الداخلية المعارضة لحكمه، ممّا يُعتبر عاملاً من عوامل تدعيم دولة المماليك البحرية بشكل عام، وتثبيت حكمه بشكل خاص.

- **إعادة إحياء الخلافة العبّاسية:**

يبدو أنّ السلطان بيبرس شعر منذ أن تسلّم الحكم أنّه بحاجة إلى سند شرعي يكسب حكمه الصفة الشرعية، خاصة بعد مشاركته في قتل السلطان قطز واعتلاء العرش[1]، إضافة إلى أنّه كان من المماليك الذين شعروا منذ قيام دولتهم أنّهم انتزعوا الحكم من سادتهم الأيّوبيين، ويضاف إلى ذلك أيضاً أنّ كثيراً من النّاس نظروا إليهم من زاوية أصلهم غير الحر، لذا سعوا للبحث عن سند شرعي يبررون بواسطته حكمهم[2].

والحقيقة أنّ العالم الإسلامي شعر بفراغ كبير في منصب القيادة الروحي على الأقل، بعد سقوط بغداد في أيدي المغول، إذ كان من المتعذر بعد مقتل الخليفة المستعصم أن يخلفه أحد من أبناء بيته في بغداد نظراً لأنّ هذه المدينة أضحت تحت سيطرة المغول.

وقد حاول بعض حكام الإمارات الإسلامية إحياء الخلافة العبّاسية في بلدانهم ليدعموا مركزهم من ناحية، ويجعلوا بلاطهم قبلة بقية حكام العالم الإسلامي من ناحية أخرى[3].

ويبدوا أنّ ملك حلب النّاصر يوسف فكّر في الإقدام على هذه الخطوة عقب سقوط بغداد، وهذا من خلال استقطاب أحد أبناء البيت العبّاسي الفارين من وجه المغول، ليعلنه خليفة في بلاد الشّام، لكنّ النّاصر فوجئ بقدوم المغول إلى الشّام، فانصرف عن ذلك[4].

وقد شاءت الظروف أن يكون تنفيذها على يد السلطان بيبرس، بعد أن أصبح الوضع يتطلب أن يقوم زعيم إسلامي بإعادة إحياءها لتؤدي دورها القيادي في العالم الإسلامي.

أراد السلطان بيبرس أن يكون هو هذا الزعيم الذي يعيد الحياة إلى هذه الخلافة على أن يكون مقرها القاهرة، وقد اضطر إلى التعجيل بتنفيذ ذلك لعدة أسباب أهمها:

✓ ليجعل منها سنداً للسلطنة المملوكية التي كانت بحاجة ماسة إلى هذا الدعم الروحي.

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيّوبيون والمماليك، ص 204.

(2) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 92.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيّوبيون والمماليك، ص 204.

(4) أحمد مختار العبّادي، في تاريخ الأيّوبيين، ص 155.

✓ إنّ وجود الخليفة العبّاسي في مصر يُضفي على سلطان المماليك مكانة أعلى من مكانة الأمراء والملوك في العالم الإسلامي، كما يظهره بمظهر الحامي للخلافة والإسلام[1].

✓ إنّ إقامة خليفة سنّي المذهب من شأنه أن يقضي على هذه المحاولات التي بذلها ويبذلها الشيعة في مصر لإحياء الدولة الفاطمية[2].

✓ لقد هدف السلطان بيبرس بالإضافة إلى الدعم الديني، إلى التوسع السياسي ببسط سيطرته بمساعدة الخليفة على البلدان المجاورة لمصر، خاصة بلاد الحجاز، ليقوّي بذلك مقام السلطنة المملوكية الشرعي في نظر المسلمين، ويرفع من مكانة حكامها باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين، وتأمين حدود مصر الشرقية ومدّها حتى نهر الفرات[3].

والواقع أنّ السلطان الظاهر بيبرس لم يكن أول من فكر في نقل الخلافة العبّاسية إلى مصر، ولكنّه كان أوّل من نجح في تحقيق هذا المشروع، والأدلة على ذلك كثيرة[4].

فقد حاول مثلاً أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر وبلاد الشّام (254ـ292هـ/868ـ905م)[5]، جلب الخليفة العبّاسي المعتمد إلى مصر سنة 268هـ/882م من أجل تدعيم دولته الجديدة في مصر وبلاد الشّام، غير أنّ مشروعه لم يتحقق[6].

كما حاول السلطان قطز نفس المحاولة، ذلك أنّه علم حين قدم دمشق بعد معركة عين جالوت بوجود أمير عبّاسي يدعى أبا العبّاس أحمد قد وصل إلى دمشق، فاستدعاه وبايعه بالخلافة، ولكنّ مصرعه حال دون إعادة كرسي الخلافة إلى القاهرة[7].

بدأ السلطان الظاهر بيبرس سنة 659هـ/1261م بتنفيذ مشروعه، فاستدعى الأمير العبّاسي أبا العبّاس أحمد إلى القاهرة، لكنّ هذا الأخير وجد أن الأمير العبّاسي أبا القاسم

---

(1) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 92.

(2) السير وليم موير، صفحات من تاريخ مصر (تاريخ دولة المماليك في مصر)، تر: محمود عابدين، سليم حسن، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1995م، ص 48.

(3) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 94.

(4) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 61.

(5) أحمد معمور لاحق العسيري، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر 1417هـ/1996ـ1997م، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الدمام، السعودية، 1996م، ص 220.

(6) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 180.

(7) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 88.

أحمد قد سبقه إليها بثلاثة أيّام، فرأى أن لا يدخل إليها خوفاً من أن يمسك، فرجع إلى حلب[1].

وصل إلى دمشق في ذلك الوقت الأمير العبّاسي أبو القاسم أحمد[2] ومعه جماعة من بني خفاجة قرابة خمسين فارسا[3] مع بعض الأمراء، فكتب الأميران علاء الدين طيبرس نائب دمشق، وعلاء الدين أيدكين، كتاباً إلى السلطان بيبرس يعلمانه بذلك، فوجد هذا الأخير فرصته التي كان يتمناها، فكتب إلى الأميرين يوصيهما به خيراً ومن ثمّ أمرهما بأن يرسلاه إلى القاهرة[4].

استعدت القاهرة لاستقبال الأمير العبّاسي الذي وصل يوم الأربعاء 8 رجب سنة 659هـ/8 جوان 1261م، فخرج السلطان بيبرس من قلعة الجبل إلى ضاحية المطرية[5] قرب القاهرة[6]، ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا، وقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعزّ[7]، وسائر الأمراء وجميع العسكر، وكذا أعيان مصر ومعظم النّاس، كما خرجت اليهود بالتوراة والنّصارى بالإنجيل[8] ومعهم الشموع الموقدة[9] لاستقباله، ولمّا التقوا به ترجّل السلطان بيبرس إجلالاً لمقامه، ثمّ تقدم وعانقه. وقد صحب الأمير العبّاسي عشرة من أمراء الأعراب، منهم الأمير ناصر الدين مهنا[10].

---

(1) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 104.

(2) هو المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظّاهر بأمر الله محمد بن الخليفة النّاصر لدين الله أحمد بن المستضيء الحسن بن الخليفة المستنجد بالله يوسف بن الخليفة المقتفي لأمر الله محمد بن الخليفة المستظهر بالله أحمد بن الخليفة المقتدي بأمر الله عبد الله بن الأمير بن الخليفة الرشيد هارون بن الخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس الهاشميّ العبّاسي البغداديّ. ينظر: نفسه، ج7، ص 99.

(3) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 15.

(4) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 94.

(5) المطرية: من قرى مصر قرب مدينة القاهرة. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 149.

(6) ناصر الأنصاري، المرجع السابق، ص 163.

(7) أبو الفداء، ف6، المصدر السابق، ص 458.

(8) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 149.

(9) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 89.

(10) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ط1، دار إحياء الكتب العربية، (ب م)، 1968م، ص 52.

وفي صباح يوم الاثنين 13 رجب/13 جوان، عقد السلطان بيبرس مجلساً عاماً بالديوان الكبير في قلعة الجبل حضره العلماء والقضاة ورجال الدولة وعامة النّاس، كما حضره شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام شيخ الشّافعية[1]، وقد شهد أمراء الأعراب الذين قدموا معه أمام الجميع بأنّ نسبه يتصل بالعبّاس بن عبد المطلب، كما شهد بذلك القاضي جمال الدين يحيى بن عبد المنعم نائب الحكم بمصر، والفقيه علم الدين محمد بن الحسين، والقاضي صدر الدين الجزري[2]، وغيرهم. فحكم قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بصحة شهادتهم وصحة نسبه وبايعه بالخلافة، ثمّ تبعه السلطان بيبرس الذي بايعه على العمل بكتاب الله وسنّة نبيه، وعلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها[3]، ثمّ بايعه الأمراء وكبار رجال الدولة، ثمّ عامة النّاس، وقد تلقب بالمستنصر بالله، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بني عباس[4]، وأول خليفة يلقّب بلقب خليفة قبله[5]، ثمّ خُطب للخليفة على المنابر ورُسم اسمه في السكة[6]، كما رتّب له السلطان بيبرس أتابكاً وحاجباً وكاتباً وكل ما يحتاج إليه[7].

وقام الخليفة العبّاسي بدوره فقلّد السلطان بيبرس البلاد الإسلامية وما سيضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار[8].

وقد كتب السلطان بيبرس إلى سائر الملوك والأمراء والنّواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة الجديد، وأمرهم بالدعاء له على المنابر وأن تُنقش السكة باسمهما.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تع: عبد القادر زكّار، ج4، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1983، ص 27.

(2) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 149.

(3) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 16.

(4) شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص 298.

(5) القلقشندي، ج4، المصدر السابق، ص 28.

(6) عبد الرّحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مر: سهيل زكار، ج3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000م، ص 664.

(7) أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح: أحمد حطيط، فهمي سعد، مج2، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1992م، ص 202.

(8) أحمد مختار العبّادي، في تاريخ الأيّوبيين، ص 157.

وفي يوم الجمعة 17 رجب/17جوان من نفس السنة خطب الخليفة المستنصر بالله في جامع القلعة، فاستفتح بقراءة صدر سورة الأنعام، ثمّ صلى على النّبي صلى الله عليه وسلّم، وترضّى عن الصّحابة وذكر شرف بني العبّاس، ودعا للملك الظّاهر بيبرس، ثمّ تلا خطبته، فاستحسن النّاس ذلك منه، ثمّ نزل بعد تمامها وصلى بالنّاس الجمعة[1].

وفي 4 شعبان/4 جويلية من نفس السنة سار الخليفة والسلطان والقضاة والأمراء[2] إلى البستان الكبير الذي ضُربت به الخيام، فقام الخليفة وألبس السلطان خلعة السلطنة[3]، ثمّ صعد فخر الدين صاحب ديوان الإنشاء منبراً فقرأ التقليد وهو من إنشائه وبخطّه[4].

ويبدو أنّ هذا الأخير لم يقتنع بكل ما جرى من مراسيم التقليد، فعقد اجتماعاً ثانياً خاص بالأمراء تلا فيه فخر الدين تفويض الخليفة العبّاسي للسلطان بيبرس.

ومهما يكن فقد حصل السلطان بيبرس على ما كان بحاجة ماسة إليه من مظاهر دينية تدعم سلطنته، غير أنّه أوجد في الوقت نفسه شريكاً له في الملك سوف يكون له أثر سلبي على منصب السلطنة إذا ما دبّ خلاف بينهما، على اعتبار أنّ الرأي العام الإسلامي سوف يساند الخليفة بعد أن صبغ حكمه بالصبغة الشرعية[5].

ثمّ إنّ الخليفة المستنصر قد طلب من السلطان بيبرس أن يجهز له حملة إلى بغداد لاستعادتها من يد المغول، وهو ما تم، ويقال أنّ مبلغ ما أُنفق في هذه الحملة من الذهب عشرة آلاف دينار وستون درهم[6]، كما جهّز له السلطان جنداً وكل ما يحتاج إليه[7].

---

(1) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 150.

(2) ابن كثير، المصدر السابق، ج17، ص 428.

(3) خلعة السلطنة: هي عمامة سوداء مذهّبة ومزركشة، وجبّة حرير سوداء ودراعة (جبّة مشقوقة من الأمام ولا تكون إلاّ من صوف) بنفسجية اللون، وطوق وقيد من ذهب، وسيف ولواءان يُنشران على رأسه، وسهمان كبيران، وترس. ينظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 95.

(4) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 100.

(5) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 96.

(6) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، ط1، مكتبة نزار مصطفى الباز، (ب م)، 2004م، ص 336.

(7) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 58.

ولقد كانت نوايا السلطان تجاه الخليفة في أول الأمر طيبة، ولكن حدث أن خلى به أحد المقربين إليه وأعلمه بأنّ الخليفة إذا استقر ببغداد سينازعك ويخرجك من مصر، لذا رأى أنّه من الأحسن أن تظلّ تلك الخلافة في القاهرة، فرجع عن قراره ولم يبعث معه سوى عدد قليل من الفرسان، لعلمه بأنّه عدد غير كاف وأنّ الخليفة على الأغلب سيقتل، ممّا يمكنه من استدعاء الأمير العبّاسي الآخر، وبذلك تظل الخلافة العبّاسية في القاهرة[1].

خرج الخليفة المستنصر بالله وبصحبته السلطان بيبرس إلى دمشق يوم 19 رمضان/ 17 أوت من نفس السنة[2]، فدخلاها يوم الاثنين 7 ذي القعدة/3 أكتوبر، وصليّا فيها الجمعة[3]، ثمّ رجع السلطان إلى مصر ووصل القاهرة في 17 ذي الحجة/13 أكتوبر[4].

سار الخليفة المستنصر يوم الأحد 13 ذي القعدة/9 أكتوبر نحو العراق[5]، وفي طريقه انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق من خفاجة وعبادة[6]، كما التقى بالأمير العبّاسي أبي العبّاس أحمد ومعه نحو سبعمائة فارس من التّركمان، فاتفقا على توحيد قوّاتهما لمحاربة المغول، غير أنّهما هُزما في معركة عند بلدة هيت[7]، ولم ينج منها سوى الأمير أبي العبّاس أحمد ونحو خمسين فارساً، أمّا الخليفة المستنصر بالله فقد عدمه المغول، وذلك يوم الاثنين 3 محرم سنة 660هـ/28 نوفمبر 1261م[8].

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيّوبيون والمماليك، ص 209.

(2) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 81.

(3) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 58.

(4) أبو الفداء، ف6، المصدر السابق، ص 458.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 82.

(6) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 186.

(7) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 421.

(8) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 58.

استدعى السلطان بيبرس الأمير العبّاسي أبي العبّاس أحمد[1] الذي وصل مصر في 27 ربيع الآخر سنة 660هـ/21 مارس 1262م، وعمره آنذاك خمس عشرة سنة[2]، وقد احتفل السلطان بلقائه وأنزله بالبرج الكبير داخل قلعة الجبل[3].

غير أنّ مبايعة هذا الأمير بالخلافة كانت بعد أكثر من ثمانية أشهر، فكانت يوم الخميس 9 محرم سنة 661هـ/23 نوفمبر 1262م، وكما حصل للخليفة المستنصر بالله فقد جرت احتفالات التنصيب في القاهرة، حيث حضر السلطان بيبرس والقضاة والأعيان وأرباب الدولة، فقُرئ نسب الخليفة على قاضي القضاة وشهد عنده جماعة بذلك، فأثبته ومدّ يده وبايعه بالخلافة، ثمّ بايعه السلطان بيبرس والوزير، ثمّ الأعيان على اختلاف طبقاتهم، وقد لُقب بالخليفة الحاكم بأمر الله، ومن ثمّ أُنزل إلى مناظر الكبش[4].

وفي المقابل حصل السلطان بيبرس منه على تقليد بالسلطنة، ثمّ خُطب له على المنابر وزُيّنت باسمه السكة[5].

وهكذا أعاد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العبّاسية في القاهرة للمرة الثانية، إلاّ أنّه قيّد هذا الخليفة بصلاحيات ضيّقة جداً بحيث أسكنه عنده في القلعة، مع أنّه كان مُوسّعاً عليه في النفقات، فلم يترك له فرصة للظهور وتأكيد نفوذه على حساب السلطنة، حيث كان العلماء والقرّاء يترددون إليه هناك، ثمّ بعد فترة أسقط اسمه من سكة النقود[6]، واقتصر الأمر على الدعاء له في الخطبة فقط[7].

---

(1) هو أبو العبّاس أحمد ابن الأمير أبي علي الحسن ابن الأمير أبي بكر بن الحسن بن علي القبّي ابن الخليفة المسترشد بالله أبي منصور الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد العبّاسي. وهو أول خليفة من بني العبّاس توفي بالقاهرة. ينظر: شهاب الدين بن العماد، مج7، ص 528، جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 107.

(2) القلقشندي، ج4، المصدر السابق، ص 28.

(3) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 107.

(4) مناظر الكبش: هي عبارة عن مجموعة قصور أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيّوب على جبل بجوار الجامع الطولوني. وقد تأنّق الملك الصالح في بنائها وسمّاها الكبش. هدّمها السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة 768هـ/ 1367م. ينظر: نفسه، ج7، ص 107.

(5) عبد الرّحمان بن خلدون، ج3، المصدر السابق، ص 665.

(6) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص 61.

(7) أحمد مختار العبّادي، في تاريخ الأيّوبيين، ص 161.

ومن هنا فقد أضاف السلطان الظاهر بيبرس هذا النجاح إلى مجموعة العوامل المساعدة في تحصين دولة المماليك البحرية النّاشئة، فاكتسب سنداً شرعياً أمام الرأي العام يقوي به مركزه ومركز دولته[1].

- **ولاية العهد:**

سنّ السلطان الظاهر بيبرس ولاية العهد في دولة المماليك البحرية، فحصر وراثة العرش في أسرته، وقد مهّد لذلك بأن جعل الأمراء يُقسمون يمين الطاعة لابنه خاقان بركة خان[2] سنة 660هـ/1262م، ثمّ ولاّه في سنة 662هـ/1264م ولاية العهد عندما وافته الأخبار بقدوم المغول إلى بلاد الشّام، لينوب عنه في مصر أثناء انشغاله بمحاربتهم[3]، وقد أمر أن يقام احتفال حاشد بهذه المناسبة، وكتب لابنه تقليداً بولاية العهد ولقّبه بالملك السّعيد[4].

ثمّ أخذ بعد ذلك من الأمراء وعامة النّاس الأيمان الموثقة باحترام ولاية العهد لابنه، وأذيع ذلك العهد في أرجاء البلاد، وفي جميع الأقطار التابعة للدولة المملوكية[5].

مع الإشارة إلى أنّ السلطان بيبرس جدّد ولاية العهد لابنه سنة 667هـ/1268م.

---

(1) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 65.

(2) سُمي بركة خان على اسم جدّه لأمّه بركة خان الخوارزمي. ينظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 97.

(3) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر (الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص)، دار الفكر العربي، (ب م س)، ص 19.

(4) هو الملك السعيد أبو المعالي ناصر الدين بن الملك الظاهر بيبرس، ولّي السلطنة بعد وفاة أبيه سنة 676هـ/1277م، وتوفي سنة 678هـ/1279م. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 124.

(5) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 97.

الفصل الثاني:

بداية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس (659ـ665هـ/ 1261ـ1266م)

1) مرحلة تأمين وتقوية الجبهة الداخلية والمهادنات والهجمات العسكرية الأولى (659ـ662هـ/ 1261ـ1264م)

2) مرحلة الحرب الشاملة (663ـ665هـ/ 1265ـ1266م)

الفصل الثاني: بداية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظـــاهر بيبرس (659ـــ665هـــ/1261ـــ1266م)

شهدت الإمارات الصليبية اعتباراً من النصف الثاني من القرن الـــسابع الهجـــري/ الثالث عشر الميلادي، تدهوراً ومشاكل داخلية شغلت الصليبيين عن الالتفات إلى المسلمين والتصدي لهم. ولعلّ أهم أسباب هذا التدهور يعود إلى:

- انعدام الروح الدينية بين الأمراء الصليبيين.
- كثرة النّزاعات بين هؤلاء الأمراء خاصة حول السلطة ومناطق النفوذ.
- عدم وجود سلطة صليبية مركزية تربط الإمارات بعضها ببعض[1].

من هذا المنطلق رأى السلطان الظاهر بيبرس ضرورة مواصلة سياسة صلاح الدين الأيّوبي وخلفائه في طرد الصليبيين من بلاد المشرق.

1) مرحلة تأمين وتقوية الجبهة الداخليـــة والمهادنات والهجمات العسكرية الأولـــى (659ـــ662هـــ/1261ـــ1264م):

لم يكن للسلطان بيبرس أن يحقق هدفه المنشود في طرد الصليبيين من بلاد المشرق دون تأمين وتقوية الجبهة الداخلية، وهذا من خلال تحصين الأطراف والثغور، والعنايـــة بالبريد، إضافة إلى تقوية الأسطول والجيش، وسنتناول هذين العنصرين كُلاً على حدة.

❖ مرحلة تأمين وتقوية الجبهة الداخلية:

- **تحصين الأطراف والثغور والعناية بالبريد:**

احتاجت دولة المماليك البحرية إلى تأمين حدودها ضد الغزو الخـــارجي[2]، وهـــذا كدعامة من دعامات قوّتها وبقائها، ولذا كان ما قام به السلطان بيبرس في هذا الشأن مـــن أهمّ ما تحتاجه دولته للقيام على أساس متين، وأوّل ذلك أنّه جنّد ســـنة 659هـــ/1261م العشائر العربية[3] القاطنة على حدود العراق[4]، وحثّهم على قتال هولاكو وحراسة مناطق

---

[1] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 119.

[2] أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 175.

[3] وهي العشائر المقيمة على حدود نهري دجلة والفرات، مثل عرب خفاجة. ينظر: نفسه، ص 176.

[4] قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 97.

الحدود مع العراق[1]، وهذا بعد أن منحهم الخلع[2] والأموال، فقامت هذه العشائر بمُهمّتها على أكمل وجه، حيث شنّوا هجمات ناجحة حتى وصلت غاراتهم أبواب مدينة بغداد[3].

ولم يكتف السلطان بيبرس بذلك، بل أمر نوابه بحلب سنة 660هـ/1262م بإحراق المروج[4] والمزارع التي جرت عادة هولاكو النزول فيها[5] أثناء هجومه على بلاد الشّام، فأُحرقت جميعها[6].

كذلك اهتم السلطان بيبرس بعمارة سلسلة المنارات التي تربط أطراف الدولة بالعاصمة، وهي عبارة عن أبراج للمراقبة أقامها على طول الأطراف الصليبية والمغولية، وفيها يرابط الحراس ليلاً ونهاراً لرصد نشاط العدو في تلك المناطق[7]، فإذا كشفوا عدوّاً مقبلاً كالمغول أو الصليبيين، أشعلوا النّار على قمم هذه المنارات إذا كان الوقت ليلاً، أو أثاروا فيها الدّخان إذا كان الوقت نهاراً، ثمّ سرعان ما تنتقل هذه الإشارات النّارية أو الدّخانية من منارة إلى أخرى تحذر الجميع إلى أن تصل إلى العاصمة[8].

وبهذا ضمن السلطان بيبرس وصول الأخبار أوّلاً بأوّل، وفضلاً عن ذلك كان هذا الأخير يرسل بعضاً من رجاله الذين عُرفوا باسم الكشّافة باستمرار على خيول جيّدة التدريب لمعرفة ما يُستجد من معلومات عن حشود المغول في الحدود[9].

---

(1) أحمد عبد الكريم سليمان، المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس (648 ــ676هـ/1250ــ1277م)، ط1، دار النّهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، مصر، 1984م، ص 81.

(2) الخلع: أو الخلعة، لغة: ما يخلعه الأمير أو الملك على أحد النّاس من الثياب الفاخرة، أمّا اصطلاحا: فهي ما يمنحه الملوك لأكابر الدولة والمقربين إليهم، وإلى من أدّوا خدمات مميّزة للدولة، وهي على الأغلب لباس مؤلف من جبة مطرزة وعمامة وسيف. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 165.

(3) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 176.

(4) المروج: ومفردها المَرْج، وهي الأرض الواسعة التي فيها نبات كثير. ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، ط24، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1975، ص 754.

(5) أحمد عبد الكريم سليمان، المرجع السابق، ص 81ــ82.

(6) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 176.

(7) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 157.

(8) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 209.

(9) أحمد عبد الكريم سليمان، المرجع السابق، ص 82.

وفي سنة 662هـ/1264م أمر السلطان بيبرس بتجديد بناء القلاع على الحدود العراقية، ولا سيما قلعة البيرة التي عبّأها بكل ما يحتاج إليه أهلها في أي حصار قادم من مؤن وسلاح لمدة عشر سنين، كي تظلّ شوكة في جنب المغول[1].

أمّا في مصر فإنّ السلطان بيبرس قد أمر بردم مصبّ النيل عند جزيرة دمياط، كما رمى فيه صخوراً كبيرة، وهذا ليحول دون مرور سفن الصليبيين، إضافة إلى أنّه شيّد بُرجاً للمراقبة في بلدة رشيد[2]، وعَمّر أسوار الإسكندرية وجدّد بناء المنارات التي بها[3].

لم يكتف السلطان بيبرس بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة في تلقي الأخبار وإصدار الأوامر، ولهذا وضع للبريد نظاماً متكاملاً ربط به جميع أنحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية، وكان مركزها قلعة الجبل، ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء المملكة، وإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من ولاة الأعمال والنيابات في سرعة وانتظام[4]، حتى صار البريد يصل من دمشق إلى القاهرة ومن القاهرة إلى دمشق في ثلاثة أيّام[5].

ولم يأت ذلك إلاّ بعد أن أنفق السلطان بيبرس أموالاً ضخمة في سبيل تنظيمه، فقد زوّد مركز البريد بكلِّ ما يحتاج إليه عمّالها من زاد وعلف[6]، كما راعى فيها توفّر المياه أو وجود قرية بجوارها كي يستأنسوا بها، كما أعدّ في كل مركز منها خيولاً لا يسمح بركوبها إلاّ بمرسوم سلطاني[7].

---

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 211.

(2) رشيد: بلدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 45.

(3) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 179.

(4) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق بريدية، أحدها جنوباً إلى قوص (مدينة كبيرة في صعيد مصر، وهي شرقي النيل) بالوجه القبلي وما يلي ذلك من بلاد النّوبة، وآخر شرقاً إلى عبادان وسواكن على البحر الأحمر، وثالث غرباً إلى الإسكندرية وبرقة، ورابع شمالاً إلى غزّة حيث يتفرع البريد إلى سائر البلاد الشّامية. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 413 ، أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 179ـ180.

(5) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 212.

(6) علف: أو علوفة، وهي من العلف، وهو بالأصل ما يقدم للدّابة المستخدمة في أعمال الجر والحمل. تطور هذا المدلول ليصبح عند المماليك والعثمانيين المرتبات والمكافآت المشتملة على الطعام والشراب التي كانت تضعها الدولة لذوي الاستحقاق. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 326.

(7) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 212.

وكان يشرف على إدارة البريد صاحب الإنشاء، وقد عُهد إليه حفظ ألواح[1] البريد بالديوان، فإذا خرج بريدي إلى منطقة معيّنة أعطي لوحاً ليعلّقه بعنقه في ذهابه وإيابه[2].

ولم يقتصر الأمر على البريد البري، فهناك أيضاً ما نستطيع أن نُسمّيه بالبريد الجوّي، ونعني بذلك الحمام الزاجل الذي كان يُستخدم في الحالات المستعجلة، وقد كان لهذا الحمام أبراج خاصة بالقلاع ومراكز معينة في سائر أنحاء مصر وبلاد الشّام مثل مراكز البريد البري، لكنّها تزيد عنها في المسافة. فإذا نزل الحمام في مركز منها نقل حارس ذلك البرج الرسالة التي بجناحه إلى طائر آخر ليوصلها إلى البرج التالي وهكذا[3].

وقد كان الإيجاز من أهم مميّزات الرسائل التي ينقلها هذا الحمام، إذ يُستغنى فيها عن البسملة والألقاب الكثيرة، ويذكر فيها فقط التاريخ والساعة والمطلوب بشكل مختصر.

أمّا عن الخط المستعمل فيها فهو المعروف باسم الغبار، لأنّه دقيق وصغير يشبه ذرّات الغبار، لهذا كانت الرسالة في بعض الأحيان لا يزيد طولها عن سلامية الأصبع[4].

ومن هنا فإنّ النّظام الدقيق الذي وضعه السلطان بيبرس للبريد كان من الضروريات الحربية اللاّزمة للوقوف على كل ما يستجد في أنحاء مملكته. فقد كانت النتائج الإيجابية لهذا البريد أن توفرت للسلطان معلومات سريعة عن أحوال مملكته التي امتدت من نهر الفرات إلى بلاد النّوبة[5]، كما انعكست نتائجه في تحركاته الكثيرة والسريعة في أنحاء دولته، ولا شكّ في أنّ الأخبار العسكرية كانت أهم ما يصله عن طريق هذا البريد[6].

- **تقوية الأسطول والجيش:**

---

(1) كانت هذه الألواح من الفضة، وقد نُقش على أحد وجهي كل لوح منها عبارة: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ــ ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر: عزّ لمولانا السلطان ... سلطان الإسلام والمسلمين. ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 180.

(2) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 212.

(3) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 180.

(4) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 212.

(5) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 158.

(6) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 99.

عمل السلطان بيبرس على إنشاء قوّة بحرية يستعين بها في صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر، ويعتبر هذا السلطان هو مؤسس أسطول دولة المماليك البحرية، وهذا لاهتمامه الكبير بدور صناعة السفن في مدينة الفسطاط والإسكندرية ودمياط، لدرجة أنّه كان يشرف بنفسه على بناء الشواني[1] وتجهيزها بالآلات.

وقد حرص السلطان بيبرس على توفير الخشب الذي يصلح لبناء السفن، فمنع النّاس من شرائه واستعماله، لأنّ هذا الخشب أخذ يقلّ تدريجياً منذ أواخر العصر الأيّوبي لاستعماله من طرف العوام والخواص في السواقي وآلات المعاصر، بحيث لم ينته القرن 7هـ/13م إلاّ وأصبحت شبه معدومة خاصة في صعيد مصر، وشبه جزيرة سيناء[2].

من هنا نرى أنّ مصر حينما حكمها السلطان بيبرس لم يكن يوجد بها إلاّ بقايا مُبعثرة من الخشب، وهي في مجموعها لا تكفي حاجة الدولة، وبهذا فإنّ السلطان بيبرس قد احتكر الخشب المحلي لبناء السفن ومنع النّاس من بيعه أو شرائه كما ذكرنا[3].

كما أنّ السلطان بيبرس اضطر إلى قطع شجر الجمير بجزيرة الروضة لاستخدام خشبه في بناء أسطول جديد، وهذا رغم قلة جودته[4].

وكيفما كان الأمر فإنّ السلطان بيبرس عمل على تغطية هذا العجز باستيراد الخشب والحديد من آسيا الصغرى وإيطاليا، فتمكن بذلك من إعداد أسطول من خمسين قطعة[5].

ولم يكن اهتمام السلطان بتقوية جيشه أقل من اهتمامه بالمسائل الحربية السالفة، لذا أكثر من شراء المماليك من بني جنسه القفجاق، حتى أصبحت مصر بهم آهلة.

ثمّ إنّ حسن العلاقة بين السلطان بيبرس وبركة خان زعيم القبيلة الذهبية[1] المغولية، سهلت الحصول على أولئك المماليك، كما أنّ الهجرات المغولية إلى مصر كانت مورداً

---

[1] الشواني: جمع شيني أو شوني، وهي من أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول، وهي مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم. وكانت هذه الأبراج مكونة من عدّة طبقات، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسّهام، وفي الطبقة السفلى الملاّحون بالمجاديف، وتحتوي كذلك على مخازن الطعام، ومستودعات لخزن المياه. ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 181.

[2] أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 214.

[3] أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 182ـ183.

[4] أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 215.

[5] أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 183.

إضافياً[2]. غير أنّ الحصول على هؤلاء المماليك يتطلب الوصول إلى السواحل الشمالية للبحر الأسود، واستطاع السلطان بسفاراته أن يحصل من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوج (657ـ680هـ/1259ـ1282م)[3] على إذن لمرور سفينتين مصريتين مشحونتين بالمماليك عبر البوسفور إلى البحر الأسود ذهاباً وإياباً مرة كل سنة[4].

وقد كانت القفجاق أصلح البلاد للحصول على أعداد كثيرة من المماليك، إذ كانت شعوبها بدائية رُحّل، ويعانون ضيقاً في العيش، وكان من الطبيعي أن يبيع الأهالي أولادهم أو يستبدلونهم بالغذاء لسد جوعهم. يضاف إلى ذلك أنّهم كانوا يغيرون على جيرانهم من الشراكسة والروس، فيأسرون منهم ما استطاعوا للبيع في أسواق النخاسة[5].

ولقد وفدت من مغول القفجاق جماعات مُستأمنة إلى مصر في عهد السلطان الظاهر بيبرس وانضمت إلى جيشه، حيث رحب السلطان بهم وأكرمهم وأنزلهم في دور بُنيت خصيصاً لهم بضواحي مدينة القاهرة[6].

من هذه الأجناس التي كثر فيها عنصر القفجاق، ملأ السلطان بيبرس صفوف جيشه حتى بلغ عدده أربعين ألف فارس[7].

وقد تكون الجيش في عهد السلطان الظاهر بيبرس من:

- **المماليك السلطانية:**

وهم عبارة عن مماليك السلطان السابق، إضافة إلى مماليك السلطان الجديد الذين يجلبهم لنفسه، ولهذا عُرفوا باسم الأجلاب، ومنهم طائفة الخاصكية[1]، وتمتاز عن بقية المماليك بانضواء أفرادها وهم صغار السنّ في خدمة السلطان، فهو الذي يتولّى تربيتهم

---

(1) يقال أنّ هذه التسمية ــ القبيلة الذهبية ــ ترجع إلى لون مخيّماتهم. أنظر: أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 205.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 99.

(3) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 249.

(4) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 184.

(5) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 218.

(6) نفسه، ص 219.

(7) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 185.

وعتقهم. وقد كانوا يعسكرون بالقاهرة ويصحبون السلطان في حروبه[2]، كما كانوا أعظم الجنود شأناً وأكثرهم إلى السلطان قُرباً وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم يُعيّن الأمراء[3].

- **جند الحلقة:**

وهم من محترفي الجندية من أولاد المماليك الأحرار، إضافة إلى بعض المصريين الذين انضموا للجيش، وهم غالبية الجيش في حالة الحرب، وأصحاب حرف وصناعات في وقت السلم، ولكلٍّ أربعين منهم مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلاّ إذا خرج الجيش إلى الحرب، كما كانوا أحياناً يقومون بدور قوات الاحتياط التي يتم تجنيدها واستدعاؤها للمعارك الكبرى[4]، وبمضي الزمن صار معظم جند الحلقة من أهل مصر[5].

كذلك كان يوجد جند حلقة في الشّام، يؤخذون من أهلها ويوزّعون على نياباتها.

- **مماليك الأمراء:**

وهم يشبهون المماليك السلطانية، غير أنّهم تابعون مباشرة لأمرائهم، ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يرافقها الأمراء صحبة السلطان في حروبه[6]. وكانت عبارة عن جيوش صغيرة تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة وثمانمائة مملوك، وغالباً ما كانت تتمركز خارج القاهرة[7].

وهكذا كان تحصين السلطان الظاهر بيبرس للثغور وأطراف الدولة، وتنظيمه للجيش وفئاته، وعنايته بالأسطول والبريد، من أهم الدعائم اللاّزمة لإقامة الدولة المملوكية على أُسس ثابتة، والدليل على ذلك أنّه استطاع بفضل ذلك الجيش والأسطول والتحصينات، أن

---

(1) الخاصكية: لفظ مملوكي، وهو نوع من المماليك يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغاراً ويجعلهم في حرسه الخاص، وجُعل هذا الاسم خاصاً بهم لأنّهم يحضرون عنده في أوقات خلوته، ويتميزون عن غيرهم في الخدمة بحملهم سيوفهم ولباسهم المطرز المزركش. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 66.

(2) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 159.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 220.

(4) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 101.

(5) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 186.

(6) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 220ـ221.

(7) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 160.

يقوم بالدور الذي كان الأجدر أن يقوم به، وهو محاكاة السلطان صلاح الدين الأيّوبي في الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم في بلاد الشّام، فضلاً عن جهاده ضد المغول[1].

[1] أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 187.

❖ التحالفات الخارجية والمهادنات والهجمات العسكرية الأولى ضد الصليبيين:

▪ التحالفات الخارجية:

عندما قرّر السلطان الظاهر بيبرس أن يبدأ الجهاد ضدّ الصليبيين، اتجه منذ سنة 659هـ/1261م إلى عقد سلسلة من الأحلاف والاتفاقيات مع القوى الخارجية المعادية لكلٍّ من الصليبيين والمغول، وهذا لتأمين جانبهم ولضمان حياد هذه القوى في الصراع الوشيك ضد الصليبيين[1]، وهذا بمنعها من إرسال أو السماح بمرور أي مدد للصليبيين في بلاد الشّام، وليستعين بها لمنع حدوث أي تحالف يبن المغول والصليبيين[2]، وهذا دليل على مهارته السياسية[3].

ففي نفس السنة عقد اتفاقاً مع إمبراطور الإمبراطورية الرّومانية المقدسة[4] وصقلية ونابلي مانفرد هوهنشتاوفن ابن الإمبراطور فردريك الثاني[5]، يقضي بتعهد الأخير بعرقلة سبيل أي حملة صليبية تحاول الخروج من أوربا، وتنبيه السلطان عن أي نشاط صليبي يظهر في أوربا بقصد مساعدة الصليبيين في بلاد الشّام[6]، كما أرسل له السلطان الظاهر بيبرس هدية من جملتها بعض أسرى عين جالوت من المغول بخيولهم المغولية وعدّتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية وأحسن إلى الرسل وأكرمهم، وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموي الكبير جمال الدين بن واصل[7].

كما أنّ ملك قشتالة ألفونسو العاشر أرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس في نفس السنة هدية من الخيول العربية الأصيلة، وقد ردّ عليه السلطان بهدية مماثلة من بينها سن فيل وتمساح محنّط لا يزال إلى اليوم معلقاً في مدخل الباب الشرقي لكاتدرائية اشبيلية، وتضيف الرواية أنّ السلطان بيبرس طلب الزواج من ابنة الملك، ولكنّ طلبه لم يتحقق[8].

---

(1) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 96.

(2) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 70.

(3) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 248.

(4) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 156ـ157.

(5) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 96.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 28.

(7) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 174.

(8) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 205.

ولم تقتصر مساعي السلطان الظاهر بيبرس على ملوك أوربا فحسب، فعندما اعتنق بركة خان زعيم القبيلة الذهبية الإسلام مع قبيلته سارع بعقد حلف معه، فتبادلا الرسائل والهدايا بين سنتي 659ـ661هـ/1261ـ1263م، كما تزوج ابنته كي يزيد من روابط الصداقة والود بينه وبين الخان[1] المغولي[2]، ثمّ أمر بالدّعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكّة والمدينة[3] بعد الدعاء للسلطان الظاهر[4].

ولا شك أنّ هذا الحلف كان موجّهاً بطبيعة الحال ضد عدوّهما المشترك الممثل في مغول فارس بقيادة هولاكو وأولاده، وهذا للحيلولة دون قيام الأخير باعتداء على حدود دولته أو تقديم المساعدة للصليبيين[5]. ومن هنا فإنّه أمّن جانب المغول للتفرغ للصليبيين، خاصة بعد أن كاتب السلطان بيبرس بركة خان وحرّضه على قتال هولاكو، فاستجاب هذا الأخير لذلك وكان مُخلصاً في إسلامه، فقاتل هولاكو حتى شغله عن المسلمين وأضعفه وفرّق جنده[6].

وبهذا يكون الزعيم بركة خان قد قام بعمل جهادي كبير يُشكر عليه، حيث رفع بجهاده هذا ثقلاً كبيراً عن كاهل المسلمين، وبالخصوص دولة السلطان الظاهر بيبرس في مصر وبلاد الشّام.

كما عقد السلطان بيبرس حلفا دفاعيا مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوج (657ـ680هـ/1259ـ1282م)[7] سنة 660هـ/1262م، لعلمه أنّ الإمبراطورية كانت دائما العدو اللّدود للصليبيين في بلاد الشّام، فتبادل معه السفارات

---

(1) الخان: بلغة المغول والأتراك تعني الشيخ أو رئيس القبيلة. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 157.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 97.

(3) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 174.

(4) أحمد عبد الكريم سليمان، المرجع السابق، ص 86.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 28.

(6) عبد العزيز بن عبد الله الحميري، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (ما بعد الخلفاء الراشدين)، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، 2004م، ص 404.

(7) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 249.

والهدايا[1]، كما أرسل إليه بناءً على طلبه بطريقاً من الملكانية ليشرف على الملكانيين[2] في دولته. ولمّا وصل البطريق المذكور الرّشيد الكحّال إلى القسطنطينية، وكان بصحبته الأمير فارس الدين أقوش المسعودي وعدد من الأساقفة المسيحيين[3]، احتفى بهم الإمبراطور وأكرمهم[4].

كما أنّ هذا الأخير قد أمر بتجديد مسجد[5] في عاصمته بالقسطنطينية لكي يصلّي فيه المسلمون من التجار، وغيرهم من الوافدين على العاصمة البيزنطية، أو المقيمين هناك[6].

ولمّا علم السلطان بيبرس بما قام به الإمبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل[7] المُذهّبة والبسط الرّومية[8] والمسك والعنبر والعود وماء الورد ... الخ[9].

هذا بالإضافة إلى أنّهما عقدا معاهدة بينهما أعطت للسلطان الظاهر حرية نقل المماليك عبر الأراضي البيزنطية كما ذكرنا سابقاً.

كما أرسل الإمبراطور البيزنطي رسالة إلى السلطان جاء فيها: << متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ساعدت بكل ما تقدر عليه سلطنتي >>[10].

---

(1) أحمد عبد الكريم سليمان، المرجع السابق، ص 80.

(2) ملكانيون: جمع ملكاني، وهي كلمة سريانية تقابلها بالعربية ملكيون وملكي، وقد أطلق هذا الاسم على المسيحيين العرب الذين انضموا إلى الكنيسة البيزنطية، متّبعين مذهب الإمبراطور الرسمي. ينظر: أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 202.

(3) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 156.

(4) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 202.

(5) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك سنة 96هـ/714م في خلافة الوليد بن عبد الملك، على إثر صلح بين البيزنطيين والمسلمين ينص على بناء مسجد بالقسطنطينية، وقد هدّمه الصليبيون أثناء غاراتهم على القسطنطينية. ويقال إنّ السلطان صلاح الدين الأيّوبي حاول تجديد بنائه، غير أنّ البيزنطيين رفضوا ذلك. ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 172.

(6) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 96.

(7) القناديل: وهي المصابيح. ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص 657.

(8) تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 156.

(9) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 172.

(10) أحمد عبد الكريم سليمان، نفس المرجع، ص 80ـ81.

ولم يكتف السلطان بيبرس بذلك، بل حالف في سنة 660هـ/1262م سلطان سلاجقة الرّوم عزّ الدين كيكاوس بن كيخسرو، والذي كان على عداء مع مغول فارس ومملكة أرمينية الصغرى، فوعده بمساعدته ضدّ أخيه ركن الدين قلج أرسلان وضدّ هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى[1].

وقد أرسل السلطان بيبرس جنوده إلى دمشق وحلب استعداداً لمساعدة السلطان عزّ الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول[2].

ومن الواضح أنّ هذه المحالفات والمعاهدات التي أبرمها السلطان الظاهر بيبرس والسفارات التي بودلت بينه وبين ملوك الدول في الشرق والغرب، جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن ممّا يهدّد كيانها من ناحية المغول والصليبيين[3].

على أنّ السلطان بيبرس لم يكن لينتظر تحقيق هذه المواقف حتى يبدأ جهاده ضد الصليبيين، بل بدأ مرحلة عسكرية أولى معهم أثناء سعيه ذاك، مال فيها إلى مهادنتهم على بعض الجبهات وشن هجمات عسكرية على جبهات أخرى، وبعد أن حقق ما كان يصبو إليه بدأ مرحلته الثانية وهي مرحلة الحرب الشاملة[4].

- **المهادنات والهجمات العسكرية الأولى ضد الصليبيين:**

عندما توجه السلطان بيبرس إلى بلاد الشام سنة 659هـ/1261م نزل بمنطقة العوجاء[5] بفلسطين، فأسرع أمير يافا سيرجوان دبلين بإنفاذ رسله يسأل الأمان للحضور بين يديه، فرحب السلطان بذلك وأرسل له أتابكه كي يرافقه في حضوره، فلمّا حضر تلقّاه باحتفاء وتكريم، ثمّ كتب له منشورا[6] بالبلاد التي كان يحكمها وردّه سالماً إلى يافا[7].

---

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 206.

(2) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 175.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 206ـ207.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 28.

(5) العوجاء: نهر بين أرسوف والرّملة على ساحل فلسطين. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 167.

(6) المنشور: عند الأيوبيين والمماليك في مصر، أمر سلطاني مكتوب بإقطاع من أرض أو مال أو بيان حكم في قطعة معينة في الورق تختلف باختلاف طرائف رجال الدولة. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 146.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 29.

شجع هذا الموقف بقية الحكام الصليبيين، ففي نفس السنة حضر إليه عندما وصل إلى دمشق رسول من عكا يسأله الأمان للرسل المتوجهين إليه من بعض المعاقل الصليبية، ومن أهمّهم حاكم بيروت يوحنا الثاني أبلين، فاستجاب السلطان بيبرس لذلك وكتب إلى واليه على غزّة يأمره بتمكينهم من الحضور إليه، وعندما حضروا التمسوا الصلح وسألوه إعادة الجيش الذي أرسله للإغارة على مناطق نفوذهم ببعلبك[1]، ولمّا كان السلطان قد اتخذ سياسة المهادنة معهم في هذه المرحلة، فضلاً عن غلاء الأسعار في بلاد الشّام في تلك السنة، في الوقت الذي كانت فيه معاقلهم مصدراً لجلب كثير من السلع، فقد استجاب لطلبهم ووافق على الصلح وعقد مهادنات مع أمرائهم في عكا وبيروت بشرط تبادل الأسرى فقط[2].

فتقرر الصلح وإطلاق الأسرى من آخر الأيّام النّاصرية (النّاصر صلاح الدين) إلى وقت الهدنة (أي من سنة 589هـ/1193م إلى سنة 659هـ/1261م).

ولكي يضع السلطان الظاهر بيبرس هذه الهدنة موضع التنفيذ، شرع في جمع أسرى الصليبيين، ثمّ أنفذهم إلى مدينة نابلس[3] تمهيداً لمبادلتهم بالأسرى المسلمين. إلاّ أنّ الصليبيين أخذوا يماطلون في تسليم الأسرى المسلمين، مطالبين بتعويضهم عن منطقة زرعين في شمال فلسطين، فأجابهم السلطان رافضاً مطالبهم قائلاً: << إنّكم أخذتم العوض عنها في الأيّام النّاصرية (عشر ضياع) ...، وقايضتم صاحب تِبنين بمواضع والمقايضة في أيديكم فكيف تطلبون العوض مرتين؟ ... >>. ولمّا طال الأمر معهم دون نتيجة، أمر السلطان بيبرس بإعادة الأسرى من نابلس إلى دمشق لاستخدامهم في معسكرات العمل الخاصة بتشييد العمائر[4].

لقد جاء هذا الموقف السلبي من جانب الصليبيين لاعتمادهم الكبير على الأسرى المسلمين نظراً لأنّهم كانوا صُنّاعاً مهرة، وكان السلطان مدركاً لموقفهم ذاك، وقد واجههم بحقيقتهم وعنّفهم لعدم تمكين أسراهم من العودة إليهم قائلاً لهم: << ولم ترحموا أهل مِلّتكم

---

[1] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 91.

[2] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 29.

[3] نابلس: مدينة مشهورة بين جبلين بفلسطين. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 248.

[4] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 121.

من الأسرى وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم، كُلُّ ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم >>[1].

وبفشل المفاوضات معهم أنفذ السلطان بيبرس الأمير جمال الدين المحمّدي على رأس قوة عسكرية للإغارة على بعض معاقلهم، فغزا وعاد غانماً[2].

ثمّ تطلع السلطان الظاهر بيبرس للانتقام من بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس بسبب تحالفه مع المغول ضد المسلمين، ولما ارتكبه من أعمال عدوانية في شمال بلاد الشّام، فأرسل إلى الأميرين شمس الدين سنقر الرّومي وسيف الدين الرّشيدي، واللذين كانا قد أنفذهما على رأس قوة عسكرية إلى حلب لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها هناك بعد الاضطرابات التي أصابتها، يأمرهما بالتوجه إلى أنطاكية ومهاجمتها، وكان ذلك في ذي الحجة سنة 659هـ/نوفمبر 1261م، وقد انضم إليهما لتنفيذ هذه المهمة ملك حمص الأشرف موسى وملك حماه المنصور[3]، فنازلها شمس الدين وسيطر على مينائها وأحرق المراكب الرّاسية فيه، وهذا بعد أن استولى على ما بها من غنائم[4].

وكادت المدينة تقع في يد هذا الأخير لولا النّجدة المغولية الأرمينية المشتركة التي قدمت إليها بقيادة هيثوم ملك أرمينية الصغرى، ممّا جعله ينسحب عنها ويتوجه إلى مدينة السُّويداء[5] التابعة لها، فحاصرها ثمّ دخلها وقتل عدداً من الصليبيين فيها، ثمّ عاد إلى القاهرة بعد عودة السلطان إليها، ومعه أكثر من ثلاثمائة أسير[6]، فقابله السلطان بيبرس بحفاوة وإحسان[7].

عاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشه إلى بلاد الشّام مرة أخرى في 17 ربيع الآخر سنة 661هـ/28 فيفري 1263م[8]، وقد استمر في اتّباع سياسة المناورة مع

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 30.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 91.

(3) تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 156.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 30.

(5) السُّويداء: قرية بحوران من نواحي دمشق. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 286.

(6) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 70.

(7) أبو الفداء، ف6، المصدر السابق، ص 459.

(8) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 292.

الصليبيين، إذ لم يكن قد انتهى بعد من أمر ملك الكرك المغيث عمر[1] الذي كاتب هولاكو وحثّه على القدوم إلى الشّام مرة أخرى، حيث وقعت في يد السلطان بيبرس رسائل الملك المغيث إلى المغول، ورسائل المغول إليه، وهو ما دفعه إلى السعي للقضاء عليه[2].

وكانت كتب الصليبيين خاصة من يافا وبيروت ترد على السلطان بيبرس قبل قدومه مضمونها فسخ الهدنة، وعندما قدم إلى مناطقهم صارت ترد كتبهم بأنّهم يتمسكون بالمواثيق والعهود[3].

وتطبيقاً لسياسته استقبل السلطان بيبرس وفداً منهم جاء لتهنئته بقدومه، فردّ عليهم رداً أشعرهم فيه بقوة جيشه ليزدادوا هلعاً ورُعباً، قائلاً لهم: << إنّ من يريد أن يتولّى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة، والحيتان في المياه، من كثرة هذه العساكر التي لعلّ بيوتكم ما فيها موضع إلاّ ويُكنس منه التراب الذي أثارته حوافر خيل هذه العساكر، ولعلّ وقع سنابكها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج، ومن في موقان[4] من التتار، فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأيّ شيء تعلمون؟[5] ... ولِمَ لا أعطيتم لوالي غزّة الكتاب الذي كنّا سيّرناه لكم بتمكين رُسلكم إذا حضروا[6]. فقال الرسل: نسينا وما علمنا كيف عدم. فكان جواب السلطان: إذا نسيتم هذا فأي شيء تذكرون؟ وإذا ضيعتموه فأي شيء تحفظون؟ >>[7].

---

[1] هو الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل سيف الدين أبو بكر بن الكامل بن العادل بن أيّوب، كان نائب السلطان الصالح أيّوب بالكرك والشوبك، واستمر على ذلك إلى أن قبض عليه السلطان الظاهر بيبرس، وأعدمه في سنة 671هـ/1272م، وهو آخر من ملك الكرك من بني أيّوب. ينظر: نسيم يوسف جوزيف، المرجع السابق، ص 273.

[2] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 138.

[3] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 92.

[4] موقان: وهي إحدى مدن أذربيجان، ويطلق عليها أهلها اسم موغان أيضاً. بها مروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي. ينظر: فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 139.

[5] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 31.

[6] تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 160.

[7] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 139.

كما استقبل السلطان بيبرس نواباً من يافا وأرسوف محملين بالهدايا، فتقبّلها منهم[1] وأصدر أوامره إلى قوّاته العسكرية بعدم النزول في مزارعهم أو التعرض لها، أو رعي خيولهم بها، أو التعرض لمواشيهم، كما أمرهم الرفق بفلاّحيهم[2].

وعندما تمكن السلطان الظاهر بيبرس من القبض على الملك المغيث عمر صاحب الكرك[3] اتخذ منهم موقفاً صارماً، فقد أحضر رُسلهم وقال لهم: << ما تقولون؟ قالوا: نتمسك بالهدنة التي بيننا، فقال السلطان: لِمَ لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان! وإنفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحاراً؟، ونحن لمّا حضرنا إلى هاهنا ما آذينا لكم زرعاً ولا غيره، ولا نُهب لكم مال ولا ماشية، ولا أُسر لكم أسير، وأنتم منعتم الجلب[4] والميرة على العسكر، وحرمتم خروج شيء من الغلاّت والأغنام وغير ذلك[5]، ومن انفرد من غلمان العسكر أسرتموه، ... وسيّرنا الأسرى إلى نابلس ومنها إلى دمشق، وما سيرتم أنتم أحد، ... وسيّرنا كمال الدين بن شيث رسولاً يعلمكم بوصول الأسرى، فلم تبعثوا أحداً، ... والوفاء أحد أركان الملك، ... فأيّ حرمة تبقى لكم، وأيّ ذمام يوثق به منكم ... وأنتم في أيّام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنّكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين أيّوب[6]، ... وقد انتقضت تلك الدولة ... وقد صارت بحمد الله مملكة الشّام وغيرها لي، وما أنا محتاج لنصرتكم ولا إلى نجدتكم، ولمْ يبق لي عدوّ أخافه[7]، فردّوا ما أخذتموه من البلاد، وفُكّوا أسرى المسلمين جميعهم، فإنّي لا أقبل غير ذلك >>[8].

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 92.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 31.

(3) لمّا قبض السلطان الظاهر بيبرس على الملك المغيث عمر صاحب الكرك بعث به إلى قلعة الجبل، وأعدمه فيها يوم 15 جمادى الآخرة/26 أفريل من نفس السنة. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 108.

(4) الجلب: ما تجلبه البلاد من الأطعمة للجيوش النّازلة بقربها. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 53.

(5) تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 161.

(6) كان ذلك سنة 638هـ/1240م. ينظر: عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 31.

(7) تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 161.

(8) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 141.

فلمّا سمع رسل الصليبيين قوله هذا بُهتوا، إذ كانوا يسعون من خلال عقد هذه المهادنات إلى ترسيخ أقدامهم في بلاد الشّام والحصول على مكتسبات جديدة، ظنّاً منهم أنّ السلطان بيبرس يُهادنهم لضعف فيه، ففوجئوا بأنّه يسعى إلى سحب البساط من تحت أقدامهم، فقالوا: << نحن لا ننقض الهدنة، وإنّما نطلب مراحم السلطان في استدامتها، ... ونفك الأسرى، ونستأنف الخدمة. فقال السلطان: كان هذا قبل خروجي من مصر، في هذا الشتاء وهذه الأمطار، ووصول العسكر إلى هنا ... >>[1].

رفض السلطان بيبرس طلبهم وأمر بإخراجهم من مجلسه، وألاّ يبيتوا في الوطاق[2]. ثمّ أرسل عسكراً هدّموا كنيسة النّاصرة[3] بقيادة الأمير علاء الدين بيطرس[4] الذي لم يلق من الصليبيين أي مقاومة، وكان ذلك في جمادى الأولى/مارس من نفس السنة[5].

وقد كان هدف السلطان بيبرس من الحوار الذي أجراه مع رسل الصليبيين، إظهار القوّة وإدخال الرعب في قلوبهم، وتأديب هؤلاء الصليبيين على عدوانهم على المسلمين، وأكدّ القول بالفعل، فأغارت قوّاته على كنيسة النّاصر كما ذكرنا[6]، ثمّ أنفذ الأمير بدر الدين الأيدمري في قوّة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها، فنازلها في 3 جمادى الآخرة/14 أفريل من نفس السنة[7]، واستغرق هذا الهجوم يومين كاملين[8]، فهاجم أبوابها وساق الكثير من مواشيها، ثمّ عاد إلى مخيّم السلطان بيبرس قرب جبل الطور[9] مُحمّلاً بالغنائم[10].

---

(1) تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 162.

(2) الوطاق: لفظ تركي بمعنى الخيمة الكبيرة أو الغرفة. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 155.

(3) أبو الفداء، ف6، المصدر السابق، ص 461.

(4) حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 175.

(5) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 249.

(6) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 142.

(7) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 249.

(8) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 292.

(9) جبل الطور: بلدة في سيناء على خليج السويس. ينظر: أبو الفداء، التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1995م، ص 81.

(10) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 93.

وعلم السلطان بيبرس من قادته بأنّ بعض سكان ساحل الشام من الفلاّحين يعيثـون فساداً ويتجسّسون للصليبيين، ففرض عليهم غرامات جباها منهم، وكانت مبـالغ كبيـرة حملت إلى بيت مال المسلمين، ورأى أنّ ذلك أفضل من قتلهم لأنّهـم يملكـون أراضـي ومواشي تستفيد منها الدولة كثيراً[1].

ولم يكتف السلطان الظاهر بيبرس بهذه الغارة، بل خرج بنفسه[2] من جبل الطـور على رأس فريق من جيشه ليلـة الرابع من جمادى الآخرة/15 أفريـل قاصـداً عكـا، فحاصرها من جهة البرّ إلى وقت المغرب ثمّ عاد إلى معسكره، وكان يهدف مـن هـذه العملية استكشاف قوّة الصليبيين في عكا، لكونها حصينة ولا يجرؤ أحد علـى اقتحامهـا، خاصة وأنّها أضحت عاصمتهم بعد طردهم من القدس. هذا مع الإشارة إلى أنّـه كانـت تساند حاميتها قوة فرنسية ينفق عليها الملك لويس التاسع، كما كان سكان عكـا يراقبـون الوضع من أبوابها ولا يجرؤون على الخروج للتّصدي للمسلمين[3].

عاد السلطان بيبرس وحاصر المدينة في اليوم التالي[4]، وكان الصليبيون قد حفـروا خنادق حول تل الفضول بالقرب من المدينة، ثمّ انتظموا صفوفاً فوق التل، فلمّـا أشـرف السلطان بيبرس عليهم رتّب الجند استعداداً للقتال، ثمّ رُدّمت الخنادق بأيدي الجند وصـعد المسلمون فوق تل الفضول وقد انهزم الصليبيون وتراجعوا إلى المدينة[5].

امتدت أيدي المسلمين إلى ما حول عكا من الأبراج الـصليبية فهُـدّمت، وأُحرقـت الأشجار وزروعها حتى أصبح دخانها كالغيوم، كما خُرِّبت الحقول[6]، والسلطان في هـذه الأثناء يراقب الوضع من قمة التل[7].

سيّر السلطان الظاهر بيبرس بعد ذلك فريقاً من فرسانه إلى أبواب المدينـة، فأسـر وقتل الكثير من الصليبيين، وكان أمراء الجيش يهاجمون أبواب المدينة واحداً بعد واحـد،

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 93ـ94.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 32.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 94.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 32.

(5) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 142.

(6) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 292.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 94.

ثمّ حملوا حملة واحدة حتى هلك عددٌ من الصليبيين المكلّفين بحراستها بعد أن ألقوا في الخنادق[1]، وفي آخر النّهار وصل السلطان بيبرس إلى البرج الذي كان المسلمون قد هدّموا جانباً منه، فأسر فيه أربع فرسان وأكثر من ثلاثين من سكان المدينة. وفي اليوم التالي طاف السلطان بيبرس في مناطق الصليبيين، ومرّ على النّاصرة فشاهد كنيستها المدمّرة وقد سُوّيت بالأرض[2].

وفي نهار يوم الاثنين 13 جمادى الآخرة/24 أفريل من نفس السنة، رحل السلطان بيبرس من جبل الطور متجهاً إلى مدينة القدس، بعد أن عيّن الأمير ناصر الدين القيمري نائباً عنه بالساحل الشّامي، فنظّم أمور المدينة واهتم بالمسجد الأقصى وما يحتاج إليه من العمارة، كما أمر بمنحه في كل سنة خمسة آلاف درهم، إضافة إلى أنّه نظّم الأوقاف وأمر بحمايتها، وكذا أمر ببناء خان خارج البلد[3].

ثمّ توجّه إلى الكرك يوم الخميس 23 جمادى الآخرة/4 ماي بعد أن استلمها من أولاد الملك المغيث بالسّلم، فرتّب أمورها وأحسن إلى أولاد المغيث.

وفي الأخير عاد السلطان بيبرس أدراجه إلى القاهرة مُكتفياً بما حققه[4]، فدخلها يوم السبت 17 رجب سنة 661هـ/27 ماي 1263م، وكانت قد زُيّنت لاستقباله[5].

كما أمر السلطان بيبرس في نفس السنة ببناء برج في قارة ــ بين دمشق وحمص ــ لحفظ الطرق من تسلّل الفرنج[6].

وفي السنة ذاتها أغارت قوة عسكرية بقيادة الأمير ناصر الدين القيمري على عكا، وأغارت أخرى بقيادة الأمير عزّ الدين الشّجاعي على منطقة الخيط[7].

ولم تتغير العلاقات مع الصليبيين بعد عودة السلطان الظاهر بيبرس إلى القاهرة، بل استمرت على الأسلوب ذاته، ففي نفس السنة سأل الصليبيون في المنطقة السّاحلية من

---

(1) تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 163.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 95.

(3) تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 164.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 32.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 95.

(6) أحمد عبد الكريم سليمان، المرجع السابق، ص 79.

(7) الخيط: تقع في الشمال الشرقي من فلسطين. ينظر: عزمي أبو عليان، المرجع السابق، ص 32.

فلسطين ومنها قيسارية، نوّاب السلطان الإذن لهم بزراعة البلاد من أموالهم، فتقرّرت الهدنة بينهم إلى أيّام الحصاد، وكان ذلك في صفر سنة 662هـ/ديسمبر 1263م[1].

وفي محاولة للحدِّ من الهجمات الإسلامية أخذ الصليبيون يشنّون الهجمات المعاكسة على المعاقل الإسلامية، فقد أغارت في أوائل سنة 662هـ/1264م قوّة مشتركة من هيئتي فرسان الداوية[2] والإسبتارية في عكا على حصن ليزون الصغير المعروف قديماً باسم مجدو، والذي كان تحت سيطرة المسلمين، ثمّ شنّتا غارة أخرى على عسقلان[3].

فردّ المسلمون بقيادة الأمير ناصر الدين القيمري بنهب القرى الصليبية الواقعة إلى الجنوب من جبل الكرمل، ومن ثمّ أغاروا على عثليث[4] وقيسارية[5].

في المقابل واصل الصليبيون هجوماتهم، حيث هاجموا منطقة بيْسان[6] ونهبوها، ثمّ عادوا إلى عكا مُحمّلين بالغنائم.

كما اعتدى الصليبيون الذين هادنوا الأمير ناصر الدين القيمري على جماعة من المسلمين، وأسروا عدداً منهم واستولوا على أموالهم ومواشيهم، فسيّر إليهم الأمير ناصر الدين يتهدّدهم بقوله لهم: << نحن هادنّاكم كما سألتم المدّة التي طلبتموها، وهذه الأخيذة كانت في مُدّة الهدنة، فأرسلوا وزير قيسارية لنتحدث في الأمر >>، وعندما قدم وزير قيسارية ما كان من الأمير ناصر الدين إلاّ أن أمسكه عنده، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد أن ردّ الصليبيون جميع ما أخذوه[7].

---

(1) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 294.

(2) الداوية: فرقة في أول الجيش وهي الفدائية، والداوية يُطلقها الفرنجة على الطائفة الدموية التي لا يشاركهم فيها أحد، وهم جمعية فرسان المعبد، وكذا هي جمعية دينية أنشئت أول الأمر لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس، ثمّ تحولت إلى هيئة حربية. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 73.

(3) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 121.

(4) عثليث: حصن بسواحل الشّام، ويعرف بالحصن الأحمر. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 85.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 33.

(6) بيْسان: مدينة بالأردن، توصف بكثرة نخلها. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 527.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 33.

ومن هنا أدرك السلطان الظاهر بيبرس بعد هذه المرحلة الأولى من المهادنات والفتوحات الأولى، أنّ الهجمات المحدودة لم تعد كافية لردع الصليبيين، وأنّه لا بدّ من القيام بحرب شاملة ضدّهم[1].

[1] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 121.

2) مرحلة الحرب الشاملة (663ـ665هـ/1265ـ1266م):

حقق السلطان الظاهر بيبرس مقصده من المرحلة الأولى بنجاح كبير، فقد تمكن من تأمين وتقوية الجبهة الداخلية، كما أمّن موقفاً خارجياً مؤيداً له ضدّ الصليبيين، لذلك قرّر الانتقال إلى مرحلة الحرب الشاملة.

❖ فتح قيسارية[1]:

بينما كان السلطان الظاهر بيبرس يصطاد في بلدة العبّاسة[2] سنة 663هـ/1265م وصلته الأخبار بهجوم المغول على بلاد الشّام عبر حدودها الشمالية في منطقة البيرة، وأنّهم نصبوا عليها سبعة عشر منجنيقاً[3][4]، فأسرع بالعودة إلى القاهرة لجمع قوّاته وإعدادها تمهيداً للخروج على رأسها لصدّهم[5].

كما أنّه أمر الأمير بدر الدين الخازندار بأن يرسل على البريد أوامره ليخرج أربعة آلاف فارس من بلاد الشّام إلى البيرة لصدّ زحف المغول[6].

والواقع أنّ الصليبيين كان لهم دور كبير في حث المغول على القيام بهذا الاعتداء، غير أنّ السلطان بيبرس بفضل تنظيمه للبريد قد نجح في جمع قوّاته في وقت قياسي[7].

وبتكامل أعداد قوّاته خرج السلطان بيبرس يوم السبت 4 ربيع الآخر سنة 663هـ/ 24 جانفي 1265م، وعندما نزل غزّة في 20 ربيع الآخر/9 فيفري[8] ورد إليه كتاب من

---

(1) قيسارية: بلدة على ساحل بحر الشّام تُعدّ من أعمال فلسطين. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 421.

(2) العبّاسة: بلدة على حدود مصر وبلاد الشّام، تتميّز بطول نخلها. ينظر: نفسه، مج4، ص 85.

(3) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 29.

(4) المنجنيق: آلة حربية تستعمل لرمي الحجارة، وهي من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تُجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الحجر، ثمّ يجذب حتى ترفع أسفله على أعاليه، ثمّ يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه إلى الاتجاه المعين. ينظر: نسيم يوسف جوزيف، المرجع السابق، ص 151.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 33ـ34.

(6) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 143.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 34.

(8) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 143.

الأمير جمال الدين أقوش النّجيبي نائب السلطنة بالشّام[1]، مضمونه أنّ الملك المنصور صاحب حماه وصل إلى البيرة صحبة الأمير عزّ الدين ايغان، وتمكن من صدّ المغول[2]، عندئذ قرّر مهاجمة الصليبيين في المنطقة السّاحلية، فحطّ رحاله قريباً من غابة أرسوف مظهراً التلهي بالصيد في التلال الواقعة وراءها[3]، وبسرية تامة ذهب في قوّة عسكرية إلى أرسوف ثمّ قيسارية فكشف منطقتها تمهيداً لمهاجمتها، ثمّ عاد مسرعاً إلى معسكره وكتب من فوره إلى القلاع الإسلامية القريبة يطلب المجانيق والصنّاع والحجّارين، كما أمر الصنّاع في معسكره بصناعة المجانيق والسلالم[4].

وباكتمال تجهيزاته تحرك السلطان بيبرس بالجيش إلى أن وصل قيسارية، فوافاها على حين غفلة من أهلها بكرة يوم الخميس 9 جمادى الأولى/28 فيفري من نفس السنة[5]، وبعد أن ضرب حصاره حولها من جهاتها البرية ونصب عليها المجانيق التي أشرف بنفسه على تثبيتها[6] شرع في مهاجمتها[7].

وفي أثناء ذلك قام السلطان بيبرس بإنفاذ الأمير شهاب الدين القيمري على رأس قوّة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها ومشاغلة الصليبيين فيها، لمنعهم من تقديم أيّة مساعدة لمدينة قيسارية.

وقد تمكن المسلمون من تجاوز خنادق المدينة واعتلاء أسوارها وتنصيب السناجق[8][9]، ومن ثمّ قاموا بإحراق أبوابها ودخولها في نفس اليوم[10].

---

(1) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 192.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 29.

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية مج 3، ق 2، ص 546.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 34.

(5) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 145.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 96.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 34.

(8) إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000م، ص 40.

(9) السناجق: ومفردها سنجق، وهي لفظ تركي بمعنى العلم أو الرّاية أو اللّواء، وهنا تعني الأعلام السلطانية. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 93.

(10) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص34.

ما كان من الصليبيين إلاّ أن هربوا إلى قلعتها الحصينة المعروفة بالخضراء[1]، والواقعة على حافة البحر، وكان الصليبيون قد حصّنوها جيّداً حتى تصمد في وجه المسلمين إذا هاجموها، ولكن ذلك التحصين لم يجد نفعاً أمام عزيمة السلطان الظاهر بيبرس الذي زحف بقوّاته فحاصرها ونصب عليها المجانيق، كما قامت وحدة من رماة النّشاب من الترصد للصليبيين فوق كنيسة قبالة القلعة لمنعهم من اعتلائها[2].

وأثناء ذلك غزت فرقة من بدو التركمان أرسلها الأمير شهاب الدين القيمري مدينة عكا، فعادت بعد أن أسرت جماعة من الصليبيين هناك[3].

وتحت وطأة الحصار الشديد اضطر الصليبيون إلى الهروب من القلعة باتجاه عكا بحراً، فدخلتها القوّات الإسلامية يوم الخميس 15 جمادى الأولى/4 مارس من السنة ذاتها بعد محاصرتها ستة أيّام[4]، وهذا بعد أن سمح السلطان بيبرس لحاميتها بالخروج سالمة ومغادرة المدينة، فدخلها المسلمون وأُذّن بالصبح عليها، ثمّ طلع السلطان بيبرس ومعه الأمراء إليها، فقسّم غنائم المدينة على الأمراء والمقاتلين ثمّ شرع في هدمها[5].

وبعد هذا الفتح سيّر السلطان بيبرس الأميرين سنقر الألفي وسيف الدين المستعربي في جماعة من العسكر إلى الملّوحة[6] لهدم قلعة للصليبيين هناك، لأنّها كانت تشكل خطراً على المسلمين، وكانت قلعة عاتية، فهُدّمت ودكّت إلى الأرض[7].

كما سيّر السلطان بيبرس قوّة أخرى بقيادة عدد من الأمراء وهم: سنقر الألفي، وسنقر السلاح، وعزّ الدين الحموي إلى حيفا[8]، فهاجمتها ودخلت قلعتها، فلمّا شاهدهم

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 96.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 35.

(3) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 145.

(4) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 336.

(5) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 146.

(6) الملّوحة: قرية كبيرة تقع في الجنوب الشرقي لحلب، على بعد مسافة ثمانية عشر ميلاً تقريباً. ينظر: نفسه، ص 146.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 35.

(8) حيفا: حصن على ساحل بحر الشّام قرب يافا. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 332.

الفرنج هربوا عبر المراكب وتركوا القلعة[1] بعدما قُتل وأُسر الكثير منهم، ثمّ تمّ تدمير المدينة والقلعة عن آخرهما[2].

وفي 26 جمادى الأولى/16 مارس انطلق السلطان بيبرس بنفسه على رأس قوّة عسكرية إلى عثليث التي كانت تابعة لفرسان الدّاوية[3]، فأغار عليها وقطّع أشجارها، وعندما صمدت هذه القلعة في وجه المسلمين، أمر السلطان بيبرس بإحراق القرية الواقعة خارج الأسوار[4] وتخريب أبنيتها، وهو ما تم، حتى أنّه لم يعد لها أثر[5]، ثمّ عاد إلى قيسارية في أوّل جمادى الآخرة/26 مارس لاستكمال هدم قلعتها[6].

❖ فتح أرسوف[7]:

ما إن انتهى السلطان الظاهر بيبرس من تدمير قيسارية حتى اتجه بسرية تامة صوب أرسوف جنوباً، وكان ذلك في 9 جمادى الآخرة/29 مارس من نفس السنة، فنازلها وضرب عليها الحصار من جهاتها البرية ونصب عليها المجانيق. وقد كان فرسان الإسبتارية قد شحنوها قبل ذلك بالمؤن والجند[8].

اتبع السلطان بيبرس خطة عسكرية محكمة لاقتحامها، فحفر سربين من خندق المدينة إلى خندق القلعة، ثمّ غطّاهما بالأخشاب من كل جانب ليجعل منها ستائر، وسلّمهما لعدد من الأمراء أهمّهم:

- السرب الأول: سنقر الرّومي، وبدر الدين بَيْسري، وبدر الدين الخازندار.
- السرب الثاني: سيف الدين قلاوون، وعلم الدين الحلبي الكبير، وسيف الدين كرمون[9].

---

(1) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 146.

(2) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 546.

(3) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 122.

(4) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 97.

(5) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 249.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 36.

(7) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشّام بين قيسارية ويافا. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 151.

(8) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 97.

(9) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 147.

استمر المسلمون يحاصرون المدينة وكان السلطان بيبرس من بينهم، حتى أنّه رمى أكثر من ثلاثمائة سهم في يوم واحد، وكان يساعده بعض الأمراء من بينهم بَيْسرى، وبدر الدين الخازندار، وسنقر الرّومي[1]، وقد حاول الصليبيون اختطافه إلاّ أنّه استطاع قتل اثنين منهم، هذا بالإضافة إلى مشاركة النّساء في حصار أرسوف، وهذا بقيامهم بسقي المسلمين أثناء القتال، كما كانوا يجرون المجانيق[2]، واستمر هذا الحال حتى سقطت المدينة يوم الخميس 8 رجب/26 أفريل من نفس السنة، بعد مقاومة شديدة أبدتها حاميتها من الإسبتارية[3]، وحصار دام أربعين يوماً[4].

واصل الصليبيون القتال، ممّا جعل السلطان بيبرس يدفع بالأمير سنقر الرّومي ومعه السنجق وأمره أن يُؤمّنهم، فلمّا رآه الصليبيون أوقفوا القتال، فدخل هذا الأخير المدينة وجمع سيوفهم ثمّ ساقهم وعددهم حوالي الألف إلى السلطان الذي أرسلهم إلى الكرك، بينما نُقل المصابون منهم إلى يافا[5].

ومن ثمّ عاد السلطان بيبرس إلى القاهرة التي زُيّنت له[6] فوصلها في رجب/ماي[7]، وهذا بعد أن أباح القلعة للمسلمين الذين أخذوا ما بها من غلال وذخائر ومواش، وحُرّر من كان بها من الأسرى المسلمين، ثمّ هُدّمت المدينة وقلعتها، وقد أمر السلطان بأن يتولّى الأسرى الصليبيون هدم الأسوار بأيديهم، ثمّ أرسل هذا الأخير الكتب إلى المناطق في أنحاء دولته تحمل بشائر النّصر[8].

---

(1) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 147.

(2) محمد فريد عبد القادر، المرجع السابق، ص 263.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 60.

(4) Histoire des Croisades: Par M. Michaud Ducollet, Lisleraire - Editeur, Paris, 1838, p 22.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 37.

(6) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 17.

(7) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 249.

(8) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 97.

كما حرص السلطان بيبرس على إبلاغ حلفائه نبأ انتصاراته هذه، كملك صقلية، وإمبراطور الدولة البيزنطية، وبركة خان زعيم المغول القفجاق، وجمهورية جنوا، والذين ربطتهم به رابطة العداء والكراهية للصليبيين[1].

ولدى عودته إلى القاهرة، أخذ السلطان بيبرس الأسرى الذين وقعوا في قبضته غنائم حرب ليزيّن بهم موكبه أثناء دخوله القاهرة[2].

وقد قال الشّاعر محيي الدين بن عبد الظاهر أبياتاً يصف فيها فتوح قيسارية وأرسوف منها:

لا يحسبنّ النّاس قيسارية ضعفت ... وأسلمت نفسها من خبقة رهبا

لكنّها بذُيول النّصر قد علِقت ... وقد أتته لعكا تطلب الحَسَبا

كذاك أرسوف لما حاز غايتها ... ما جاء مختطباً بل جاء مُختطِبا

لئن غدا آخذ الدنيا ومُعطيها ... فإنّه أحسن التعميم مُحْتسِبا[3]

❖ فتح قلاع حلبا وعرقا[4] والقليعات[5]:

قضى السلطان الظاهر بيبرس فترة قصيرة في مدينة القاهرة، ثمّ عاد إلى بلاد الشّام في منتصف سنة 664هـ/1266م لمواصلة جهاده ضد الصليبيين وفتح المزيد من معاقلهم، وكان الأمير بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس قد تحرك في أوائل السنة ذاتها للإغارة على حمص بمساعدة فرسان الدّاوية والإسبتارية، غير أنّه ارتدّ عنها مهزوماً بعد أن تصدّى له نائبها الأمير علم الدين الباشقردي[6].

وإزاء هذا الاعتداء جرّد السلطان بيبرس عندما وصل إلى غزّة قوّة عسكرية على رأسها الأميرين جمال الدين أيدغدي العزيزيّ[7]، وسيف الدين قلاوون إلى حمص أولاً لردّ أي اعتداء قد يشنّه عليها الأمير بوهمند من جديد، وكان ذلك في شعبان/ماي من نفس

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 37.

(2) نفسه، ص 37ـ38.

(3) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 194.

(4) عرقا: أو عرقه، بلدة في شرقي مدينة طرابلس. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 109.

(5) القليعات: حصن قرب طرابلس الشّام. ينظر: بدر الدين العيني، المصدر السابق، ص 60.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 38.

(7) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 23.

السنة[1]، ثمّ أمرهما بالتوجه للإغارة على طرابلس، فتحركا من فورهما إلى أن وصلا قريباً من حمص، غير أنّهما ارتدّا عنها إلى جهة حصن الأكراد، وهناك أغاروا على قلعة حلبا (أو حلباء) بعد أن فرّ أهلها، ولمّا شاهد أهل قلعة عرقا ما جرى فرّوا أيضاً، فخرّب المسلمون القلعتين المذكورتين، ثمّ نزلوا على حصن القليعات وتسلّموه في 4 رمضان/20 جوان بالأمان، فأسر من فيه وهم ما يزيد عن الألف[2]، ثمّ أرسلوا إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي أمر بنقلهم إلى جسر يعقوب قرب صفد[3].

وفي أثناء عودة هذه العساكر اختفى الأمير سيف الدين قلاوون بالقرب من حصن القليعات، وسيّر كشّافة لمراقبة تحركات الصليبيين، فوجد أنّ خمسين منهم قد توجهوا إلى حصن الأكراد لنجدته، فقتلهم جميعاً وأحضر رؤوسهم إلى السلطان بيبرس عند عودته، كما أفشل غارة قام بها فرسان الدّاوية على بعض أفراد قوّاته، فقتل منهم عدداً وأسر عدداً آخر[4].

وكان قد انضم إلى العساكر الإسلامية في هذه الإغارة ألفا فارس من الأعراب على رأسهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وقد أصيب هذا الأخير بجروح فيها.

وبالسيطرة على هذه القلاع الثلاث التي كانت تؤلّف خط دفاع محكم يحمي مدينة طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي لإشرافه على المنفذ الذي يوصل بين طرابلس وحمص، أصبح الطريق مفتوحاً للقوّات الإسلامية كي تضيق الخناق على مدينة طرابلس ذاتها تمهيداً لفتحها[5].

وقد شجعت هذه الانتصارات السلطان الظاهر بيبرس على إرسال عدد من الأمراء على رأس قوّات عسكرية للإغارة على العديد من معاقل الصليبيين على طول السّاحل الشّامي، وكانت على نحو ما يلي:

---

(1) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 218.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 30.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 98.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 38.

(5) نفسه، ص 39.

- الأميرين علاء الدين البندقداري، وعزّ الدين أوغان الركني[1] إلى صور[2].
- الأمير سيف الدين أتامش (أو إيتامش)[3] إلى صيدا[4].
- الأمير بدر الدين بَيْسرى إلى جهة حصن القرين.
- الأمير ناصر الدين القيمري إلى عثليث[5].

بينما اتّجه السلطان بيبرس على رأس بقية جيشه إلى عكا، والتي حضر إليها من قبرص هيو الثالث الوصي على عرش قبرص وعكا على رأس أسطول قوي[6]، فحال دون سقوطها، ممّا اضطر السلطان بيبرس للتوجه إلى قلعة القرين، ولمّا وجدها محصنة أقلع باتجاه صفد، فكشف منطقتها ثمّ عاد إلى معسكره[7].

وإنّ هذه الهجمات الإسلامية التي كانت خلال شهر رمضان/جوان[8] من نفس السنة، قد عمّت بلاد الفرنج من حدود مدينة طرابلس شمالاً وحتى المناطق القريبة من أرسوف جنوباً، كما غنم المسلمون فيها غنائم كثيرة.

ولمّا كانت هذه الهجمات قد أثّرت على الصليبيين تأثيراً كبيراً، فقد أرسل مقدم الإسبتارية بعكا إلى أتابك السلطان بيبرس لكي يتوسط له في الصلح، غير أنّ طلبه لم يكلل بالنّجاح[9].

---

(1) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 31.

(2) صور: مدينة لبنانية مشرفة على بحر الشّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 433.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 98.

(4) صيدا: مدينة لبنانية على ساحل بحر الشّام شرقي صور. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 437.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 39.

(6) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 122.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 39.

(8) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 98.

(9) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 39.

❖ فتح صفد[1]:

كان السلطان الظاهر بيبرس قبل أن يتحرك إلى صفد معقل فرسان الدّاوية[2] قد أنفذ إليها الأمير فخر الدين الشّهابي في قوّة عسكرية، فاستمال أهل البلاد المجاورة لها، كما أنفذ الأمير فخر الدين الفائزي إلى قلعة الشقيف في قوّة عسكرية لصرف النّظر عن وجهته الحقيقية، ولمنع الصليبيين من تقديم أي عون لصفد عند محاصرتها. وقد كان سبب مهاجمته لها أن وصلته بعض الأخبار عن وجود كتيبة فرنسية ينفق عليها الملك لويس التاسع مرابطة فيها[3].

وصل السلطان بيبرس إلى صفد يوم الاثنين 8 رمضان سنة 664هـ/13 جوان 1266م، بعد أن جعل نائبه بمصر ولده الملك السّعيد[4] بمساعدة الأمير عزّ الدين الحلي[5]، وقد كانت حامية صفد على درجة من القوّة[6]، لذا شرع السلطان من فوره بحصارها، وفي أثناء ذلك قدم عليه رسل من قبل أمراء وملوك صور وبيروت ويافا والدّاوية يلتمسون مهادنته، غير أنّ السلطان بيبرس طردهم وأنكر على أمرائهم أمورا تنقض العهد معهم، ومن ذلك أنّ أمير بيروت قد تعرّض لمركب من مراكب السلطان وغدر بأهله. فعاد الرسل دون تحقيق الهدف الذي قدموا لأجله[7].

وما إن وصلت المجانيق التي كان قد طلبها السلطان بيبرس من دمشق في 21 رمضان/26 جوان من نفس السنة، حتى نصبها حول صفد، وأوّل ما بدأ به قصف بيت مقدم الدّاوية فيها، كما نُصبت السلالم على القلعة[8]، وبتكامل عودة قوّاته التي أنفذها من قبل للإغارة على معاقل للصليبيين، ووصول المساعدات من بلاد الشّام على رأسها ملك

---

(1) صفد: مدينة في جبال عاملة (جبال لبنان) المطلّة على حمص بالشّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 412.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 102.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 99.

(4) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 124.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، المصدر السابق، ص 116.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 99.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 40.

(8) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 24.

حماه المنصور، شرع بشنّ هجومه الأول عليها في 2 شوّال/7 جويلية من نفس السنة مستخدماً السّهام والرّماح المشتعلة بالنِّفْط[1][2].

وقد اشتدّ القتال عليها ليلاً، فقاد السلطان بيبرس بنفسه هجوماً على خندق الباشورة، وهو سد ترابي، إلاّ أنّه لم يتمكن من دخول المدينة، مُكتفياً بإحداث نقوب في أسوارها من جميع الجهات[3].

ونتيجة لكثرة الجراح التي حدثت بين صفوف مقاتليه، فقد أمر السلطان بيبرس بنصب خيمة جعل فيها الأطباء والحكماء لمداواتهم[4].

ثمّ شن السلطان هجوماً ثانياً في 8 شوّال/13 جويلية فلاقى ذات المصير، إلاّ أنّه نجح في إقامة جسر على باب القلعة. وشن بعد ذلك هجوماً ثالثاً في 11 شوال/16 جويلية ولكنّه مني بالفشل أيضاً[5].

وتعود أسباب هذا الفشل المتكرر لكون القلعة محصّنة جيّداً، وكذا لكثرة عدد مقاتلي حاميتها التي كانت على درجة من القوّة[6].

وبإصرار السلطان بيبرس على اقتحامها شنّ عليها هجوماً رابعاً في 14 شوّال/19 جويلية استمر طوال اللّيل وحتى صباح اليوم التالي، وتمكن خلاله من الاستيلاء على بعض أسوارها ورفع أعلامه عليها، وهذا بعد أن دحر الصليبيين الذين اندفعوا إلى داخل القلعة وتحصّنوا بها، واستمر السلطان بيبرس يحاصرهم ويهاجمهم حتى أعلن بأنّه سيمنح العفو لمن يستسلم منهم[7].

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 40.

(2) النِّفْط: دُهن معدني سريع الاحتراق. ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص 827.

(3) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 149.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 40.

(5) نفسه، ص 40ـ41.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 99.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 41.

وقد تمّ التفاوض بين رسول الدّاوية ليو والسلطان بيبرس على إعطائهم الأمان، بشرط أن لا يصطحبوا معهم سلاحاً ولا شيئاً من الفضيّات[1]، ولا يؤذوا شيئاً من ذخائر القلعة بنار أو هدم، فإن وُجد مع أحد منهم شيء من ذلك انتقض العهد[2].

واستمرت المفاوضات معهم إلى ما بعد صلاة الجمعة 18 شوّال/23 جويلية، حين تمت الموافقة على هذه الشروط. فلمّا كان وقت العصر من اليوم نفسه، فُتحت الأبواب وخرج الصليبيون أوّلاً بأوّل، وفي أثناء تفتيشهم وُجد بأنّهم قد نقضوا الشروط، إذ اصطحبوا معهم أسلحة وبعض الأسرى من المسلمين الذين ألبسوهم ملابس الصليبيين[3]، وقيل أنّهم أخذوا بعض التحف القيّمة[4]، فأمر السلطان بيبرس بضرب رقابهم، فضربت على تلٍّ هناك[5] كان أهل صفد يضربون رقاب المسلمين عليه[6]، وكانوا مائتي فارس[7] وقيل ألفين[8]، ماعدا اثنين عفا عن أحدهما السلطان بيبرس، وهو رسول الدّاوية ليو الذي اعتنق الإسلام ودخل في طاعة السلطان، والثاني شفع فيه الأتابك ليخبر الفرنج بما جرى وكان من الإسبتارية[9]، كما أنّه استشهد عليها من المسلمين خلق كثير[10].

واتخذ السلطان بيبرس من هذه المدينة بعد تحريرها نيابة جديدة من نيابات الدولة المملوكية في بلاد الشّام، وولّى الأمير عزّ الدين العلائي نائباً عليها، والأمير علاء الدين أيدغدي مقدماً لعسكرها، والأمير مجد الدين الطوري نائباً لقلعتها، كما أمر بعمارتها

---

(1) الفضيّات: المقصود هنا المال. ينظر: بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 32.

(2) أبو بكر بن أيبك الدواداري، المصدر السابق، ص 117.

(3) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 71.

(4) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 149.

(5) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 24ـ25.

(6) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 32.

(7) شهاب الدين بن العماد، ج7، المصدر السابق، ص 546.

(8) هناك رواية أخرى حول هذه الحادثة، وهي أنّ فرسانها كانوا يكمنون للمسلمين على تل هناك فيصطادونهم ثم يقتلونهم، فأمر بيبرس عسكره بأن يجمعوهم على ذلك التل ويفعلوا بهم مثل ذلك. ينظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 123.

(9) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 32.

(10) شهاب الدين بن العماد، ج7، المصدر السابق، ص 546.

وتحصينها[1]، وحمل إليها الذخائر والسلاح، إضافة إلى أنّه شجع رعيّته في دمشق على الإقامة بها بعد أن حول كنيستها إلى جامع[2].

ثمّ رحل عنها السلطان بيبرس إلى دمشق في تاسع عشر شوّال/24 جويلية[3]، بعد أن أمر بكتابة البشائر بهذا النّصر إلى مصر وسائر الأقطار التابعة لدولته[4].

وعندما علم أهل عكا ما حلّ بصفد، أرسلوا إلى السلطان بيبرس رسولاً يطلبون منه السّماح لهم بنقل جثث قتلاهم إلى عكا للتبرك بهم باعتبارهم شهداء، قائلين له: << تصدّق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء إلى عكا لأجل البركة بهم >>[5]. فما كان من السلطان بيبرس إلاّ أن ترك رسولهم في مُخيّمه، ثمّ قاد فرقة من جيشه أوّل اللّيل إلى عكا، فما أصبح إلاّ وهو على بابها، فلمّا فتح الصليبيون الباب وخرجوا لقضاء حوائجهم باغتهم وقتل منهم عدداً كبيراً، ومن ثمّ عاد من فوره إلى صفد، فلمّا دخل خيمته طلب رسول عكا وأعاد إليه الرسالة قائلاً له: << عُد إليهم فقد عملنا عندهم شهداء وكفيناكم مؤونة النّقل وكُلفته >> [6].

وقد كان هذا الفتح الكبير مكسباً كبيراً للمسلمين، إذ كان هذا المعقل مصدر خطر دائم هدّد الصليبيون من خلاله القوّات الإسلامية والفلاّحين المسلمين على امتداد عرض فلسطين شمالاً، نظراً لموقعه الحربي في قلب منطقة الجليل[7]، فضلاً عن مناعته وارتفاعه[8].

---

[1] كتب بيبرس على جدران قلعة صفد بأنّه (عماد الدين الذي حوّل الكنائس إلى مساجد، ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين، والهمهمة بالإنجيل إلى ترتيل بالقرآن). ينظر: محمد فريد عبد القادر، المرجع السابق، ص 263.

[2] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 100.

[3] جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 125.

[4] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 149.

[5] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 42.

[6] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 100ـ101.

[7] الجليل: هو عبارة عن جبل، والمعروف بجبل الجليل، في ساحل الشّام ممتد إلى قرب مدينة حمص. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 157.

[8] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 42.

❖ فتح طبرية وهُونين[1] وتبنين والرّملة واللّد:

بعد فتح صفد توجه السلطان الظاهر بيبرس إلى طبرية فاستولى عليها وعلى البلاد المجاورة لها، وذلك في شهر شوّال سنة 664هـ/جويلية 1266م، كما استولى في 11 ذي القعدة/15 أوت[2] من نفس السنة على هونين وتبنين ودمّرهما بحيث لم يبق لقلاعهما أثر، ثمّ استولى في الشهر ذاته على الرّملة واللّد، وعيّن على هذه المناطق التي فتحها عُمّالاً له[3].

ثمّ توجه السلطان بيبرس بعد ذلك إلى دمشق وأمر جيشه بعدم دخولها، والتوجه مباشرة إلى مملكة أرمينية الصغرى لتدميرها. وسبب ذلك أنّ ملكها هيثوم قد تحالف مع مغول فارس والصليبيين في بلاد الشّام ضده، وزاد من عدائه انّه اتّبع سياسة الحصار الاقتصادي عليهم، وذلك بمنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إليهم، وكان يهدف من وراء ذلك حرمانهم من إنشاء قوّة بحرية[4].

جهّز السلطان بيبرس جيشاً بقيادة الأميرين سيف الدين قلاوون، وعزّ الدين يوغان الركني[5]، وملك حماه المنصور الثاني للزحف إليهم، وكان ذلك أثناء غياب ملكها الذي كان في زيارة إلى المغول[6]، فدارت معركة كبرى بين الجيشين في 21 ذي القعدة/24 أوت من نفس السنة، هُزم فيها الأرمن بقيادة ابني هيثوم ليو وثوروس شرّ هزيمة، فأُسر فيها نحو أربعين ألف أسير[7] من بينهم ابنه ليو، بينما قتل الآلاف منهم كان من بينهم ابنه الآخر ثوروس[8].

---

(1) هُونين: بلدة في جبال عاملة مطلة على نواحي مصر. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 420.

(2) حسن عبد الوهاب حسين، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة حوالي 1190ـ1291م/586ـ690هـ، تق: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1989م، ص 304.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 101.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 43.

(5) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 219.

(6) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيّوبيين، ص 182.

(7) محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية (1090ـ1291م)، دار المعرفة الجامعية، السويس، مصر، 2000م، ص 328.

(8) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 378.

أمّا السلطان بيبرس فقد عاد إلى مصر عن طريق الكرك، وفي طريقه عند بركة زيزاء وقع عن فرسه أثناء الصيد، فكُسرت فخذه وحُمل إلى القاهرة، وقد تعافى بعد مدّة، وفي أثناء ذلك ورد عليه رسول من قبل الملك هيثوم يشفع في ولده ليو الذي كان قد وقع في الأسر، فأمر السلطان بيبرس بفك قيده فقط ولم يطلق سراحه، وكتب للملك هيثوم موادعته (أي مهادنته) على بلاده لمدة سنة[1].

❖ اعتداءات الصليبيين ورد القوات الإسلامية:

في أواخر سنة 664هـ/1266م هاجم صليبيو عكا قرية طين شيحا القريبة منهم، وخطفوا أربعة من المسلمين شنقوهم على الفور، فبلغ الأمر السلطان الظاهر بيبرس الذي أمر بمهاجمة مناطق الصليبيين هناك، فقتل الجيش الإسلامي حوالي مائتي صليبي ونهبوا المواشي ثمّ عادوا بالغنائم[2].

بعد ذلك عزم بوهمند أمير أنطاكية وطرابلس ومعه الدّاوية والإسبتارية على مهاجمة حمص، لكنّ الأمير علم الدين سنجر عرف بالأمر، فسبقهم ونصب لهم الكمائن، فلمّا اقتربوا منها انقض الجيش الإسلامي عليهم وهزمهم فاضطروا للتراجع[3].

ثمّ تجهّز السلطان بيبرس ونزل على قلعة قارا[4] في 4 ذي الحجة/6 سبتمبر من نفس السنة، وهذا بعد أن بلغه بأنّ أهلها وهم نصارى[5] يعتدون على المسلمين في الضّياع المجاورة، ويبيعون من يقع في أيديهم للصليبيين في عكا ولأهل حصن عكار، فاستولى عليها المسلمون بالقوّة بعد حصار، وقد أمر السلطان بيبرس جنوده بأن ينهبوهم ويقتلوهم ففعلوا ذلك[6]، وكان عدد قتلاهم ألفاً وسبعين[7]، وسُبي منهم حوالي الألف[8]، كما حُوِّلت

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 45.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 101.

(3) نفسه، ص 102ـ103.

(4) قارا: قرية على الطريق من دمشق إلى حمص. ينظر: محمود شلبي، المرجع السابق، ص 222.

(5) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 337.

(6) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 33.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 102.

(8) شهاب الدين بن العماد، ج7، المصدر السابق، ص 546.

كنيستهم إلى جامع، وسبيت نساؤهم، وأخذ صبيانهم مماليك[1].

وفي مطلع محرم سنة 665هـ/أكتوبر1266م قدمت للصليبيين نجدة من جزيرة قبرص على رأسها الأمير هيو الوصي على عرش قبرص وعكا[2] في ألف ومائة فارس وصلت عكا. فلمّا كان الأمير هيو متحمّساً لقتال المسلمين، فقد قاد هذه القوّة التي أتى بها مع فرسان الدّاوية والإسبتارية، وشنّ هجوماً على منطقة الجليل[3] حتى وصل إلى طبرية، غير أنّ القوّات الإسلامية المرابطة في صفد بقيادة علم الدين سنجر تصدت له ولاحقته قريباً من عكا، حيث ألحقت به هزيمة نكراء بعد أن قتلت الكثير من قوّاته[4].

ونتيجة لهذه الهجمات الصليبية أرسل السلطان بيبرس من صفد فرقة من الجيش والمتطوّعين بقيادة الأمير سيف الدين بكتر، وشهاب الدين بوزبا إلى المناطق الصليبية المجاورة لها، فهاجمتها وأحرقت مزروعاتها[5]. كما أرسل جيشاً بقيادة الأمير قلاوون استولى على بعض القلاع الواقعة شمالي طرابلس[6].

ثمّ رجع السلطان بيبرس والأسرى والغنائم بين يديه وسار إلى الكرك في أوّل السنة ذاتها[7].

وفي خريف العام نفسه هاجم الجيش الإسلامي أنطاكية، ولكنّ قادته اكتفوا ببعض الغنائم.

ومن الملاحظ أنّ السلطان بيبرس في هذه الحملات قد استخدم سياسة الهدم والتخريب في المعاقل الصليبية التي استولى عليها، فحطّم تماماً الحصون والقلاع والقرى والموانئ حتى لا يستخدمها الصليبيون كنقاط تجمّع أو لرسو السفن بها[8]، فتكون معقلاً لانطلاق الهجمات والغارات الصليبية على البلاد الإسلامية.

---

(1) السير وليم موير، المرجع السابق، ص 33.

(2) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 122.

(3) الجليل: جبل في ساحل الشّام ممتد إلى القرب من حمص. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 157.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 45.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 103.

(6) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيّوبيون والمماليك، ص 212.

(7) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 26.

(8) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 249.

الفصل الثالث:

مواصلة السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته وتصديه لحملتي ملكي أراغون وفرنسا (665ـ669هـ/1267ـ1270م)

1) مواصلة الفتوحات (665ـ667هـ/1267ـ1269م)

2) مهادنة الصليبيين للسلطان ودوره في التصدي لحملتي ملكي أراغون وفرنسا (667ـ669هـ/1269ـ1270م)

الفصل الثالث: مواصلة السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته وتصديه لحملتي ملكي أراغون وفرنسا (665ـ669هـ/1267ـ1270م)

1) مواصلة الفتوحات (665ـ667هـ/1267ـ1269م)

واصل السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته ضد الصليبيين بفتح أهمّ معاقلهم، وهذا بعدما تمكن من فتح العديد من المدن والحصون والقلاع التي كانت تحت سيطرتهم في بلاد الشّام، وأهمّها: قيسارية وأرسوف وصفد، واستمر في مواصلة مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والتي بدأها من قبله العديد من السلاطين والملوك أهمّهم: عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيّوبي.

ومن هنا تابع السلطان بيبرس هذه المسيرة بفتحه بعض المدن والقلاع الأخرى كمدينة يافا وأنطاكية وغيرهما.

❖ المهادنات مع قوى الصليبيين:

توجه في شهر جمادى الآخرة سنة 665هـ/مارس 1267م السلطان الظاهر بيبرس إلى بلاد الشّام على رأس شطر من جيشه تاركاً معظمه في مصر، إذ كان هدفه تعمير صفد وقلعتها، وكان قد أمر في السنة السابقة ببناء قلعة في قاقون قرب الرّملة لتكون عوضاً عن قيسارية وأرسوف بعد تدميرهما، وقد اكتملت عمارة هذه القلعة في الشهر الذي قدم فيه إلى بلاد الشّام، فعُمِّرت وجعلت كنيستها جامعاً[1].

وعندما أدرك السلطان بيبرس غزّة، ورد عليه رسل الصليبيين ومعهم هدايا وبعض الأسرى المسلمين تعبيراً عن حسن نواياهم تجاهه، فكسا السلطان بيبرس الأسرى ورحّلهم إلى أهاليهم، كما أحسن للرسل وفرض عليهم شروطاً قبلوها[2] لم تذكرها المصادر.

ثمّ توجه السلطان بيبرس إلى صفد، وفي أثناء مقامه فيها بلغه أنّ الصليبيين في مدينة عكا يخرجون منها في بعض الأيّام من الصباح وحتى الضحى[3]، فسار إليها في فرقة من جيشه سراً، ولم يشعر أهل عكا إلاّ وهو على باب مدينتهم، وهذا بعد أن تخفّى

---

[1] بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 33.

[2] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 103.

[3] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 46.

جنوده في زيّ فرسان الدّاوية والإسبتارية[1]، فخرّب ما حولها من القرى والآبار[2]، وقطّع أشجارها وأتلف مزروعاتها[3]، واستمر على ذلك مدّة أربعة أيّام.

وفي أثناء مقام السلطان بيبرس في صفد ورد عليه رسل بعض قوى الصليبيين في بلاد الشّام يلتمسون المهادنة، لخشيتهم من أن يقوم بمهاجمة معاقلهم بعد أن أفزعتهم الانتصارات الكبيرة والسّاحقة التي حققها بين سنتي 663ــ665هـ/1265ــ1267م[4].

فقد ورد عليه رسل ملكة بيروت إيزابيلا دى إبلين[5]، فعقد معهم السلطان بيبرس هدنة مدّتها عشر سنوات[6] بعد أن التزمت الملكة بردّ التجار الذين أسرهم أخوها في وقت سابق مع أموالهم (وهم أقارب أحد قادة السلطان بيبرس)، والذين كانوا متوجهين إلى قبرص[7].

وورد عليه أيضاً في رمضان/جوان من نفس السنة رسل أمير صور فيليب دى مونتفورت يطلبون تجديد الهدنة، فأجابهم السلطان بيبرس إلى طلبهم[8]، وعقد معهم هدنة مدّتها عشر سنين لصور وقراها، وهي تسع وتسعون قرية، وذلك بعد أن ردّ هذا الأمير جماعة من المغاربة كانوا قد وقعوا أسرى بيده، ودفع ديّة لغلام السلطان بيبرس شاهين الذي كان قد قتله في وقت سابق في صور[9]، ومقدارها خمسة عشر ألف دينار، وقد أعطيت هذه الديّة لأولاده[10].

---

(1) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 161.

(2) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 328.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 103.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 46.

(5) هي إيزابيلا بنت الملك جون الثاني أبلين (جوان الثاني دبلين)، تُطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة، وهي تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت، توفيت سنة 670هـ/1272م. ينظر: أحمد مختار العبّادي، في تاريخ الأيّوبيين، ص 189ــ190.

(6) محمود نديم أحمد فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1983م، ص 184.

(7) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 240.

(8) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 104.

(9) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 35.

(10) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 104.

كما ورد عليه رسل الإسبتارية يطلبون الصلح على حصن الأكراد[1] والمَرقب[2]، وكانوا قد تحدثوا مع السلطان بيبرس في هذا الأمر في السنة السابقة، وكان الأمر قد استقر معهم حينذاك على أن يكون فسخ الهدنة بيد السلطان بيبرس، ولمّا حضرت رسلهم هذه المرة تقرّرت الهدنة معهم لعشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيّام وعشر ساعات[3]، وأعلمهم أنّه سينقض العهد متى يشاء ويعلمهم بذلك[4].

فألغي بموجب هذه الهدنة ما كان يأخذه الإسبتارية من قطيعة[5] عن بلاد فرقة الإسماعيلية[6] (وهي حصون مصياف والعليقة والكهف والقدموس والمنيقة)[7]، وشيزر وأفامية[8] وأبي قبيس وعينتاب[9]، وكان ما يأخذه الإسبتارية ألفا ومائتي دينار ومائة مد[10]

---

[1] حصن الأكراد: وهو قلعة حصينة مقابل مدينة حمص من غربيها. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 128.

[2] المَرقب: قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشّام ومدينة بانياس. ينظر: محمود شلبي، المرجع السابق، ص 240.

[3] بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 36.

[4] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 101.

[5] قطيعة: لها أكثر من معنى، فقد يُقصد بها ما يُفرض من المال على بلد أو إقليم للإنفاق على الاستعدادات الحربية الدفاعية، كالغرامة الحربية، وقد تصبح سنوية. ويقصد بها أيضاً فئة من الجنود يتراوح عددهم ما بين المائة والألف جندي، وفي هذه الحالة يُقصد بها الشطر الأوّل. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 124.

[6] بلاد فرقة الإسماعيلية: هي بلاد فرقة الشيعة الإسماعيلية بالشّام، وتنسب هذه الفرقة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وصارت دعوتها سياسية، كما يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية، وقلاعهم هي: الكهف، والمينقة، والقدموس، والعليقة، والخوابى، والرصافة، وميصاف، والقليعة. ينظر: فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 150، بدر الدين العيني، المصدر السابق، ص 60.

[7] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 46.

[8] أفامية: مدينة حصينة في حمص على سواحل الشّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 228.

[9] عينتاب: أو عين تاب، قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية. ينظر: نفسه، مج4، ص 186.

[10] مد: مكيال قديم، وفي تقديره اختلاف، فهو عند أهل العراق رطلان، بينما هو عند أهل الشّام حوالي سبعة أرطال، بحسب الرطل الشّامي الذي يزن 2.5 كيلوغرام. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 391.

من حنطة وشعير على بلاد الدعوة الإسماعيلية، وأربعة آلاف دينار على شيزر[1] وأفامية، وثمانمائة دينار على قرية أبي قبيس[2] وخمس مائة دينار على عينتاب[3].

وورد عليه أيضاً قسطلان[4] يافا يطلب عقد هدنة مع الأمير جاك الذي تولّى إمارتها بعد وفاة والده جوان دبلين أثناء رحلة صيد[5]، إلاّ أنّ السلطان بيبرس رفض ذلك بسبب الغارات التي كان يشنّها هذا الأمير على معاقل المسلمين، وأجاب السلطان بيبرس القسطلان بقوله: << الذي كان معي صلحاً قد مات >>[6].

هذا بالإضافة إلى قدوم رسل ملك أرمينية هيثوم الأوّل، فجدّد السلطان بيبرس الهدنة معه سنة أخرى، ولكنّه احتفظ بابنه الأمير ليو ولم يطلق سراحه.

وباكتمال تعمير صفد وعقد هذه المهادنات عاد السلطان بيبرس أدراجه إلى مدينة القاهرة في أوائل سنة 666هـ/1268م.

وممّا هو جدير بالملاحظة هو أنّ السلطان الظاهر بيبرس لم يعقد هذه المهادنات مع بعض قوى الصليبيين في بلاد الشّام، إلاّ ليحول بينهم وبين تقديم المساعدة العسكرية للمعاقل الصليبية الأخرى، والتي كان السلطان يريد فتحها مُستقبلاً، وما رفضه لعقد هدنة مع صاحب يافا إلاّ دليل على ذلك، إذ كانت مدينة يافا أوّل أهدافه آنذاك.

كما أنّ السلطان بيبرس لم يلزم نفسه بتنفيذ تلك المهادنات إذا ما سنحت له فرصة الانقضاض على معاقلهم، كيف لا وهم المعتدون الذين يهاجمون ويسيطرون على معاقل المسلمين من ناحية، ولم يحترموا العهود والمواثيق التي كانوا يعطونها للمسلمين عندما كانوا يحتلون مدنهم وقراهم من ناحية أخرى[7].

---

(1) شيزر: من قرى حمص غربي حلب. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 131.

(2) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 150.

(3) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 36.

(4) القسطلان: معرب اللفظ اللاتيني Castellanus، وهو حارس القصر. ينظر: محمود شلبي، المرجع السابق، ص 246.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 104.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 47.

(7) نفسه، ص 47ـ48.

❖ فتح يافا[1]:

خرج السلطان الظاهر في أوّل جمادى الآخرة سنة 666هـ/17 فيفري 1268م على رأس جيشه من مصر قاصداً بلاد الشّام[2]، وهذا بعد أن أنابه على مصر الأمير بيليك الخازندار[3][4]، ومن ثمّ أرسل إلى نائب دمشق يأمره بتجهيز جيش والخروج به إلى قلعة الشقيف لحصارها ريثما يصل إليه، وعندما وصل منطقة العوجاء قريباً من يافا، حضر إليه رسل أميرها مع عدد من زعمائها يطلبون الهدنة. كما أنّ السلطان بيبرس كان قد بلغه أنّ أهل يافا يحملون الميرة[5] إلى عكا التي كانت ممنوعة عن أهلها، إضافة إلى أنّهم حجزوا عدداً من المسلمات في حانة هناك[6].

عزم السلطان بيبرس على فتح مدينة يافا، فاعتقل رسل صاحبها ثمّ نزل حولها على حين غفلة من أهلها، وشرع من فوره بحصارها، ثمّ تم له فتحها عُنوةً في 20 جمادى الآخرة/7 مارس من نفس السنة، فاضطرّ أهلها للّجوء إلى القلعة، فحاصرها السلطان بيبرس إلى أن تسلّمها صُلحاً في 22 جمادى الآخرة/9 مارس[7]، ثمّ سمح لأهلها بالخروج منها وعوّضهم عمّا نهب لهم أربعين ألف درهم. فرحلوا عنها إلى مدينة عكا، ثمّ شرع السلطان بيبرس في هدم القلعة والمدينة بعد أن جمع أخشابها ورخامها وأرسلها إلى مدينة القاهرة لبناء الجامع الظّاهري[8] بمدينة الحسينيّة[9].

---

(1) يافا: مدينة على ساحل بحر الشّام، من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 426.

(2) ابن كثير، ج17، المصدر السابق، ص 475.

(3) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 35.

(4) خازندار: لفظ مركب من: خزنة العربية و: دار الفارسية، ومعناه المسؤول عن الخزينة. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 156.

(5) الميرة: هي الطعام، والمعنى المقصود هنا هو المؤونة. ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص 781.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 48.

(7) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 127.

(8) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 105.

(9) محمد فريد عبد القادر، المرجع السابق، ص 264.

وقد منح السلطان الظاهر بيبرس بعض قرى المدينة لعدد من الأمـــراء المماليـــك، وشجّع إقامة القبائل من التركمان بالبلاد السّاحلية التي افتتحها لحمايتها، كما أمـــر ببنـــاء المساجد بهذه المدينة وإقامة شعائر الإسلام وإزالة المنكرات منها، وأنّ المال المتحـــصل من هذه المدينة لا يجمع مع غيره، وقال: << هذه بلاد فتحها الله على يدي >>، فاختـــار أن يكون مأكله ومشربه من هذا المال[1].

ولمّا انتهى السلطان بيبرس من هدم مدينة يافا، رحـــل عنهـــا يـــوم الأربعـــاء 12 رجب/28 مارس قاصداً قلعة الشقيف[2].

❖ فتح الشقيف[3]:

عندما انتهى السلطان الظاهر بيبرس من هدم مدينة يافا كما ذكرنا، اتجه إلى صـــفد لأخذ المجانيق والسلاح، ثمّ تحرك قاصداً قلعة الشقيف، فنازلهـــا فـــي 19 رجـــب ســـنة 666هـــ/4 أفريل 1268م، وقد كانت هذه القلعة تابعة لفرسان الدّاوية[4]. كما أنّه قدم عدد كبير من الفقهاء والفقراء من أهالي القرى القريبة منها[5] لمشاركة السلطان في فتحها.

وشاءت الأقدار أنّه أثناء مسير السلطان الظاهر بيبرس إليها وقع رسل صليبيين من عكا في قبضة رجاله، ومعهم رسالة من أهلها إلى الصليبيين بقلعة الشقيف، وجاء في هذه الرسالة بعد ترجمتها: << أنّ المسلمين قاصدون إليكم وهم لا يقدرون على أخذ الحـــصن إن كنتم رجالاً واحتفظتم به، فجدّوا في أمركم >>، ولمّا قرأها السلطان بيبرس لجأ إلـــى الحيلة والمكيدة للسيطرة على القلعة بأقلّ خسائر ممكنة[6]، فاســـتدعى كاتبـــاً يـــتقن لغـــة الصليبيين وأمره أن يكتب مثلها وأن يضيف إليها: << وإن أنتم رأيتم من أنفسكم عجـــزاً

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 49.

(2) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 128.

(3) الشقيف: وهي قلعة حصينة جدّاً في كهف من جبل، واسمها الكامل شقيف أرنون، وأرنون هذا اسم رجل أعجمي نسب إليه، وهي قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 356، جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 128، فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 155.

(4) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 125.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 49.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 105.

من قتاله فسلّموا الحصن إليه، واجعلوا فيما تشترطون عليه سلامة أنفسكم وأولادكم وحريمكم >> [1].

كما أنّ السلطان بيبرس قد حذر في هذه الرسالة مُقدّم الشقيف من الوزير الصليبي المقيم عنده على لسان أهل عكا، وأرسل في الوقت ذاته رسالة أخرى إلى الوزير نفسه يحذره من مُقدّم الشقيف على لسان أهل عكا أيضاً، فدب الخلاف بينهما وأخذت الفتنة تتفشى في القلعة، وهكذا كانت الخطة التي اتّبعها السلطان ناجحة لفتح هذه المدينة[2]، وكان هذا في الوقت الذي شدّد فيه الأخير الحصار عليها مستخدماً ستة وعشرين منجنيقاً لقصفها، ممّا اضطر الصليبيين إلى إخلاء إحدى القلعتين (الشقيف تتكون من قلعتين)، فتسلّمها المسلمون في 26 رجب/12 أفريل[3]، ثمّ شدّدوا الحصار على القلعة الأخرى، ونتيجة لذلك طلب الصليبيون الأمان على أنفسهم، وأن يؤخذ رجالهم أسرى، بينما يترك النّساء والأطفال، فأجابهم السلطان إلى ذلك، وتسلّم القلعة منهم في 29 رجب/15 أفريل بعد أن دام الحصار عشرة أيّام[4]، فأخرج منها النّساء والأطفال وتمّ حملهم على الجمال إلى صور، وقد سيّر معهم السلطان من يحفظهم، في حين أُسر نحو خمسمائة رجل[5]، ثمّ أمر بهدم القلعة، إلاّ أنّه عاد وولّى الأمير سيف الدين بلبان الزيني لعمارتها نظراً لأهمّيتها العسكرية[6].

وقد أرعب هذا الفتح ملكة بيروت وتخوفت من أن يلحق بمعقلها نفس المصير، فأرسلت إلى السلطان بيبرس تفاوضه على استمرار الهدنة، ولكي تظهر مصداقيتها في ذلك، فقد توقفت عن المماطلة في تسليم التجار المسلمين مع أموالهم، والذين كانوا قد

---

[1] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 49.

[2] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 105.

[3] محمود شلبي، المرجع السابق، ص 247.

[4] شهاب الدين بن العماد، ج7، المصدر السابق، ص 560.

[5] شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 35.

[6] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 50.

أسروا في وقت سابق كما ذكرنا، وإعادتهم إلى السلطان بيبرس، عندئذ أقرّ الأخير استمرار الهدنة معها[1].

ثمّ رحل السلطان عن قلعة الشقيف في 10 شعبان/25 أفريل[2] بعد أن جعل بها فرقة من عسكره، ثمّ تابع خطته العسكرية بتدمير قوى العدو[3]، فأرسل جيشاً أغار على طرابلس ونواحيها في 16 شعبان/1 ماي[4]، وكانت غارة مدمّرة، إذ خرّب المسلمون قراها[5]، وقطّعوا الأشجار، وأحرقوا البيوت، وهدّموا الكنائس التي بنواحيها[6]، كما استولوا على برج هناك وأسروا من فيه، وقد أرسل الأسرى جميعاً إلى مجلس السلطان الذي أمر بقتلهم[7].

ولمّا وصلت إلى حاكم صافيتا[8] وأنطرطوس[9] أنباء ما أصاب الفرنج في تلك الغارات خشي أن يصيبه ما حل بطرابلس، فأرسل يهادن السلطان بعدما أطلق الأسرى الذين كانوا محتجزين لديه وعددهم ثلاثمائة أسير[10].

ثمّ رحل السلطان إلى حصن الأكراد ونزل تحته، فحضر إليه رسولُ مَنْ فيه بإقامة وضيافة، فردّها وطلب منهم دِيّة رجلٍ من جنده كانوا قتلوه[11] في وقت سابق وهي مائة ألف دينار، فأجابوه إلى طلبه[12].

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 50.

(2) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 128.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 106.

(4) رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 378.

(5) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 35.

(6) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 36.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 106.

(8) صافيتا: بلدة في سوريا. ينظر: بدر الدين العيني، المصدر السابق، ص 60.

(9) أنطرطوس: بلدة من سواحل بحر الشّام بين دمشق وحمص. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 270.

(10) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 106.

(11) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 36.

(12) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 128.

ثمّ بعد ذلك رحل السلطان شمالا إلى حمص وحماه[1]، وكان ذلك في 29 شعبان/14 ماي من نفس السنة[2]. وفي حمص، أمر بإبطال الخمور والمنكرات، ثمّ سار إلى حماه ومنها إلى أفامية، دون أن يُطلع أحداً على وُجهة مسيره، حيث كان هدفه إمارة أنطاكية[3].

❖ فتح إمارة أنطاكية (666هـ/1268م):

تحتل هذه المدينة مكانة خاصة لدى الصليبيين بسبب مناعة حصونها، وتحكمها في الطرق الواقعة شمال بلاد الشّام[4]، حتى أنّ طول أسوارها بلغ اثني عشر ميلاً[5]، وعدد أبراجها بلغ مائة وستة وثلاثين برجاً[6].

وقد فشل البيزنطيون في انتزاعها من الصليبيين الذين استولوا عليها في أثناء أحداث الحملة الصليبية الأولى، ونشير هنا إلى أنّ القوّات الصليبية لم تتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة الحصينة سنة 491هـ/1098م بالقوّة العسكرية، وإنّما فتح أحد الخونة من حراس أبوابها، أحد أبواب أبراج المدينة للقوّات الصليبية قبل فجر يوم اقتحامها[7].

وعندما وصل الظاهر بيبرس إلى أفامية قسّم جيشه إلى ثلاث فرق لاجتياح مدينة أنطاكية، وهي كالتالي:

- الفرقة الأولى: بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار، وقيل بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي[8]، ووجهتها ميناء السويدية، وهذا للاستيلاء عليه[9] ولقطع الطريق بين أنطاكية وبحر الرّوم، لتمنع أية محاولة إمداد تقوم بها قوّات العدو عن طريق البحر[10].

---

(1) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 36.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 36.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 106.

(4) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 162.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 106.

(6) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 37.

(7) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 103.

(8) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 248.

(9) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 250.

(10) محمود نديم أحمد فهيم، المرجع السابق، ص 187.

• الفرقة الثانية: بقيادة الأمير عزّ الدين أوغان (وقيل إيغان)[1] الركني[2]، ووجهتها دربساك[3][4]، وهو من دروب (مسالك) بلاد الشّام[5]، وهذا لحماية الممرات بين مملكة أرمينية وبلاد الشّام[6]، ولمنع أيّة مساعدة أو إمدادات من هذه المملكة تقدم لأنطاكية عند البدء بمهاجمتها[7].

• الفرقة الثالثة: وهي القوّة الرئيسية[8]، بقيادة السلطان نفسه، وقد نزل بها أوّلاً على أفامية، ثمّ توجه إلى إمارة أنطاكية ونازلها محاصِراً في الأوّل من شهر رمضان سنة 666هـ/15 ماي 1268م، وقد وافته الفرقتان السابقتان بعد ما أحدثتاه من تدمير وقتل وأسر في ميناء السويدية ومنطقة دربساك[9].

كان أمير أنطاكية وطرابلس بوهمند السادس (649ـ667هـ/1251ـ1268م)[10] آنذاك في مدينة طرابلس[11]، وذلك لأنّ السلطان بيبرس قد هاجم أوّلاً طرابلس وضواحيها، فهرع الأمير بوهمند بأسطوله لنجدتها، وعندئذٍ ترك السلطان بيبرس خيامه ومتاعه بالقرب من طرابلس متظاهراً بالخوف والهزيمة[12]، فاعتقد الأمير بوهمند أنّ دفاعه المستميت عنها هو الذي دفع السلطان بيبرس إلى الانسحاب، لذلك ركن إلى الرّاحة بها، ولكن ذلك كان جزءاً من خطة السلطان بيبرس، فقد أوهم هذا الأخير خصمه الأمير

---

[1] تقي الدين المقريزي، ج 1، المصدر السابق، ص 190.

[2] محمود شلبي، المرجع السابق، ص 248.

[3] شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 40.

[4] دربساك: وهي قلعة مرتفعة يمر فيها النّهر الأسود. ينظر: نفسه، ج49، ص 40.

[5] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 125.

[6] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 155.

[7] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 51.

[8] محمود نديم أحمد فهيم، المرجع السابق، ص 185.

[9] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 51.

[10] محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية (العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12ـ13م/6ـ7هـ)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 1999/2000م، ص 339.

[11] عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 51.

[12] أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 193.

بوهمند أنّ الهجوم الرئيسي هو على مدينة طرابلس، على حين أنّ هدفه الرئيسي هو الهجوم على إمارة أنطاكية[1].

تولّى قيادة إمارة أنطاكية في تلك الأثناء الكند[2] سطبل سيمون مانسل[3] الذي كانت زوجته إحدى قريبات زوجة الأمير بوهمند[4]، هذا الكند حمله طيشه على أن يقود جماعة من عساكر الصليبيين خارج المدينة في محاولة لمنع مهاجمة القوّات الإسلامية لها، غير أنّه وقع في أسرها، فلمّا أُحضر إلى السلطان بيبرس طلب منه أن يدخل إلى أنطاكية ويتوسّط لأهلها للاستسلام، فجرى السلطان بيبرس على عادته في إنذار خصومه قبل مهاجمتهم لإقامة الحجة، فسيّر الكند سيمون من أحضر ابنه وجعله رهينة لدى السلطان، ثمّ دخل المدينة وأقام يتشاور ثلاثة أيّام مع جماعة من القسّيسين والرّهبان، غير أنّهم ترددوا في قرارهم بعد أن ظهر منهم خوف من صاحبهم الأمير بوهمند، فآثروا مواصلة القتال وعدم الاستسلام[5].

ولمّا لم يصل السلطان الظاهر بيبرس معهم إلى نتيجة، شرع بشنّ هجوم عام على جميع أسوارها يوم السبت 4 رمضان/18 ماي، وركّز في هجومه على موضع من أسوارها بالقرب من القلعة ومقابل منحدر جبل سيلبيوس في محاولة لاقتحام المدينة[6].

وأمام شدّة ضربات القوّات الإسلامية، انهارت كل مقاومة للصليبيين، وتمكن المسلمون من اعتلاء الأسوار من الموضع الذي حدّده السلطان بيبرس، ففتحوا منه ثغرة إلى داخل المدينة، وتدفق المسلمون إلى داخلها، وفتحوا الأبواب لبقية الجيش المملوكي[7]،

---

(1) محمد ماهر حمادة، دراسة وثقيّة للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بني أميّة حتى الفتح العثماني لسورية ومصر (40ـ922هـ/661ـ1516م)، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1988م، ص 327.

(2) الكند: ويقال أيضاً قنط، كبير الصليبيين لغناه وأملاكه الكثيرة. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 131.

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 557.

(4) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 378.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 51.

(6) نفسه، ص 52.

(7) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 328.

فانتشر عسكر السلطان بيبرس في الشوارع[1]، وهرب من استطاع من أهلها إلى القلعة بعد أن أغلقت أبواب المدينة[2]، فشرعت العساكر الإسلامية في النّهب والقتل والأسر، وكان بالمدينة حوالي مائة وثمانية آلاف شخص، هذا سوى من دخل إليها عند هجوم العساكر من الفلاّحين الصليبيين[3]، كما أنّ الأمراء المماليك أحاطوا بأبواب المدينة حتى لا يفر منها أحد[4].

وأمّا القلعة فاجتمع فيها من المقاتلين الصليبيين ثمانية آلاف سوى النّساء والأطفال، ولمّا لم يكن بالقلعة مياه ولا طعام يكفيهم، فقد أنفذوا بعض رجالهم إلى السلطان بيبرس يطلبون الأمان، وأنّهم يُؤخذون أسرى، وكانوا لابسين أحسن الثّياب، فسجدوا جميعهم وقالوا: ارحمنا يرحمك الله[5]، فرقّ السلطان بيبرس لهم وأمّنهم على ذلك، وتسلّم القلعة منهم في اليوم التالي الأحد 5 رمضان/19ماي، ووجد أثناء تسلّم القلعة من أسرى المسلمين من الحلبيين فيها خلق كثير[6]، إضافة إلى بعض الأسرى الآخرين من بلاد الشّام، فأطلق السلطان بيبرس سراحهم[7].

كما أنّه قُتل أعدادٌ كبيرة من الصليبيين بمدينة أنطاكية، فعدّ من قتل بها فكانوا فوق الأربعين ألفاً[8].

ثمّ سلّم السلطان بيبرس القلعة إلى الأميرين بدر الدين بيليك الخازندار وبدر الدين بيسري الشّمسي، وقد أمر بإحضار الغنائم لتُقتسم[9].

---

(1) أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، تر: عفيف وشقية، الفارابي، (ب م س)، ص 310.

(2) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 329.

(3) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 36ــ37.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 52.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 127.

(6) ابن كثير، ج17، المصدر السابق، ص 476ــ477.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 52.

(8) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 129.

(9) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 190.

ولقد أظهرت الخطة التي اتّبعها السلطان الظاهر بيبرس في الهجوم على مدينة أنطاكية مدى التخطيط الاستراتيجي العسكري الذي وصل إليه الفنّ الحربي زمن دولة المماليك البحرية خلال عهده، وهذا دليل آخر على حنكة ودهاء هذا السلطان[1].

لقد فتح المسلمون المدينة التي ظلّت تحت سيطرة الصليبيين منذ الحملة الصليبية الأولى، أي على مدى مائة وسبعين سنة[2]. وكانت ثاني إمارة صليبية بعد إمارة الرّها[3] تقام في بلاد الشّام، فكان سقوطها صدمة كبيرة بالنسبة للعالم الصليبي بصفة خاصة وللعالم الأوربي بصفة عامة[4]، لأنّ سقوطها كان إيذاناً بانهيار الصليبيين في بلاد الشّام، بحيث لم يبق لهم بعد ذلك من المدن الكبرى سوى مدينتي طرابلس وعكا[5].

وفيما يخص الغنائم فهي لا تحصى، لدرجة أن قُسِّمت النّقود بالطّاسات، أمّا الأسرى فكانوا أكثر من أربعين ألف أسير[6]، وقيل مائة ألف أسير[7]، فأقام السلطان بيبرس يومين وهو يباشر تقسيم الغنائم والأسرى بين قوّاته، حتى أنّه لكثرة الأسرى لم يبق جندي مسلم إلاّ وله أسير صليبي، وقد بيع الصغير منهم باثني عشر درهماً، والجارية بخمس دراهم[8]، ولم يتمكّن إلاّ عدد قليل من الأسرى من أثرياء المدينة افتداء أنفسهم بالمال، وكان من بينهم الكند سيمون الذي لجأ إلى مملكة أرمينية الصغرى[9].

وفي نفس الصدد ذكر المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك كثرة الغنائم وتقسيمها من قبل السلطان بيبرس، فقال: << وأمر بإحضار المغانم (الغنائم) لتُقتسم، وركب (السلطان) وأبعد عن الخيام، وحمل ما غنمه وما غنمه مماليكه وخواصه، وقال: << والله ما خبّأتُ شيئاً ممّا حُمل إليّ، ولا خلّيت مماليكي يُخبّئون شيئاً، ولقد بلغني أنّ

---

(1) محمود نديم أحمد فهيم، المرجع السابق، ص 187.

(2) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 329.

(3) الرّها: مدينة بالجزيرة بين حمص وساحل الشّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 106.

(4) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 329.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيّوبيون والمماليك، ص 213.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 52.

(7) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 190.

(8) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 37.

(9) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 559.

غلاماً لأحد مماليكي خبّأ شيئاً لا قيمة له فأدّبته الأدب البالغ، وينبغي لكل أحد منكم أن يُخلّص ذمّته، وأنا أحلّف الأمراء والمقدّمين، وهم يُحلّفون أجنادهم ومضافيهم >>. فأحضر النّاس الأموال والمصاغ الذهب والفضة حتى صارت تلاً بها، وقُسّمت في النّاس، وطال الوزن، فقسّمت النّقود بالطاسات، وقسّم الغلمان على النّاس، فلم يبق غلام إلاّ وله غلام، وتقاسم النّساء والبنات والأطفال، وأبيع الصغير باثني عشر درهماً والجارية بخمسة دراهم، وأقام السلطان يومين وهو يباشر القسمة بنفسه، وقصّر النّاس في إحضار الغنائم فعاد السلطان مُغضباً، فلم تزل الأمراء به يلتزمون بالاجتهاد والاحتراز ويعتذرون إليه، حتى وقف على فرسه وما ترك شيئاً حتى قسّمه >>[1].

كما أنّ السلطان بيبرس أرصد بعضاً من الغنائم لعمارة الجامع الظّاهري الذي أنشأه بالحسينيّة[2]، إضافة إلى أنّ جنوده أخذوا من حديد أبوابها ورصاص كنائسها ما لا يوصف من كثرته[3]، ثمّ غادر المدينة بعد أن أمر بإحراقها، فأصبحت أثراً بعد حين[4].

وقد أحدث استعادة المسلمين لمدينة أنطاكية فزعاً كبيراً في قلوب الصليبيين المحيطين بها، ونظراً للوحدة التي تمتعت بها الجبهة الإسلامية آنذاك، والتي جعلت الجهود الإسلامية بقيادة السلطان الظاهر بيبرس تتّسم بالجدارة والإقدام، فقد كان من الطبيعي أن يشعر الصليبيون بالضعف والخوف من مواجهتهم[5]، لذا أرسلوا إلى السلطان بيبرس يطلبون الأمان، فأمّنهم وأرسل قوّة عسكرية على رأسها الأميرين بدر الدين بيليك الأشرفي وفخر الدين الجناحيّ[6] في 21 رمضان/4 جوان من نفس السنة[7] لتسلّم حصونهم، وهي: دركوش، شقيف كفردبين، شقيف كفر تلميس، فتسلّماها منهم وعادوا بالصليبيين أسرى إلى السلطان بيبرس[8].

---

(1) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 190.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 37.

(3) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 190.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 53.

(5) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 104ـ105.

(6) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 129.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 108.

(8) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 53.

وترتب على سقوط مدينة أنطاكية أيضاً، أنّ فرسان الدّاوية الصليبيين في ضواحي المدينة لم يعد باستطاعتهم مقاومة المسلمين، خاصة بعد سقوط مركز الإمارة وعاصمتها[1]، لذا تركوا حصنهم ــ حصن بغراس ــ[2] فارين منه، فأرسل السلطان بيبرس الأمير شمس الدين سنقر الفارقاني في 23 رمضان/6 جوان[3] في قوّة عسكرية فاستولى عليه، ولمّا دخله المسلمون لم يجدوا به سوى امرأة عجوز[4][5].

ومن ثمّ قام السلطان بيبرس بتعمير الحصن بكل ما يحتاجه، إضافة إلى الرجال، مع أنّ هذا الحصن كان عامراً بالمحاصيل الزراعية والذخائر[6]، فصار إذاً من الحصون الإسلامية[7]، وبذلك فقدت القوى الصليبية في شمال بلاد الشّام أحد الحصون التي عُدّت مناطق انطلاق القوى الصليبية لمهاجمة المعاقل الإسلامية المجاورة، وكذلك مركز دفاع أيضاً[8].

وقد أفزع فتح مدينة أنطاكية أيضاً بطريرك حصن القصير[9]، ــ مع الإشارة إلى أنّ أهلها من نصارى بلاد الشّام ــ فتخوّف من أن يقوم السلطان بيبرس بالاستيلاء على قلعته، فأرسل إليه يلتمس المهادنة على أن يتنازل له عن نصف القرى الذي تتبعه، فسمح السلطان له بالبقاء بها سبع سنوات على أن يكون تابعاً له، وكتب له هدنة بذلك[10].

ومن هنا فإنّه لم يبق من إمارة أنطاكية سوى مدينة اللاذقية، والتي أعادها المغول

---

(1) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 157.

(2) حصن بغراس: مدينة في لحف جبل اللُّكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ (الفرسخ تقريباً ثمانية كيلومترات)، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 467، المنجد في اللغة والأعلام، ص 576.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 108.

(4) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 37.

(5) هذا الحصن نازله الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، فحاصره مدّة سبعة أشهر لكنّه لم يستطع فتحه. ينظر: محمود شلبي، المرجع السابق، ص 253ــ254.

(6) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 37.

(7) أبو الفداء، المختصر، فـ6، ص 463.

(8) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 339.

(9) حصن القصير: هو حصن من قلاع حلب. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 129.

(10) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 53.

إلى الأمير بوهمند[1]، فظلّت معزولة إلى أن تمّ فتحها على يد السلطان المنصور قلاوون فيما بعد[2].

أمّا أمير أنطاكية بوهمند السادس، والذي كان في طرابلس مركز إمارته الثاني، فقد كتب إليه السلطان الظاهر بيبرس رسالة يبشّره فيها بفتح أنطاكية ساخراً منه ومُحتقراً إيّاه. ومن خلال هذه الرسالة علم هذا الأمير بخبر سقوط إمارته[3]، ومن جملة ما جاء فيها: << بسم الله الرّحمن الرّحيم[4]، قد علم القومص[5] الجليل المبجل ... الأسد الضرغام ... فخر الأمّة المسيحية ... بأخذ أنطاكية منه، وما شاهدته بعد رحيلنا من خراب العمائر ... وكيف قتلت الرجال ... وتُملّكت الحرائر، ... وكيف قُطّعت الأشجار، ... وكيف نُهبت لك ولرعيتك الأموال، ... هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت[6]، ... وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود، وأخّرناك وما كان تأخيرك إلاّ لأجل معدود، ... وها نحن نعلمك بما تمّ، ونُفهمك بالبلاء الذي عمّ، ... فلو رأيت خيّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنّهابة فيها تصول، والكسّابة[7] فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، ... ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كُسرت، وصحفها من الأناجيل المزوّرة قد نُشرت، وقبور البطارقة قد بُعثرت، ... لكنت تقول: يا ليتني كنت ترابا، ... ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ... ولو رأيت مراكبك وقد أُخذت في السويدية بمراكبك، ... لتيقّنت أنّ الذي أنطاك[8] أنطاكية منك استرجعها، والربُّ الذي أعطاك قلعتها منك قلعها، ومن الأرض اقتلعها، ... وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تُكذّب لنا خبراً، كما أنّ بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرنا مُخبّراً >>[9].

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 560.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 53.

(3) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 129.

(4) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 128.

(5) القومص: وتعني الكونت. ينظر: محمود شلبي، المرجع السابق، ص 249.

(6) نفسه، ص 250.

(7) الكسّابة: الذين كان همّهم كسب الغنائم وجمعها. ينظر: نفسه، ص 251.

(8) أنطاك: ووردت أعطاك. ينظر: نفسه، ص 252.

(9) نفسه، ص 252.

وبالاستيلاء على إمارة أنطاكية انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بمملكة أرمينية الصغرى، وتبدّدت فكرة التحالف بين إمارة أنطاكية ومملكة أرمينية والمغول[1].

وعلى صعيد المواجهة بين المسلمين والصليبيين، فقد كان سقوط أنطاكية بأيدي القوّات الإسلامية بقيادة السلطان الظاهر بيبرس أعظم فتح حقّقه المسلمون على حساب الصليبيين منذ استرداد صلاح الدين الأيّوبي لبيت المقدس سنة 583هـ/1187م[2].

كما ارتفع شأن السلطان بيبرس بعد هذا الفتح، فصارت له مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي جنباً إلى جنب مع الفاتحين العظام، أمثال عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيّوبي[3].

ولقد كان فرح المسلمين عظيماً باسترداد مدينة أنطاكية من أيدي الصليبيين، وقد كتبت البشائر إلى بلاد الشّام ومصر بهذا الفتح، فتلقّاه سكان هذه البلاد بالأفراح والزّينات التي أقاموها في الشوارع والأسواق[4].

كما تجدر الإشارة إلى أنّ أمير أنطاكية كان من أشدّ الصليبيين أذية للمسلمين حين ملك المغول حلب وفرّ المسلمون منها، فانتقم الله سبحانه وتعالى منه بمن أقامه للإسلام ناصراً وللصليبيين مدمّراً وكاسراً[5].

ولقد كان سقوط مدينة أنطاكية بمثابة إعلان لاستمرار حركة الجهاد الكبرى ضدّ الصليبيين في بلاد الشّام، والتي كانت المنازعات الأيّوبية الداخلية قد تسببت في توقفها، ثمّ جاءت دولة سلاطين المماليك البحرية بقيادة السلطان الظاهر بيبرس لتعاود القيام بها، وهي الحركة التي لم تنته سوى سنة 690هـ/1291م، عندما نجحت القوّات المصرية تحت قيادة السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون من فتح مدينة عكا، والقضاء على بقايا الصليبيين الذين كانوا قد تجمّعوا فيها[6].

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 54.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 104.

(3) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 338.

(4) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، المرجع السابق، ص 163.

(5) ابن كثير، ج17، المصدر السابق، ص 477.

(6) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 104.

وقبل أن يعود السلطان بيبرس فرحاً بالنّصر إلى دمشق عقد هدنة مع الملك هيثـــوم الأول ملك أرمينية بمدينة أنطاكية في رمضان/ماي من نفس السنة[1]، وأهم ما جاء فيها:

- إطلاق سراح الأمير ليو بن الملك هيثوم، مقابل إطلاق سراح الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من سجن أبغا بن هولاكو زعيم مغول فارس، وقد توسط في ذلك الملك هيثـــوم[2]، وكان الأمير سنقر الأشقر هذا قد وقع في أسر المغول عندما احتلوا حلـــب علـــى عهـــد هولاكو، حيث كان مسجوناً هناك من طرف ملك حلب النّاصر يوسف[3].
- تنازل الملك هيثوم للسلطان الظاهر بيبرس عن حصون جبال الأمـــانوس[4]، وهـــي: بهسنا[5]، الدربساك، مرزبان، رعبان[6]، الزرب، شيح الحديد[7]، وكانت كلّها ضمن إقلـــيم مرعش[8][9].

وبذلك سيطرت دولة السلطان الظاهر بيبرس، باستثناء قلعة بهسنا التي ماطل الملك هيثوم في تسليمها في ذلك الحين، على مناطق لها أهمّيتها العسكرية، وهذا بسبب تحكمها في الطريق بين الجزيرة الفراتية حيث المغـــول، ومملكـــة أرمينيـــة الـــصغرى حليفـــة المغول[10].

ثمّ توجه السلطان بيبرس في يوم الخميس 20 رمضان/3 جوان إلى صفد، فأقام بها يومين ثمّ شنّ غارة على صور، فغنم منها الكثير[11]. ثمّ رحل إلى دمشق التي وصلها في

---

(1) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 37.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 54.

(3) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 41.

(4) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 569.

(5) بهسنا: قلعة حصينة بالقرب من مرعش وسُميساط. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 516.

(6) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسُيمساط. ينظر: نفسه، مج3، ص 51.

(7) شيح الحديد: من قرى حلب. ينظر: نفسه، مج3، ص 379.

(8) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 54.

(9) مرعش: مدينة في الثغور بين بلاد الشّام وبلاد الرّوم. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 107.

(10) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 54.

(11) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 131.

27 رمضان/10 جوان، فكان يوماً مشهوداً[1]، حيث دخل السلطان دمشق في أبّهة عظيمة، وقد زُيّنت له المدينة[2] فرحاً بنصرة الإسلام على الكفرة الطغاة[3].

[1] شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 38.

[2] محمود شلبي، المرجع السابق، ص 254.

[3] ابن كثير، ج17، المصدر السابق، ص 477.

2) مهادنة الصليبيين للسلطـــان ودوره في التصدي لحملتي ملكي أراغون وفرنـــسا (667ـ669هـ/1269ـ1270م):

❖ أوضاع الصليبيين في عكا وتطور علاقة السلطان الظاهر بيبرس بهم:

توفي الملك هيو الثاني ملك قبرص والوصي على عرش عكا في ربيع الأول ســنة 665هـ/ديسمبر 1267م[1]، وكان حينها لم يتجاوز من العمر أربعة عشر عاماً، فخلفه على العرش الوصي هيو لوزجنان أو لوسينان[2] الذي تلقب باسم هيو الثالث، ولم يلبــث هــذا الأخير أن تُوج ملكاً على قبرص في السنة ذاتها[3].

وحدث في السنة التالية أن أعدم الملك كنرادين هوهنتشاوفن في نابلي في 20 صفر سنة 667هـ/29 أكتوبر 1268م[4] بناءً على أوامر من شارل أنجو ملك صقلية، وهذا بعد أن حاول أن يسترد منه اِرثه في إيطاليا، وكان كنرادين الملك الأصلي لمملكة بيت المقدس والتي لم يبق منها سوى مدينة عكا. وبمقتله زال الفرع الأكبر للأسرة الحاكمة في عكــا، ولمّا كانت الأسرة الحاكمة في قبرص هي التي تلي أحقية ولايــة عــرش مملكــة بيــت المقدس، فقد تُوّج هيو الثالث ملكاً عليها، إضافة إلى مُلكه في قبرص، وكان ذلــك ســنة 667هـ/1269م[5]. فصار لزاما عليه أن يمضي إلى صور كي يُتوّج في كاتدرائيتها التي صارت منذ تحرير بيت المقدس من قبل السلطان صلاح الدين الأيّوبي، الموضع التقليدي الذي يُتوّج فيه ملوك بيت المقدس[6].

على أنّ الملك هيو الثالث الذي وصل إلى مدينة عكا بعد تتويجه في صور، آثر أن يتودّد إلى السلطان الظاهر بيبرس أملاً في عقد هدنة معه، وكان الملك هيــو يأمــل فــي الحصول منه على بعض التنازلات[7]، وبعد أن توسّــط لــه أميــر صــور فيليــب دي

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 561.

(2) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 381.

(3) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 55.

(4) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 562.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 55.

(6) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 564.

(7) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 380.

مونتفورت، أرسل وفداً إلى السلطان بيبرس عقب عودته من مدينة أنطاكية، وحصل الاتفاق بين السلطان والملك هيو الثالث على أن تكون مدينة عكا وبلادها، وهي إحدى وثلاثون ضيعة، وكذا حيفا ولها ثلاث ضياع للصليبيين، وبقية بلاد حيفا مناصفة، وأمّا بلاد الكرمل[1] فتكون مناصفة، وعثليث يكون للصليبيين خمس قرى، والباقي مناصفة. والقرين عشر قرى وبلاد صيدا وتكون للصليبيين، والجبليات للسلطان بيبرس[2]، وأن تكون الهدنة لعشر سنين، كما اشترط عليه السلطان إطلاق سراح أسرى هذه المناطق[3].

وأرسل السلطان الظاهر بيبرس في 20 شوال سنة 667هـ/22 جوان 1269م الأمير كمال الدين بن شيت والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر لاستحلاف الملك هيو الثالث على ذلك، وكان قد وصّاهما السلطان بيبرس بألاّ يتواضعا له في جلوس ولا مخاطبة[4]. وقد سيّر السلطان معهما هدية، وهي عشرون أسيرا من أسرى أنطاكية من القسّيسين والرّهبان، غير أنّ هذا الملك لم يحلف على الهدنة، وحاول أن يهدّد رسل السلطان بيبرس بأن استعرض قوّاته في تعبئتهم للقتال، غير أنّ القاضي محيي الدين ردّ عليه بقوله: << إنّ كلّ هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع الأسرى المسيحيين في القاهرة >>[5]، وكان من أسباب عدم حلف الملك هيو على الهدنة أنّه:

- أراد استغلال الوقت في تقوية الجهة الداخلية للصليبيين في بلاد الشّام، فمثلاً: أنّه استمال فيليب دي مونتفورت أمير صور عن طريق الزّواج الدبلوماسي، إذ زوّج أخته من حنا دي مونتفورت ابن الأمير فيليب ليقوّي جبهته ضد دولة السلطان الظاهر بيبرس، وجعل بذلك من عكا وصور قوّة واحدة في وجه السلطان بيبرس[6].

---

(1) الكرمل: حصن بالجبل المشرف على حيفا بساحل الشّام. ينظر: محمود شلبي، المرجع السابق، ص 256.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 38.

(3) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 56.

(4) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 192.

(5) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 561.

(6) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 159.

- أبدى تخوفه من شارل أنجو ملك صقلية، والذي كان يتطلع لحكم مدينة عكا بوصفه وريثاً للإمبراطور فردريك الثاني[1] (608ــ648هـ/1212ــ1250م)[2]، الذي كان قد تسلّم بيت المقدس من السلطان الأيّوبي الكامل إثر اتفاقية يافا في 22 ربيع الأول سنة 626هـ/18 فيفري 1229م كما ذكرنا سابقاً[3].

أمّا الملك شارل أنجو فقد أرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس كتاباً يوصيه فيه بالصليبيين المتواجدين في المنطقة السّاحلية وبأن لا يلحق بهم الأذى. فكتب السلطان إليه بقبول شفاعته فيهم، وهذا نظراً للعلاقة الطيبة التي كانت تجمع بينهما[4].

على أنّ السلطان بيبرس ما لبث أن عاد إلى شنّ هجماته العسكرية ضد أعدائه سنة 667هـ/1269م، وذلك أنّ الصليبيين في عكا قد أقدموا على تنصير أربعة من مماليكه كانوا قد هربوا إليهم، وعندما طالب السلطان بيبرس بردّهم إليه رفض الصليبيون بعكا إعادتهم إلاّ بفدية، فاغتاظ السلطان من ذلك، غير أنّهم ما لبثوا أن أرسلوا إليه المماليك[5].

كما أنّ السلطان بيبرس لمّا خرج من دمشق بعساكره مُتوجّهاً إلى الدّيار المصرية، جاءته امرأة في أثناء الطريق، فذكرت أنّ ابنها دخل إلى صور وأنّ أميرها فيليب دي مونتفورت غدر به وقتله وأخذ ماله، فركب السلطان بيبرس وشنّ الغارة على مدينة صور، فغنم منها وقتل الكثير[6].

وفي رواية أخرى أنّه بلغ السلطان الظاهر بيبرس أنّ صليبيي مدينة صور يعتدون على التّجار المسلمين[7]، كما أنّ أميرها قام بتنصير مملوكٍ له كان قد هرب إليه، إضافة إلى تنصير فتاة مسلمة كانت أسيرة لديه، وعندما طالبه السلطان بيبرس بردّهما رفض ذلك[8].

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 56.

(2) جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 31.

(3) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 241.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 56.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 109.

(6) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 282.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 109.

(8) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 56.

وكان أن حضر آنذاك رسل من مدينتي عكا وصور يطلبون استمرار الهدنة، فأمر السلطان بيبرس بتقييدهم، وكتب من فوره إلى نوّابه بفسخ الهدنة مع الصليبيين في عكا وصور، وبناءً على أوامره، شنّ الأمير جمال الدين آقوش الشّمسي على رأس قوّة عسكرية هجوماً على بعض معاقلهم[1].

كما شن السلطان نفسه هجوماً على رأس قوّة عسكرية أخرى على المناطق المحيطة بمدينة صور، وأعطى أوامره إلى طائفة من جنده بنهب المزارع المحيطة بصور وقطع الميرة عنها للتضييق عليها.

وفي سنة 668هـ/1269م بلغ السلطان وهو في الإسكندرية بأنّ المغول قد تحالفوا مع الصليبيين وهاجموا قرية السّاجور[2] قرب مدينة حلب، فعاد السلطان إلى قلعة الجبل بمدينة القاهرة وأمر الجيش بالاستعداد. ثمّ رحل إلى دمشق ليكون قريباً من مناطق المعارك، وهناك وصلته الأخبار بانهزام المغول والصليبيين على يد القوّات الإسلامية[3].

❖ مهادنة ملكة بيروت وطرد رسل ملك المغول:

بالرغم من أنّ السلطان كان قد اتخذ ذلك الموقف مع ملك عكا وأمير صور، إلاّ أنّه كان شديد الحرص على عدم معاداة كلّ الصليبيين في آن واحد، فقد استقبل رسل ملكة بيروت إيزابيلا دي إبلين سنة 667هـ/1269م، ومعهم هدية من ضمنها بعض الأسرى المسلمين[4]، وكان أن طالبوا بعقد هدنة معه. فوافق السلطان على ذلك، وعقد هدنة مع ملكة بيروت مدّتها عشر سنين. ومن أهمّ ما ورد فيها: << استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة فلانة ابنة فلان[5] ... مدّة عشر سنين متوالية، أوّلها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية، على بيروت وأعمالها

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 57.

(2) السّاجور: نهر قرب مدينة حلب. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 170.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 110.

(4) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 195.

(5) محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي 489ـ1206هـ/1096ـ1404م (دراسة ونصوص)، ط2، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1982م، ص 276ـ277.

المضاف إليها، ... وإن عُدِم لأحد من الجانبين مال أو أُخذت أخيذة وصحت في الجهة الأخرى، رُدّت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة[1]، وإن خفي أمرها كانت المدّة للكشف أربعين يوماً، ... وإن قتل أحد من الطرفين، خطأ كان أو عمداً، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره: فارس بفارس وبركيل[2] ببركيل ... وفلاّح بفلاّح، وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال رُدّ من الجبهتين هو والمال لا يعتذر بعذر.

وعلى أنّ الملكة فلانة لا تُمكّن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين، لا ينقضها مرور زمان ولا يغيّر شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد من الجانبين. وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مستقره ... >>[3].

وبذلك دلّ السلطان بيبرس على حنكته السياسية وعدم تفضيله السياسة الحربية دائماً، بل جعل السلم جزءاً من الصراع مع الصليبيين، دون أن يكون في ذلك أدنى قدر من التفريط بطبيعة الحال[4].

و خرج السلطان في 12 جمادى الآخرة/16 فيفري، من القاهرة ومعه الأمير عزّ الدين الحلي وأكابر الأمراء في قوّة من العسكر متوجّهاً إلى بلاد الشّام، فلمّا وصل إلى غزّة نزل بمنطقة أرسوس لكثرة مراعيها، حينها قدم رسل ملك المغول أبغا وهم: مُحبّ الدين دولة خان، وسيف الدين سعيد ترجمان، وآخرون[5]، فأحضرهم الأمير ناصر الدين ابن صيرم إلى دمشق وأنزلهم في قلعتها، فوصل الخبر لمسامع السلطان بيبرس الذي

---

[1] محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 278.

[2] بركيل: لفظ من العصر المملوكي، أطلق على كل من يرتاد البحار من التجار والمغامرين. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 74.

[3] محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 279.

[4] محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 340.

[5] جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 130.

خرج من أرسوف وبصحبته الأمراء ورحل إلى دمشق[1]، فأُحضر الرسل بين يديه، وأمرهم بأن يؤدّوا الرسالة، وجاء فيها: << إنّ الملك أبغا[2] لمّا خرج من الشرق تملّك جميع العالم وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل. وأنت لو صعدت إلى السّماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلّصت منّا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً. أنت مملوك وأُبعت في سيواس، فكيف تُشاقق الملوك ملوك الأرض؟ >>[3]. فأجابه السلطان بيبرس: << أعلِموه أنّي وراءه بالمطالبة، ولا أزال حتى أنتزع من يده البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض >>[4][5]، ثمّ جهّز السلطان الرسل للرّحيل[6].

❖ حملة ملك أراغون[7] الصليبية إلى عكا (668هـ/1269م):

بعد مقتل أمير صور فيليب دي مونتفورت يوم الأحد 17 ذي الحجة سنة 667هـ /17 أوت 1269م[8]، على يد اثنين من الباطنية[9] بتدبير من السلطان الظاهر

---

[1] تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 193.

[2] هو أبغا أوآباقا خان بن هولاكو، تولّى العرش بعد وفاة أبيه، واتخذ تبريز عاصمة له، ومن الأحداث الهامة في حياة هذا الملك محاربته للمسلمين في بلاد الشّام، إذ حاول أن يثأر للإهانة التي لحقت بالجيوش المغولية في موقعة عين جالوت، فأعدّ جيشاً كبيراً التحم به في عدّة معارك مع جيوش السلطان الظاهر بيبرس، ولكنّها أسفرت جميعها عن انحدار جيوش المغول، وكان من أبرز تلك المواقع وقعة أبلستين (شرقي قيسارية) سنة 675هـ/1276م، إذ فُقد من المغول في تلك المعركة ما يقرب من سبعة آلاف نفس. وقد عمّر أبغا نحو خمسين سنة، وحكم ما بين سنتي 663ـ680هـ/1265ـ1281م. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 130.

[3] تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 193.

[4] محمود شلبي، المرجع السابق، ص 275ـ276.

[5] وفي رواية أخرى: << إنّي في طلب جميع ما استوليتم عليه من العراق والجزيرة والرّوم >>. ينظر: شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 43.

[6] نفسه، ص 43.

[7] أراغون: أو أراجون، وهو إقليم في شمال شرق إسبانيا، ومن القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كانت مملكة تضم في أوقات مختلفة بعض المناطق مثل: سردينيا وصقلية، ومناطق أخرى من البحر المتوسط. ينظر: ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية،ج3، ص 384.

[8] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 570.

[9] الباطنية: هي فرقة شيعية، يقال أنّ ظهورها كان زمن الخليفة المأمون، ومؤسّسيها هما ميمون بن ديصان، ومحمد بن الحسين. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 67.

بيبرس[1]. خسر الصليبيون خسارة كبرى في بلاد الشّام بفقدانهم لهذا الرجل القويّ، والذي كان الصليبيون يعتمدون عليه في وقت الشدّة[2]، ولهذا نشط ملك قبرص وعكا هيو الثالث في الاتجاهين الصليبي والمغولي، حيث قام بتشجيع المغول على القيام بغزو بلاد الشّام ومصر ومحاربة دولة المماليك بقيادة السلطان الظاهر بيبرس. كما فكر في مجيء حملة صليبية جديدة من أوربا إلى الشرق، فأفلحت جهوده في وصول حملة صليبية إلى عكا في أواخر ربيع الآخر سنة 668هـ/ديسمبر 1269م[3].

وقد تسابق الأوربيون من جديد جرّاء الهزائم المتلاحقة التي مني بها الصليبيون في بلاد الشّام، للمجيء إلى الشرق للمساهمة في مساعدة الصليبيين هناك[4]. ففي الثاني من محرم سنة 668هـ/أوّل سبتمبر1269م[5] خرج ملك أراغون جيمس الأول من برشلونة[6] على رأس أسطول قوّي متوجهاً إلى الشرق، أملاً في إنقاذ ما تبقى من معاقل الصليبيين[7].

وكان في الوقت ذاته قد أنفذ البابا كليمنت الرابع (663ـ687هـ/1265ـ 1288م)[8] جيمس ألاريك بربيجنان في سفارة إلى أبغا بن هولاكو زعيم المغول، ليعلمه عن قرب قدوم هذه الحملة من جهة سيس عاصمة مملكة أرمينية، في سفن كثيرة، لشنّ هجوم على معاقل المسلمين في بلاد الشّام، وأنّه يقترح عليه التحالف معه لتحقيق هذا

---

(1) وفي رواية أخرى، أنّ السلطان الظاهر بيبرس قد أرسل رجلاً من الباطنية، وقد زعم هذا الأخير أنّه نصراني، فدخل الكنيسة، حيث كان الأمير فيليب دي مونتفورت يؤدّي صلاته مع ابنه يوحنا، فانقضّ عليه فجأةً، وتعرّض الأمير فيليب لجراح قاتلة قبل أن تصل إليه النّجدة، على أنّ هذا الأخير بقي على قيد الحياة حتى علم أنّه تمّ إلقاء القبض على القاتل، وأنّ ابنه نجا من القتل. ينظر: ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 570.

(2) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 159.

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 567.

(4) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(5) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 567.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 58.

(8) سامية عامر، الصليبيون في فلسطين (بلاد الشّام)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 2002م، ص 131.

الهدف، غير أنّ الملك أبغا لم يمنحه إلاّ وعوداً شفهية، وهذا نظراً لانصرافه التام إلى قتال القبيلة الذهبية[1].

وفي طريق الملك جيمس الأول جرت الرّياح بما لا تشتهي السفن، فقد صادفت هذا الملك عاصفة بحرية اضطرته للعودة إلى بلاده على رأس الشطر الأكبر من أسطوله[2]، ولم يواصل الحملة إلاّ أسطول صغير بقيادة ولديه غير الشرعيين: فرناندو سانكيز (وفي رواية أخرى سايكز[3]، وكذا سانشيز[4]) وبدرو فرناندیز، هذان الأخيران بلغا مدينة عكا في نهاية شهر ربيع الآخر/ديسمبر من نفس السنة متشوّقين لقتال المسلمين، حيث أرادا شنّ غارة على معاقل المسلمين مباشرةً فور وصولهما، غير أنّ فرسان المدينة أثنوهما عن عزمهما خشية أن يقعا في كمائن السلطان بيبرس، خاصة وأنّهما يجهلان المنطقة[5]. يضاف إلى ذلك تناقص عدد فرسان المدينة[6] نتيجة الحروب والهجمات التي كان يشنّها السلطان الظاهر بيبرس على المدينة، وبالتالي لم يكن بإمكانهم تقديم المساعدة لهما[7].

هذا ومع العلم أنّ السلطان بيبرس كان قد هاجم مدينة عكا في 21 ربيع الآخر/18 ديسمبر بجزء من جيشه بلغ ثلاثة آلاف مقاتل.

وبهذه الحملة الصليبية التي أتت إلى مدينة عكا، توهّم الصليبيون بها أنّهم قادرون على مواجهة القوّات الإسلامية بقيادة السلطان الظاهر بيبرس وأمرائه خارج أسوار المدينة[8].

لقد خيّم الصليبيون بضواحي مدينة عكا، وقادهم الغرور في يوم الثلاثاء 21 ربيع الآخر/18 ديسمبر [9] إلى شنّ غارة على نواحي منطقة الجليل من طرف الفرقة العسكرية

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 568.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 58.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(4) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 384.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(6) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 567.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(8) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 58.

(9) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 142.

الفرنسية الموجودة بعكا، والتي تولّى قيادتها بعد وفاة قائدها جفري سارجينس[1] في تلك الفترة أولفربترميس (وفي رواية أخرى أوليفر تيرميس)[2]، وهو ابن أخت زيتون مقدم الصليبيين في عكا، وكذا روبرت كريسبيك، واللّذين لم يكونا يعلمان أنّ السلطان الظاهر كان يرصد تحركاتهما، وأثناء عودتهما للمدينة، فضّل أولفربترميس التسلّل بين الحقول والحدائق حتى لا يلحظهم أحد[3]. بينما أصرّ روبرت كريسبيك على قتال المسلمين[4] ممّا أوقعه وجنوده في كمين السلطان بيبرس، والذي كان برفقته الأميران سيف الدين بلبان الفائزي وشمس الدين سنقر المعزّي[5]، فقتلت القوّات الإسلامية وأسرت أغلبهم، حيث لم ينج منهم سوى عدد قليل[6]، وكان من بين الأسرى الصليبيين القائد أولفربترميس، والذي أسر مع جماعة من فرسانه، وقد أرسلهم السلطان بيبرس بعد ذلك إلى دمشق.

وقد حاول بعض الفرسان الصليبيين في هذه المعركة قتل السلطان بيبرس، فأراد أحدهم طعنه، غير أنّ الأمير سيف الدين بلبان الفائزي تفطّن لذلك وقتله. هذا مع الإشارة إلى استشهاد الأمير شمس الدين سنقر المعزّي في هذه المعركة[7].

وفي هذه الأثناء أراد الجنود الصليبيون داخل عكا الذهاب لإنقاذ ما تبقى منهم، غير أنّ ولدي ملك أراغون سانكيز وبدرو عرفا أنّ قوّاتهما لا تكفي لذلك، لذا منعاهم من الخروج[8].

وبهذا الفشل الذريع لهذه الحملة الصليبية التي لم تترك أثراً نظراً لصغرها[9]، أبحر ولدا ملك أراغون جيمس الأول سانكيز وبدرو عائدين إلى بلادهما[10].

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 567.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 567.

(4) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 143.

(6) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 384.

(7) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 143.

(8) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(9) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 160.

(10) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 58.

❖ حملة ملك فرنسا لويس التاسع الصليبية إلى تونس (669هـ/1270م):

بعد تحرير أنطاكية من الصليبيين، غادر بلاد الشّام رئيس أساقفة صور ورئيس الفرسان الإسبتاريين إلى أوربا، مستنجدين بالبابا كلمنت الرابع للمحافظة على ما تبقى بأيديهم من مدن وقلاع في الشرق الإسلامي، فلبّى دعوتهم الملك الفرنسي لويس التاسع الذي أصبح يطلق عليه اسم الملك القدّيس[1]، ويبدو أنّ هذا الملك أضحى محترفاً للعمليات العسكرية وقيادة الحملات إلى الشرق، بالرغم من الفشل الذي أصابه في حملته السابقة[2].

وبعد عودته إلى أوربا بعد تلك الحملة، بقي الحقد دفيناً في نفس هذا الملك على المسلمين، لما أصابه من الذلّ والمهانة على أيديهم، فأضمر على العودة إلى الشرق للانتقام والثأر.

فلم تكن سنة 666هـ/1268م قد انتهت حتى سرت شائعات بعودة الملك لويس قريباً إلى الشرق على رأس حملة صليبية جديدة[3]، وقد استنفر ملوك أوربا لهذا الغرض، فلبّى دعوته ملوك أنكلترا وأراغون[4] وقشتالة[5] والبرتغال وغيرهم[6]، وأطلق البابا كلمنت الرابع يده في أموال الكنائس لتجهيز الحملة[7].

وبعد أن جهّز الملك لويس الحملة كان يريد التوجه إلى المشرق[8] عن طريق سفن البندقية، لكن هذه الأخيرة رفضت أن تنقل جيوش هذه الحملة إلى مصر أو بلاد الشّام، حرصاً على اتفاقياتها التجارية وعلاقاتها الودية مع دولة المماليك البحرية، فاستعان الملك

---

(1) أحمد حسين، المرجع السابق، ص 693.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 113.

(3) أمين معلوف، المرجع السابق، ص 312.

(4) لقد تراجع ملك أراغون عن المشاركة في هذه الحملة، والسبب في ذلك على ما يبدو هو تغيير وجهتها نحو تونس، لأنّه كانت تربطه بالأمير الحفصي، المستنصر بالله، علاقات ودّية من ناحية، كما كانت له هو الآخر مطامع في تونس خاصة به، ولذلك لم يرغب في أن يكون له شريك فيها. ينظر: ممدوح حسين علي حسين، الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري سنة 668ـ792هـ/1270ـ1390م، تق: شاكر مصطفى، ط1، دار عمار للنشر، عمان، الأردن، 1998م، ص 249ـ250.

(5) قشتالة: إقليم كبير بالأندلس. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 352.

(6) ممدوح حسين علي حسين، المرجع السابق، ص 249.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 113.

(8) محمود نديم أحمد فهيم، المرجع السابق، ص 188.

لويس بسفن جمهورية جنوا التي بدأت تنافس البندقية في تلك الأثناء. وعندما وصلت الحملة إلى جزيرة صقلية، استطاع ملكها شارل دانجو شقيق الملك لويس، أن يقنع هذا الأخير بأن يتجه بالحملة صوب تونس للاستيلاء عليها أوّلاً بدل مصر أو بيت المقدس، مصوراً له أنّ الاستيلاء عليها هو خير طريق للاستيلاء على مصر عن طريق شمال إفريقيا[1].

مع أنّ بعض المراجع الأخرى[2] رأت أنّ سبب تغيير وجهة الحملة هو أنّ الملك شارل رأى أن يُسخِّر الحملة لتدعيم مُلكه وتحقيق أطماعه الشخصية، وهذا نظراً للموقع الإستراتيجي لتونس بالنسبة لصقلية[3]، والتي كان يحكمها في تلك الأثناء الحفصيون[4].

كما كانت تونس عبر التاريخ تشكل خطراً على جزيرة صقلية، إذ كانت الحملات تنطلق منها لغزوها منذ أيّام الفينيقيين وحتى الفتح العربي[5]، كما استغل شارل المجاعة التي حلت في تونس في تلك السنة للسيطرة عليها[6].

وفيما يخص السلطان الظاهر بيبرس فقد كان يتابع أخبار هذه الحملة[7]، وكثيراً ما استعلم التجار والمسافرين عن موعدها، وقد توالت الأنباء إليه وهو ببلاد الشّام[8] خلال صيف سنة 669هـ/1270م تفيد بأنّ الملك لويس قد أبحر بصحبة جيش تعداده ستة آلاف

---

(1) أحمد حسين، المرجع السابق، ص 693.

(2) وفي رواية أخرى أنّه كان من بين أسباب تغيّر اتجاه الحملة، هو استجابة الملك الفرنسي لويس التاسع لطلب بعض التجار الفرنسيين الذين ادّعوا أنّ لهم في ذمّة أحمد اللياني وزير أمور البحر في دولة المستنصر بالله الحفصي، مبلغ ثلاثمائة ألف دينار كان قد اقترضها منهم ولم يعدها، فسيّر بالتالي الملك لويس حملته إلى تونس، وإن كان هذا السبب مستبعداً لأنّه ليس من المعقول أن توجّه حملة ضخمة كلفت نفقات باهضة لمثل هذا السبب. ينظر: ممدوح حسين علي حسين، المرجع السابق، ص 260ـ261.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 227.

(4) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 113.

(5) مثلا: غزا المسلمون صقلية عن طريق إفريقية (تونس) في عهد الأغالبة بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات سنة 212هـ/827. ينظر: محمود نديم أحمد فهيم، المرجع السابق، ص 188.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 113.

(7) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 160.

(8) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 72.

فارس وثلاثين ألف من المشاة (وفي رواية أخرى ستون ألف مقاتل)[1]، لذا أسرع إلى القاهرة وشرع من فوره في الاستعداد لمواجهتها، حيث بدأ في تحصين الموانئ المصرية المطلّة على البحر المتوسط وشحنها بالرجال والسلاح ليحول دون أي نزول محتمل للصليبيين فيها، كما حدث بالنسبة للحملة الصليبية السابقة. كما أنّه اهتم بتدعيم الأسطول وحشد الجيوش وتنظيمها وتوزيعها على الثغور المصرية والشّامية[2].

ولم يكتف السلطان بيبرس بذلك، بل أرسل سفارة إلى الملك لويس التاسع يتهدّده ليتراجع عمّا اعتزم عليه، غير أنّ ذلك لم يزده إلاّ استكباراً.

وبعد تغيير وجهة الحملة علم السلطان بيبرس بذلك، وعندما وصلت هذه الأخيرة إلى شاطئ قرطاجة بتونس، وبلا تردّد جمع السلطان أمراء المماليك وأخبرهم بنيّته في الذهاب على رأس جيش قوي إلى تونس لمساعدة المسلمين على صدّ هذه الحملة الصليبية الجديدة[3]. كما يذكر المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك في هذا الصدد بقوله: << فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه نجدة له على الفرنج، وكتب إلى عربان برقة وبلاد المغرب بالمسير إلى نجدته، وأمرهم بحفر الآبار في الطرقات ... وشرع في تجريد العساكر، ... >>[4].

استعدّ أمير تونس أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن يحيى بن عبد الوهاب الحفصي(647ـ675هـ/1249ـ1277م)[5] لهذه الحملة، وأرسل في الوقت نفسه الرسل إلى الملك لويس التاسع يحملون إليه هدية مقدارها ثمانون ألف دينار ذهبي[6] بغرض مفاوضته وإثنائه عن عزمه، غير أنّ الملك لويس صادرها منهم ولم يستجب لطلباتهم[7].

---

(1) أحمد حسين، المرجع السابق، ص 693.

(2) ممدوح حسين علي حسين، المرجع السابق، ص 254ـ256.

(3) أمين معلوف، المرجع السابق، ص 312.

(4) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 199.

(5) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 315.

(6) ممدوح حسين علي حسين، المرجع السابق، ص 258.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 113.

ولمّا وصل هذا الأخير إلى قرطاجة في 30 ذي القعدة سنة 668هـ/21 جويلية 1270م[1]، نشب القتال مباشرة بين الطرفين، وكانت الحرب سجالاً[2]، واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي الملك لويس التاسع بالحمّى في 10 محرم سنة 669هـ/30 أوت 1270م[3] على إثر انتشار الطاعون بين أفراد جيشه[4]، عندها أكمل قيادة الحملة أخوه الملك شارل، والذي أخذ يُسيِّرها وفق أغراضه عن طريق النّهب والسّلب حتى أزال عنها صفتها[5]، وقد انتهت بإجراء مفاوضات بينه وبين الأمير المستنصر بالله الحفصي في ربيع الأول/أكتوبر من نفس السنة[6]، نصت على:

- انسحاب الملك شارل من تونس مقابل:
- أن يدفع الأمير المستنصر مبلغاً من المال إلى الملك شارل تعويضاً له عمّا أنفق في هذه الحملة[7]، وكان مقداره مائتين وعشرين ألف أوقية من الذهب[8].
- أن يحصل الفرنسيون على بعض الامتيازات في تونس[9]، مثل: حق الرّهبان والقسّيسين في إقامة الكنائس على أرضها.
- إطلاق سراح الأسرى من الجانبين.
- عدم إيواء خصوم كل طرف.
- توفير الأمن للمسافرين والتجار من الجانبين[10].

---

(1) وفي رواية أخرى أنّ الملك الفرنسي لويس التاسع وصل إلى قرطاجة في 27 ذي القعدة سنة 668هـ/18 جويلية 1270م. ينظر: محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 316.

(2) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 342.

(3) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر، 1987م، ص 271.

(4) أحمد حسين، المرجع السابق، ص 693.

(5) محمود نديم أحمد فهيم، المرجع السابق، ص 188.

(6) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 343.

(7) أحمد حسين، المرجع السابق، ص 693.

(8) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 319.

(9) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص 72.

(10) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 319.

انسحبت هذه الحملة دون تحقيق أهدافها، وفي أثناء مسير الملك شارل وقوّاته إلى أوربا، فاجأتهم عواصف شديدة أغرقت أغلب مراكبهم[1].

وقد تغنّى الشعراء بهذا النّصر، فنظّم الشاعر التونسي أحمد بن إسماعيل الزيات قصيدة، وممّا جاء فيها:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير

لك في دار ابن لقمان قبراً وطواشيك منكر ونكير[2]

وصلت بشائر النّصر إلى السلطان الظاهر بيبرس عن طريق رسالة موقعة من أمير تونس المستنصر بالله[3]، يُبلغه فيها بوفاة ملك فرنسا لويس التاسع، وبانتصاره على الصليبيين بعد أن فتك بقسم كبير من جيشهم، فكتب السلطان بيبرس إلى الأقطار الإسلامية الأخرى يزفّ لهم هذه البشرى[4].

والجدير بالذكر أن نلاحظ مدى اهتمام السلطان بالجهاد ودفاعه عن بلاد الإسلام والمسلمين أينما كانوا، فهو لا يهمل هذا الأمر[5].

---

[1] سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 343.

[2] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 160.

[3] أمين معلوف، المرجع السابق، ص 312.

[4] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 113.

[5] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 160.

الفصل الرابع:

استئناف السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته وتصديه لحملة الأمير إدوارد ثمّ وفاته (669ــ676هـ/ 1271ــ1277م)

1) استئناف الفتوحات (669هـ/1271م)

2) حملة الأمير إدوارد ووفاة السلطان الظاهر بيبرس (669ــ676هـ/1271ــ1277م)

الفصل الرابع: استئناف السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته وتصديه لحملة الأمير إدوارد ثمّ وفاته (669ـ676هـ/1271ـ1277م)

1) استئناف الفتوحات (669هـ/1271م):

بعد أن تمكّن السلطان الظاهر بيبرس من التصدّي لحملة ولدي ملك أراغون بدرو وسانكيز، والتي لم تترك أثراً نظراً لصغرها، وكذا بعد أن أبدى مساعيه لمساعدة الأمير المستنصر بالله الحفصي للتصدّي لحملة الملك لويس التاسع، والتي كان مآلها الفشل، فإنّه استأنف فتوحاته لمعاقل وحصون الصليبيين في بلاد الشّام الواحدة تلو الأخرى، مواصلاً بذلك مسيرته النّاجحة والتي كان قد بدأها من قبل في حروبه ضدّ الصليبيين في بلاد الشّام.

❖ فتح قلعة صافيتا:

بفشل حملة الملك لويس التاسع، عاد السلطان الظاهر في 10 جمادى الآخرة سنة 669هـ/24 جانفي 1271م[1]، على رأس جيشه إلى بلاد الشّام لمواصلة مسيرة جهاده ضد الصليبيين[2]، وقد كان برفقته كلٌّ من ابنه الملك السّعيد، ونائبه الأمير بدر الدين الخازندار[3]، إضافة إلى الأمير سيف الدين قلاوون الألفي[4]. وقد استناب السلطان بيبرس بمصر الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانيّ، والوزير تاج الدين بن حِنّا[5].

بدأ السلطان بيبرس بمهاجمة المناطق المحيطة بمدينة طرابلس، ثمّ الإغارة على قلعة جَبَلة[6] ومدينة اللاذقية[7] وقلعة مرقية[8][9]، ومن ثمّ حرّر قلعة صافيتا التي كان يمتلكها

---

(1) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 160.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 59.

(3) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 151.

(4) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 301.

(5) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 135.

(6) جَبَلة: قلعة بساحل بلاد الشّام قرب مدينة اللاذقية، وهي من أعمال مدينة حلب. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 105.

(7) اللاذقية: مدينة في ساحل بلاد الشّام تعدّ من أعمال مدينة حلب. ينظر: نفسه، مج5، ص5.

(8) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 53.

(9) مرقية: قلعة حصينة في سواحل مدينة حمص. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 109.

الدّاوية[1] بالأمان في رجب/مارس، وسمح لمن كان بها من الدّاوية وعددهم سبعمائة رجل عدا النّساء والأطفال بالخروج من الحصن، وقد توجّهوا جميعاً إلى أنطرسوس.

كما استولى السلطان بيبرس على الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد بالأمان أيضاً، كحصن المجدل وتل خليفة وغيره من الحصون الأخرى المنتشرة هناك[2].

❖ فتح حصن الأكراد:

توجّه السلطان الظاهر بيبرس بعد ذلك بقوّاته إلى حصن الأكراد، والذي كان قد أخضعه فرسان الإسبتارية لسيطرتهم، كما عدّ من أهمّ قلاعهم في بلاد الشّام[3]، فنازله في 19 رجب/3 مارس[4]، واستولى بعد يومين على أحد أسواره[5].

وكان أهل عكا لمّا نزل السلطان بيبرس على حصن الأكراد، قد أرسلوا إلى ملك قبرص وعكا هيو الثالث يطلبون منه المساعدة، فأرسل إليهم عدّة سفن حربية، غير أنّ البحر هاج عليها فكُسر منها ستين مركباً، ولمّا وصل عكا من تبقى منهم حفر أهلها خندقاً حول المدينة خوفاً من قدوم السلطان بيبرس إليهم[6].

وفي اليوم التالي، انضم إلى السلطان بيبرس كلٌّ من المنصور ملك حماه بجيشه[7]، وقائد فرقة الإسماعيلية نجم الدين مع فرسانه.[8]وبتكامل نصب المجانيق حوله، شرع السلطان بمهاجمة ما تبقى من أسوار الحصن الذي امتلك حامية قُدّرت بخمسة آلاف مقاتل[9].

---

(1) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 127.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 59.

(3) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 340.

(4) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 53.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 152.

(6) نفسه، ص 161.

(7) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 571.

(8) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 115.

(9) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 341.

وقد تمكن السلطان بيبرس من فتح السور الثاني يوم السبت 7 شعبان/21 مارس[1]، ثمّ فتح الثالث في 15 شعبان/29 مارس[2]، فخرج الصليبيون إلى التلّة المقابلة لـــه، فقـــام السلطان بيبرس بحيلة لإجبارهم على الاستسلام، إذ كتب كتاباً على لسان أمير طـــرابلس بوهمند السادس إلى الصليبيين بالتلّة يأمرهم بالاستسلام، وقد نجحت هذه الحيلـــة، حيـــث طلبوا الأمان من السلطان بيبرس، فأمّنهم وسمح لهم بالخروج، فتوجّهوا إلى طرابلس، ثمّ تسلّم السلطان الحصن بعد عشرة أيّام من فتحه[3]، أي يوم الأربعاء 25 شعبان/8 أفريل[4]، ومن ثمَّ كُتبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار الإسلامية الأخرى[5].

وقد حرر القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً إلى حاكم حصن الأكراد، وهـــو مقدم الإسبتارية،[6] جاء فيه: << بسم الله الرّحمن الرّحيم، نُعلم المقدم أفري أوك، ... بما سهّل الله من فتوح حصن الأكراد، الذي حصّنته وبنيته ...، وكنت الموقّـــق لـــو خلّيتـــه، واتّكلت على إخوتك في حفظه فما نفعوك، ... ولا شكّ أنّهم أبذلوا جهد الاستطاعة، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة، ... وعلى كلّ حال، نحن نبشّر المقدم بسلامة نفسه ...، وإن كان في الظاهر الخسارة، ... >>[7].

وقد أمر السلطان بيبرس بعد ذلك بعمارة هذا الحصن، وأسند ذلك للأمير عزّ الدين أيبك الأفرم[8]، وحوّل كنيسته إلى جامع[9]، وأقام فيه الجمعة، كما ولّى فيه الأمير عزّ الدين الموصلي نائباً[10]، وأقام فيها قاضياً[11].

---

(1) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 136.

(2) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 53.

(3) ابن كثير، ج17، المصدر السابق، ص 493.

(4) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 53.

(5) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 161.

(6) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 152.

(7) نفسه، ص 153.

(8) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 136.

(9) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 115.

(10) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 152.

(11) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 59.

هذا مع الإشارة إلى استشهاد الأمير ركن الدين منكورس في أثناء فتح هذا الحصن، إذ سقط عليه حجر منجنيق حينما كان يصلّي[1].

وقد جاء فتح هذا الحصن ليدعم مركز المسلمين في مواجهة الصليبيين، فكان بمثابة ضربة قويّة لنفوذ هيئة الإسبتارية في بلاد الشّام[2]. كما مكّن هذا الفتح السلطان من التحكم في الطرق المؤدية إلى مدينة طرابلس[3]، لذا اتخذه قاعدة لعملياته الحربية ضدّ هذه المدينة[4].

وقد أفزع هذا الفتح كمندور مقدم بيت الدّاوية في حصن أنطرسوس[5]، فأرسل إلى السلطان بيبرس يطلب الهدنة التي تم الاتفاق عليها وفق الشروط التالية:

- استرجاع جميع ما أخذه الدّاوية من معاقل للمسلمين في عهد الملك النّاصر الأيّوبي.
- ترك جميع ما للدّاوية من مناصفات وضرائب على معاقل المسلمين.
- يكون للسلطان بيبرس نصف محاصيل أنطرسوس.
- يُعيّن السلطان بيبرس نائباً عنه في أنطرسوس[6].

وقد شجّع هذا الصلح حاكم حصن المرقب وقلعة اللد[7]، وهو مقدم بيت الإسبتارية، فطلب عقد هدنة مع السلطان لمدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيّام، أوّلها يوم الاثنين مستهل رمضان/13 أفريل[8]، وكانت وفقاً للشروط التالية:

- استرجاع جميع ما أخذه الإسبتارية من معاقل للمسلمين في عهد الملك النّاصر الأيّوبي.
- ترك جميع ما للإسبتارية من مناصفات وضرائب على معاقل المسلمين.

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 116.

(2) محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 341.

(3) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 127.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 60.

(5) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 303.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 60.

(7) قلعة اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 15.

(8) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 136.

- تكون بلاد المرقب وأموالها مناصفة بين السلطان والإسبتارية[1].
- أن يتوقف البناء في حصن المرقب[2].

ويبدو هنا أثر قوّة السلطان الظاهر بيبرس في خضوع الصليبيين له من دون قتال، وذلك أن القوّات الإسلامية بقيادته حقّقت أهدافها في إرهاب العدوّ وتخويفه[3].

❖ فتح حصن عكار[4]:

توجّه السلطان الظاهر بيبرس بعد ذلك بقوّاته العسكرية إلى حصن عكار الذي نازله يوم الأربعاء 17 رمضان/29 أفريل[5]، وكان هذا الحصن يمتاز بموقعه الحصين في جبال يصعب الوصول إليها، وقد قام أمير طرابلس بوهمند السادس حديثاً بعمارته مما دفع السلطان بيبرس إلى الإغارة على هذا الحصن والاستيلاء عليه، لأنّ السلطان في مهادنته لأمير طرابلس اشترط عليه عدم تجديد عمارة بعض الحصون، وكان من بينها هذا الحصن، فلمّا خالف هذا الأمير الشرط فسخ السلطان الصلح معه[6].

وقد حاصر السلطان الحصن ونصب عليه المجانيق يوم الاثنين 22 رمضان/4 ماي[7]، وبعد قتال شديد وحصار دام حوالي أسبوعين[8] طلب صليبيو الإسبتارية الذين كانوا فيه الأمان في 29 رمضان/11 ماي، على أن يمكّنهم السلطان من التوجه سالمين إلى مدينة طرابلس، فأجابهم السلطان إلى ذلك، وسمح لهم بالرّحيل. كما أنّه سيّر معهم الأمير بدر الدين بيسرى لحمايتهم[9].ثمّ دخلت القوّات الإسلامية الحصن، وبعد أن صلّى

---

(1) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 200.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 116.

(3) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 162.

(4) حصن عكار: حصن مبني على حبل يسمّى جبل عكار، وهو شمالي طرابلس، ويسمّى هذا الحصن أيضاً باسم حصن ابن عكار. ينظر: نفسه، ص 162.

(5) أبو الفداء، المختصر، ف6، ص 464.

(6) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 162.

(7) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 116.

(8) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 572.

(9) أبوبكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 155.

السلطان بيبرس فيه صلاة العيد، رحل عنه ونزل بحصن صافيتا. وقد كتبت أثناء ذلك البشائر بهذا الفتح والنّصر إلى سائر الأقطار الإسلامية[1].

وقد أنشد القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في هذا الفتح شعراً، جاء فيه:

يا مليك الأرض بُشراك فقد نلت الإرادة

إنّ عكّار يقيناً هي عكّا وزيادة[2]

كما كتب السلطان الظاهر بيبرس إلى أمير طرابلس بوهمند السادس رسالة مُبشّراً إيّاه بهذا الفتح، وتحطيماً لمعنوياته، وتحذيراً له بسبب تحالفه مع أبغا بن هولاكو زعيم المغول. وممّا جاء في هذه الرسالة: << بسم الله الرّحمن الرّحيم، قد علم القُومص بوهمند ــ جعله الله ممّن ينظر لنفسه ويتفكر في عاقبة يومه من أمسه ــ نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار[3]، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها من جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا على جرّها على مناكدة (صعوبة) الأوحال ومكابدة (مشقّة)[4] الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق النّمل عليها إذا مشى[5]، ... وكيف صابرت رجالك الذين ما قصّرت في انتخابهم[6].

... وكتابنا يبشّرك بأنّ عَلَمَنا الأصفر نُصِّب مكان عَلَمك الأحمر، وأنّ صوت النّاقوس عوضه الله أكبر، وأنّ من بقي من رجالك أُطلقوا، ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلِموا ولكن من ندب السيف إلى بكاء النوايح (النوائح)، وما أطلقناهم إلاّ ليُحدّثوا القومص بما جرى، وليحذروا أهل طرابلس لا يغتر بهم حديثك المفترى، ... ولينذروهم لقاء يومهم هذا، ... ويفهموكم أنّكم ما بقي من حياتكم إلاّ القليل[7] ... وأنّهم ما تركونا إلاّ على الرّحيل، ... فنعرّف كنائسك وأسوارك أنّ المنجنيقات تُسلّم عليها إلى حين الاجتماع بها عن قريب، وتعلم أجساد جنودك وفرسانك أنّ السّيوف تقول لها عن الضيافة

---

(1) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 137.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 45.

(3) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 156.

(4) المنجد في اللغة والأعلام، ص 669.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 61.

(6) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 156.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 61.

تحذر أن تغيب، وذلك أنّ أهل عكار ما سدّوا لها جوعاً، ولا قضت من ريّها بدمائهم الوطر (الحاجة)[1]، وأنّهم ما أطلقوا إلاّ لمّا عافت شرب دمائهم، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عسكر.

نُعلم القُومص هذه الجملة المسرودة، وليعمل بها أوّلاً، وإلاّ فيجهّز مراكبه ومراكب أصحابه، فقد جهّزنا قيودهم وقيوده >>[2].

كما أنّ السلطان بيبرس بعث له رسالة على لسان رجل من فرقة الإسبتارية يقول فيها: << أين تروح منّي، والله لا بُدّ أن آخذ قلبك وأشويه، وأنت تنظر، وما ينفعك أبغا بن هلاوون >>[3].

فلمّا بلغت هذه الرسالة مسامع الأمير بوهمند السادس أخذ يخاف على نفسه، فامتنع عن التجوال والصيد خوفاً على نفسه من فرقة الإسماعيلية أن تغتاله بأمر من السلطان بيبرس[4].

ولمّا بلغ ذلك هذا الأخير سيّر إليه غزلان مذبوحة وضبعاً حيّاً، وحمل إليه رسالة يقول فيها: << لمّا اتصل بنا (وصل إلى مسامعنا) امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك، وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرامك، بعثنا إليك نصيباً من الإجحاف بك والميل (العدل)[5] عليك >>[6].

وقد أثبع السلطان الظاهر بيبرس ذلك بالتحرك على رأس جيشه صوب مدينة طرابلس، فنزل عليها في 4 شوال/16 ماي[7]، فما كان من أميرها بوهمند السادس إلاّ أن بعث إليه يقول: << لأيِّ سبب قصدنا السلطان؟ >>. فأجابه السلطان بيبرس: << ... لأخرِّب دياركم، وأعود إنشاء الله في السنة الآتية إليكم لآخذ أرواحكم >>[8]. لذا أرسل

---

(1) المنجد في اللغة والأعلام، ص 906.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 61.

(3) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 157.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 62.

(5) المنجد في اللغة والأعلام، ص 782.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 62.

(7) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 55.

(8) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 158.

إليه الأمير بوهمند يستعطفه ويسأله الصلح، فبعث إليه السلطان بيبرس الأميرين فارس الدين الأتابك وسيف الدين بلبان الدوادار الرّومي لمفاوضته وفقاً للشروط التالية:

- يكون للسلطان بيبرس نصف قرى طرابلس[1].
- تُسلّم للسلطان بيبرس كل من جَبَلة واللاذقية بخراجهما من يوم خروجهما عن الملك النّاصر صلاح الدين إلى هذا اليوم.
- يُدفع للسلطان بيبرس نفقات جيشه من يوم خروجه[2].

وممّا ذُكر في هذا الصدد، أنّه في أثناء المفاوضات التي دارت بين رسل السلطان الظاهر بيبرس والأمير بوهمند السادس، كان السلطان بيبرس نفسه مُندسّاً بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده ومُتنكراً في زيٍّ خادم، وهذا لكي تتاح له حرّية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوّة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد[3].

وفيما يخص الأمير بوهمند فقد صُعق لهذه المطالب، فرفضها وآثر القتال وأخذ يحصن المدينة، فردّ عليه السلطان بيبرس بنصب المجانيق حول أسوارها تمهيداً لاقتحامها، إلاّ أنّه تراجع عن ذلك بسبب الأنباء التي وردت إليه، والتي تفيد بقدوم الأمير إدوارد، ولي عهد أنكلترا، على رأس حملة صليبية إلى عكا في ذلك الوقت، فضلاً عن قدوم ملك قبرص هيو الثالث على رأس قوّة بحرية ونزوله في عكا أيضاً. فقبل السلطان بيبرس بعقد صلح مع الأمير بوهمند بشروط أقل حدّة من الشروط السابقة[4]، وقد نصّ الاتفاق الجديد على ما يلي:

- تكون عرقة وجَبَلة وقراها للأمير بوهمند، مع التأكيد بأنّ عرقة وقراها وهي ست وخمسون قرية صدقة من السلطان بيبرس.
- يكون ساحل أنطرسوس والمرقب وبانياس مع جميع قرى هذه النّواحي مناصفة بين السلطان وفرقتي الدّاوية والإسبتارية[5].

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 116.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 62.

(3) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص 195ــ196.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 62.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 159.

- تؤول بعرين[1] للسلطان بيبرس.
- مدّة الصلح عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيّام، تبدأ يوم الأربعاء 8 شوال/20 ماي من نفس السنة[2].

على أنّ الأمير بوهمند الذي قبل بهذا الصلح مُرغماً، بسبب الزحف المستمر للقوّات الإسلامية على مدينته، استغلّ هذه الهدنة، فتوجّه إلى أبغا بن هولاكو زعيم المغول يُحرّضه على المسلمين، ويذكّره بما فتحه السلطان الظاهر بيبرس من القلاع والحصون، إلاّ أنّ أبغا لم يستجب له، وردّ عليه قائلاً: << أنت ما جئت إلاّ لتخوّفني منه وتنفرني عنه، وتملأ قلوب عسكري رُعباً >>[3].

أمّا السلطان بيبرس فقد توجّه بعد عقد تلك الهدنة إلى قلعة العليقة، فتسلّمها من الإسماعيلية مع البلاد التابعة لها في 11 شوال/23 ماي[4]، ومن ثمّ رحل عنها إلى دمشق التي وصلها يوم الأربعاء 15شوال/27 ماي[5].

❖ محاولة فتح جزيرة قبرص:

على إثر قدوم ملك قبرص هيو الثالث إلى عكا في هذه الأثناء، اغتنم السلطان الظاهر بيبرس هذه الفرصة، ناقماً عليه جهوده في توحيد الصليبيين ببلاد الشّام من ناحية، ولاعتدائه على السفن الإسلامية في شرق المتوسط من ناحية أخرى[6]، فوجّه إلى قبرص[7] أسطولاً مُؤلّفاً من سبع عشرة سفينة، تولّى قيادته جمال الدين مكّي بن حسّون، وبصحبته

---

(1) بعرين: أو بارين، وهي بلدة بين حمص وساحل الشّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 452.

(2) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 117.

(3) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 63.

(4) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 117.

(5) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 138.

(6) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 65.

(7) قبرص: كان أوّل فتح للمسلمين في قبرص سنة 28هـ/649م، على يد عبد الله بن قيس الحارثي بتكليف من الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فانتشر الإسلام في الجزيرة وتعددت بها المساجد والمدارس. وخلال الحروب الصليبية تمكن ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد من الاستيلاء عليها سنة 587هـ/1191م، فاتخذ منها قاعدة لإمداد الصليبيين في بلاد الشّام بالمساعدات الحربية. وبقيت قاعدة صليبية حتى حرّرها السلطان المملوكي برسباي الدقماقي الظّاهري سنة 829هـ/1426م. ينظر: فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 165.

كلٌّ من ناصر الدين عمر بن منصور، رئيس دار الصناعة بالفسطاط، وشهاب الدين إبراهيم بن عبد السلام، رئيس دار الصناعة بالإسكندرية، وشرف الدين علوس بن أبي المحبة بن علوي العسقلاني، رئيس دار الصناعة بدمياط[1].

وقد لجأ القائد ابن حسّون إلى الخديعة، إذ طلى السفن باللّون الأسود ورفع فوقها أعلاماً عليها صلبان كالسفن الصليبية، حتى إذا دخلت هذه السفن موانئ جزيرة قبرص يعتقدونها لهم، فيتم الانقضاض عليهم على حين غرة.

انطلقت السفن على هذه الصورة في شهر شوال/ماي[2]، وعندما اقتربت ليلاً من ميناء ليماسول القبرصي اصطدمت بالصّخور[3]، كما هبّت عليها ريحٌ عاتية أدّت إلى تحطيم إحدى عشرة سفينة من الأسطول[4]، فانكشف أمرهم[5]، وتمّ أسر من كان على متنها من الجنود والملاّحين والقادة المسلمين من طرف القبارصة[6]، وكانوا حوالي ألف وثمانمائة رجل[7]. أمّا بقية سفن الأسطول فقد عادت إلى الموانئ المصرية دون تحقيق هدفها[8].

وقد فرح ملك قبرص هيو الثالث بما حدث للسفن الإسلامية، وأرسل إلى السلطان بيبرس رسولاً يحمل رسالة إليه، وجاء فيها: << إنّ صاحبي يسلّم عليك، وقال لك، قد أخذت مراكبك بمن فيها >>[9]. غير أنّ السلطان بيبرس لم يهتم لذلك، بل قال: << الحمد لله، منذ ملكني الله تعالى الملك ما خُذلت لي رايةٌ، وكنت أخاف من إصابة عين، فبهذا ولا بغيره >>[10].

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 63.

(2) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 200.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 118.

(4) وفي رواية أخرى أنّه تحطّم من الأسطول أربع عشرة سفينة. ينظر: ابن كثير، ج17، المصدر السابق، ص 494.

(5) أحمد عوف، أحوال مصر من عصر لعصر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (ب س)، ص 77.

(6) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 107.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 63ـ64.

(8) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 107.

(9) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 162.

(10) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 200.

ومع ذلك فإنّ السلطان بيبرس تمكن من تهريب قادة حملته من داخل سجن قلعة عكا، حيث كان الملك هيو الثالث قد أمر بسجنهم[1]، وكان ذلك بتدبير من الأمير سيف الدين خطلبا[2].

❖ فتح حصن القرين[3]:

توجّه السلطان بعد أن تسلّم قلعة العليقة إلى دمشق، ومنها رحل يوم الجمعة 24 شوال/5 جوان[4] إلى صفد، حيث حمل منها المجانيق متّجهاً صوب حصن القرين[5]، والذي كان من الحصون المنيعة التي احتفظ بها الفرسان الإسبتارية حتى ذلك الحين. هذا مع العلم أنّه لم يكن يوجد بداخله النّساء والأطفال، وقد وصل إليه السلطان بيبرس ضارباً الحصار حوله يوم الاثنين 27 شوال/8 جوان[6]، وفي أثناء نصب المجانيق تمهيداً لقصفه ورد عليه رسولان للصليبيين، أحدهما من قِبل أمير طرابلس بوهمند السادس، وكان طلبه أن يرحل السلطان بيبرس عن حصن القرين، إلاّ أنّ السلطان ردّ عليه قائلاً: << كلامه عندي مقبول، ولو جاءني رسوله قبل نزولي عليه ما خالفته، وقد نزلت عليه ولا يمكنني الرّحيل عنه >>[7].

أمّا الرسول الآخر، فكان من قِبل ملك قبرص هيو الثالث الذي كان في عكا في ذلك الوقت[8]، وقد قال هذا الرسول للسلطان بيبرس: << صاحبي سيّرني لأنظر إلى السلطان هل رحل أم لا، فانّه بلغه أنّ العساكر تقدّمت إلى مصر >>. فردّ السلطان بيبرس قائلاً: << رحلت من عساكري الأثقال والضعفاء >>، ثمّ قال: << فهل لصاحبك عندنا من حاجة فنقتضى، فانّه عندنا ضيف >>. فقال الرسول: << حاجته عندك أن تدفع له بعلبك

---

(1) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 107.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 53.

(3) حصن القرين: حصن بفلسطين، قرب صفد من جهة، وشمال شرقي عكا من جهة أخرى. ينظر: بدر الدين العيني، المصدر السابق، ص 60، سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 117.

(4) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 138.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 117.

(6) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 138.

(7) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 161.

(8) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 64.

ونابلس >>. فقال السلطان: << صاحبك في عقله أم لا، أنا سآخذ منكم حصونكم أوّلا بأوّل، تطلب منّي بلادي! >>[1].

شرع السلطان بيبرس في هجومه على الحصن، وتحت وطأة ضربات قوّاته الشديدة طلب الصليبيون الأمان، فأمّنهم السلطان على الخروج من دون أن يأخذوا مالاً ولا سلاحاً[2]، ثمّ أركبهم الجمال وأوصلهم إلى مدينة عكا[3]، وقد كان برفقتهم الأمير بدر الدين بيسرى[4]. ومن ثمّ دخلت القوّات الإسلامية الحصن بعد حصار دام أسبوعين[5]، وذلك في 13 ذي القعدة/23 جوان. وقد أمر السلطان بيبرس بهدمه، فهُدّم في اثني عشر يوماً[6].

ولقد استغل السلطان الظاهر بيبرس هذا الفتح، فردّ على ملك قبرص هيو الثالث مُبشّراً إيّاه بفتحه هذا، قائلاً له: << إلى حضرة الملك هيو الثالث جعله الله ممّن يوفي الحقّ لأهله ولا يفتخر بنصر إلاّ إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله[7]، ... وقد كنت عرّفتنا أنّ الهواء (الرّياح) كسر عدّة من شوانينا، ... ونحن الآن نبشرك بفتح القرين، وأين البشارة بتملّك القرين من البشارة بما كفى الله به مُلكنا العين، وما العجب أن تفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب، ... وليس من اتّكل على الله وسيفه، كمن اتّكل على الرّيح، وما النّصر بالهواء مليح، إنّما النّصر بالسيف هو المليح، ... فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة (أي خالية لا يوجد بها غنائم)، فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان، فكم أخلينا بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فنُرى أيّنا أغنم، ... >>[8].

---

(1) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 161ــ162.

(2) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 304.

(3) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 311.

(4) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 162.

(5) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص 57.

(6) أبو بكر بن عبد الله الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 162.

(7) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 166.

(8) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 47.

وقبل أن يغادر السلطان بيبرس إلى القاهرة، قدم عليه رسل أمير صور فيليب دي مونتفورت يطلبون عقد صلح[1]، فوقع الاتفاق على أن يكون للسلطان بيبرس خمس قرى يختارها من القرى التابعة له، ويكون لأمير صور عشر قرى، بينما تكون بقية القرى مناصفة بينهما، وتمّ الصلح على ذلك[2].

ثمّ توجّه بعد ذلك السلطان الظاهر بيبرس إلى مصر في 24 ذي القعدة/4 جويلية[3]، فوصلها في 12 ذي الحجة/22 جويلية[4] وقد زيّنت له[5]. ثمّ أشرف هناك على صناعة السفن، حيث تمّت صناعة عشرين سفينة[6]، وقد استغل صليبيو عكا إقامته بالقاهرة للإغارة على نواحي الشاغور[7]، حيث نهبوا وأحرقوا المحاصيل. ثمّ بلغ السلطان بيبرس أيضاً أنّهم قاموا كذلك بقتل مائة من الأسرى المسلمين خارج مدينتهم[8]، فأمر بدوره بقتل أسرى عكا، وكان عددهم حوالي مائتي أسير[9]، وقيل كانوا قريباً مائة أسير[10].

وفي 15 ذي الحجة/25 جويلية، قبض السلطان بيبرس على جماعة من الأمراء، وهم: علم الدين سنجر الحلبي، وجمال الدين آقوش المحمّدي، وجمال الدين أيدغين الحاجبي النّاصري[11]، وعزّ الدين إيغان المعروف بسمّ الموت، وشمس الدين سنقر المسّاح، وسيف الدين بيدغان الرُّكني، وعلم الدين طرطح الأمدي، وغيرهم، وقد اعتقلوا بقلعة الجبل[12].

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 118.

(2) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 200.

(3) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 311.

(4) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 47.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 163.

(6) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 167.

(7) الشاغور: بلدة بظاهر مدينة دمشق. ينظر: ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 301.

(8) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 151.

(9) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 162.

(10) ابن كثير، ج17، المصدر السابق، ص 492.

(11) جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 139.

(12) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 163.

وكان السبب في ذلك أنّهم كانوا قد اتفقوا على قتل السلطان بيبرس لمّا كان عائداً إلى مصر مارّاً على حصن الشقيف، فأسرّها السلطان في نفسه بعد ما احتاط منهم، إلـــى أن دخل القاهرة فقبض عليهم[1].

[1] أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 163.

2) حملـــة الأمير إدوارد ووفاة السلطان الظـــاهر بيبرس (669ـــ676هـــ/1271ـــ1277م):

كان السلطان الظاهر بيبرس ينوي فتح مدينة طرابلس، ولم يثنه عن عزمـــه ســـوى الأنباء التي وردت إليه عن قرب وصول حملة صليبية أنكليزية بقيادة الأمير إدوارد ولي عهد أنكلترا، لذلك آثر عقد هدنة مع أميرها للتفرغ لهذه الحملة.

❖ حملة الأمير إدوارد (669هـــ/1271م):

من جرّاء الهزائم المتلاحقة التي مني بها الـــصليبيون فـــي بـــلاد الـــشّام، تـــسابق الأوربيون للمجيء إلى الشرق لمساعدة الصليبيين هناك[1]، فأراد الأمير إدوارد ولي عهد أنكلترا والابن الأكبر لملك أنكلترا هنري الثالث أن يجرّب حظه في الذهاب إلى الـــشرق على رأس حملة صليبية، وكان ذلك في أوائل الثلاثينيات من عمره[2].

لكن تظافرت رغبة كل من البابا كليمنت الرابع (663ـــ687هـــ/1265ـــ1288م)[3] والملك هنري الثالث لمعارضة رغبة الأمير إدوارد وإصراره على الرّحيل إلى الـــشرق. ويُرجّح أنّ سبب ذلك هو أنّ الأمير إدوارد، باعتباره وريث العرش الأنكليزي، يجب عليه أن يبقى في المملكة، خاصة وأنّ أباه كان مريضاً في تلك الأثناء[4].

وعلى الرغم من أنّ البابا أراد ذهاب الأمير إيدموند بدلاً من أخيه الأمير إدوارد في هذه الحملة، فقد برهن هذا الأخير عن إصراره الشديد عندما أقنع فـــي رمـــضان ســـنة 666هـــ/جوان 1268م كُلاً من أبيه الملك هنري، والبابا بالسماح له بقيادة هذه الحملة[5].

وفي سنة 667هـــ/1269م ذهب الأمير إدوارد إلى فرنسا تلبية لرغبة الملك لـــويس التاسع للمناقشة حول الحملة الصليبية، وتمّ الاتفاق بينهما على موافقة الملك لويس إقراض

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 112.

(2) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 330ـــ331.

(3) سامية عامر، المرجع السابق، ص 131.

(4) زينب عبد المجيد عبد القوي، الانجليز والحروب الصليبية في الفترة من 1189ـــ1291م، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 1996م، ص 204ـــ205.

(5) نفسه، ص 205.

الأمير إدوارد مبلغ سبعين ألف ليرة تورية[1]، ومن جهة أخرى وعد الأمير إدوارد بالمجيء إلى ميناء إيجى مور[2] بفرنسا للإبحار معاً إلى الشرق، وهذا عندما يكمل الأخير استعداداته، إضافة إلى تسليمه أحد أبنائه رهينة للملك لويس ضماناً لتنفيذ وعده، وتمّ التصديق على هذا الاتفاق من قبل الملك هنري الثالث[3].

ويذكر في هذا الصدد أنّه عقب عودة الأمير إدوارد إلى لندن، أرسل ابنه هنري إلى الملك لويس تنفيذاً للاتفاق، لكنّ هذا الأخير أعاده إليه في الحال لاعتقاده بأنّ إخلاص وولاء الأمير إدوارد ليس في حاجة إلى ضمان.

كان الأمير إدوارد ينوي اللّحاق بحملة الملك الفرنسي لويس التاسع والذهاب معاً إلى الشرق[4]، فخرج من أنكلترا على رأس حملة صليبية قوامها ألف مقاتل وأسطول صغير مكوّن من ثلاث عشرة سفينة (وقيل ثلاثين سفينة)[5] في 15 ذي الحجة سنة 668هـ/5 أوت 1270م، وقد كان برفقته زوجته إليانور[6] وأخيه الأمير إيدموند مع مجموعة من الفرسان، وهذا بعد أن عهد برعاية أبنائه وممتلكاته إلى ابن عمّه ريتشارد[7].

فوجئ الأمير إدوارد فور وصوله إلى ميناء أجمورت بفرنسا[8] بأنّ الملك لويس التاسع قد عسكر بقوّاته أمام تونس، وهذا التغيير المفاجئ في خطة الحملة بالاتجاه إلى تونس بدلاً من الشرق اتخذ لعدّة أسباب سبق ذكرها[9].

---

(1) ليرة تورية: نسبة إلى مدينة تور الفرنسية. ينظر: زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 206.

(2) ايجى مور: وهو ميناء بفرنسا، يقع قرب مصب نهر الرّون في إقليم لانجدوك غرب مدينة مرسيليا. ينظر: نفسه، ص 207.

(3) نفسه، ص 207.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 65.

(5) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 119.

(6) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 388.

(7) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 207.

(8) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 313.

(9) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 210.

ولم يلبث الأمير إدوارد أثناء تواجده في سردينيا أن علم بوفاة الملك لويس التاسع متأثراً بالحمّى في 10 محرم سنة 669هـ/30 أوت 1270م[1] على إثر انتشار الطاعون بين أفراد جيشه[2]، وقد خلف هذا الأخير على العرش ابنه فيليب الثالث (669ـ684هـ/ 1270ـ1285م)، والذي اقتنع بوجهة نظر عمّه الملك شارل بضرورة عقد هدنة مع أمير تونس المستنصر بالله الحفصي، وقد تمّ ذكر ذلك مفصلاً في الفصل السابق[3].

وبعد وفاة الملك لويس التاسع، وصل الأمير إدوارد إلى قرطاجة في منتصف ربيع الأول/أوائل نوفمبر، وفيما يتعلق برد فعله تجاه الهدنة المبرمة بين الملك شارل والأمير المستنصر بالله، فقد عارض الأمير إدوارد هذه الهدنة بشدّة.

ذهب هذا الأخير برفقة الملكين فيليب الثالث وشارل إلى صقلية، حيث أمضيا الشتاء هناك. وفي 9 ربيع الآخر/25 نوفمبر، اتخذ أمراء وملوك أوربا قراراً بتأجيل الحملة الصليبية إلى الشرق لمدّة ثلاث سنوات، ولكن الأمير إدوارد أعلن عدم موافقته على ذلك، خاصة وليس هناك ثمّة ما يستدعي عودته إلى بلاده، وأقسم قائلاً: << باسم دم الرّب وحتى إذا تخلّى عنّي جميع أتباعي من الرّجال والجنود سوف أذهب إلى عكا ...، وسوف أحافظ على كلمتي وقسمي الصليبي حتى الموت >>[4].

وبعد أن أمضى الأمير إدوارد فصل الشتاء مع القوّات الفرنسية في صقلية، اكتشف عدم استعداد الملك الفرنسي فيليب الثالث للإبحار معه في حملته الصليبية إلى الشرق، حيث عاد هذا الأخير إلى بلاده، لذا أبحر الأمير إدوارد في ربيع سنة 669هـ/1271م إلى جزيرة قبرص[5]، ومنها رحل إلى مدينة عكا مع أتباعه من الأنكليز وقلّة من الأمراء

---

(1) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 271.

(2) أحمد حسين، المرجع السابق، ص 693.

(3) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 211.

(4) نفسه، ص 212.

(5) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 574.

الفرنسيين مثل: إيرارد فاليرى، وأتوجراندسون. وفي 27 رمضان/9 ماي [1] وصل الأمير إدوارد بحملته الصغيرة المتكونة من ثلاثمائة فارس وألف راجل[2] إلى مدينة عكا[3].

كان هذا الأمير يأمل عندما فكّر في التّوجه إلى الشرق، في الاعتماد على قوّة الصليبيين هناك[4]، لكنّه وبمجرد أن وصل إلى ميناء مدينة عكا، حتى وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، إذ كان التجار البنادقة والجنوية نشطين في تبادلهم التجاري مع دولة المماليك في مصر وبلاد الشّام، حيث كانوا يمدّونهم بالأخشاب والحديد اللاّزم لصنع السفن الحربية، إضافة إلى الأسلحة والرّقيق الأبيض[5]، وهذا على الرغم من صيحات الاحتجاج من جانب الأمير إدوارد لعقد حلف عسكري معهم[6]، ورسائل الحرمان الصليبي التي أطلقتها البابوية آنذاك ضدّهم للحيلولة دون ذلك، وتقديم المساعدة للأمير إدوارد في حملته، لكن الحاكم البندقي في مدينة عكا فيليب بلنيو رفض ذلك مطالباً الأمير إدوارد بالصمت والتغاضي عن ذلك[7].

لم يكن الأمير إدوارد يملك من القوّات ما يُمكّنه من محاربة السلطان الظاهر بيبرس والقيام بأيّ هجوم حاسم ضدّ معاقل المسلمين في مصر وبلاد الشّام[8]، على الرغم من قدوم بعض الإمدادات من الأراضي المنخفضة (هولندا حالياً) بقيادة تبدالو فيسكونتي رئيس أساقفة مدينة ليج[9]، فأصبح عدد جيشه نحو سبعة آلاف مقاتل[10]. لذا ارتكزت

---

[1] وفي رواية أخرى أنّه وصل مدينة عكا في 7 شوال/19 ماي من نفس السنة. ينظر: عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 65.

[2] يوسف الدبس المطران، تاريخ سورية الديني والدنيوي، را و دق: مارون رعد، إش: نظير عبود، ج6، دار نظير عبود، الإسكندرية، مصر، 1902م، ص 260.

[3] زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 212.

[4] محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 331.

[5] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 169ـ170.

[6] سامية عامر، المرجع السابق، ص 132.

[7] زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 213.

[8] فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 169.

[9] سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 119.

[10] يوسف الدبس المطران، المرجع السابق، ص 260.

سياسة هذا الأمير على إلحاق الضرر والخسائر بالمسلمين، وهذا عن طريق شنّ غارات قصيرة الأمد[1].

ففي صيف سنة 669هـ/1271م قام الأمير إدوارد بأوّل غاراته، حيث اتجه إلى اللّد وخرّب الأراضي المجاورة لها. كما أغار على منطقة الشاغور والبعنة في شمال فلسطين[2]، ثمّ عاد بعد ذلك إلى مدينة عكا. ولم تسفر هذه الغارات التي شارك فيها ما يقرب من ألف وخمسمائة فارس، بالإضافة إلى عدد كبير من المشاة[3]، عن أيّة نتيجة فعّالة، بل حدث العكس، حيث هلك عددٌ كبير من الصليبيين نتيجة شدّة الحرارة والعطش[4].

وفي صفر سنة 670هـ/سبتمبر 1271م، انضمّ الأمير إيدموند لشقيقه الأمير إدوارد، فقادا غارة ضدّ حصن قاقون، كما هاجما منطقة القرين بالقرب من مدينة عكا، وفي هذه الأثناء، كان السلطان الظاهر بيبرس في شمال بلاد الشّام مشغولاً بمقاتلة المغول. وقد عاد الأمير إدوارد من هذه الغارة محمّلاً ببعض الغنائم وعدد من الأسرى التركمان الذين أسرهم في غارته على حصن قاقون[5].

وبعد الانتصارات التي حققها السلطان الظاهر بيبرس باستعادته لأهمّ المناطق والمعاقل الخاضعة للصليبيين، وأهمّها حصن الأكراد وعكّار والقرين، حينئذٍ أدرك الأمير إدوارد أنّ قوّاته لا تكفي لمحاربة المسلمين هناك، لذلك فكّر في محاولة التحالف مع المغول، فبادر بعد وصوله مباشرة بإرسال سفارة إلى ملك مغول فارس أبغا خان في عاصمته تبريز، للتفاوض بشأن القيام بهجوم مشترك ضدّ عدوّهما المشترك السلطان الظاهر بيبرس[6].

---

(1) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 213.

(2) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 66.

(3) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 313.

(4) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 213.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 66.

(6) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 214.

وقد تكونت هذه السفارة من ثلاثة من أهمّ رفقاء الأمير إدوارد وهم: ريجينالد رسل، وجودفرى ويليس، ويوحنا باركر[1]. وقد حالف النّجاح هذه السفارة، حيث أعطى أبغا وعداً بالحضور للاشتراك مع الصليبيين في محاربة المسلمين في بلاد الشّام، ولكن نظراً لانشغال قوّاته على الحدود الشرقية لبلاده في حماية حدودها من مغول القفجاق ومغول بخارى، فقد أبلغ هذا الأخير الأمير إدوارد في 27 محرم/4 سبتمبر بأنّه أعطى أوامره لقائده صمغار في الأناضول لغزو بلاد الشّام، كما اقترح على الأمير إدوارد الاتحاد مع هذا القائد لتحقيق أهدافهما[2].

وفي انتظار هذه المساعدة المغولية، أخذ الأمير إدوارد يحصّن مدينة عكا وينظم حاميتها. كما اجتمع هذا الأخير مع الملك هيو الثالث ملك قبرص وعكا (665ـ683هـ/ 1267ـ1284م)[3]، حيث اتفقا على أنّ استرداد معاقل الصليبيين في الشرق من أيدي السلطان الظاهر بيبرس لا يأتي إلاّ بالاستيلاء على مصر. وأنّ تأمين معاقل الصليبيين ببلاد الشّام يتطلب أيضاً الاستيلاء على القسطنطينية بعد انتزاع مصر وبلاد الشّام[4].

ومهما يكن من أمر هذا التحالف الانكليزي المغولي المرتقب، فانّ أحلام هذا التحالف سرعان ما تبخرت وذهبت أدراج الرّياح. فقد انغمس الملك أبغا في محاربة أقربائه من مغول القفجاق ومغول بخارى، واكتفى بإرسال قوّة مغولية في منتصف شهر ربيع الأول/أكتوبر[5] إلى شمال بلاد الشّام عن طريق عينتاب[6] يتراوح عددها ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألف مقاتل، وكانت بقيادة قائد جيوشه صمغار الذي قام بعدّة غارات

---

(1) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 120.

(2) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 214.

(3) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 332.

(4) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 170.

(5) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 202.

(6) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 170.

بهدف السلب والنّهب في حوض نهر العاصي[1] حول حارم[2]، وقد تصدّت لهم الحامية الإسلامية التي كانت بحلب، غير أنّ المغول انتصروا عليهم، ففرّت الحامية إلى مدينة حماه[3]، وواصل بذلك المغول تحركاتهم جنوباً حتى معرّة النعمان[4] وأفامية[5].

ساد الذعر المسلمين في شمال بلاد الشّام من جرّاء هجومات المغول المتواصلة، وعندما علم السلطان الظاهر بيبرس بذلك، وقد كان بدمشق، أعدّ قوّاته وأرسل إلى القاهرة يطلب المدد. ثمّ تحرك صوب الشمال لملاقاة المغول، وكان ذلك في 7 ربيع الثاني/12 نوفمبر[6]. ولمّا علمت القوّات المغولية بقدوم السلطان بيبرس، عادت إلى شرق نهر الفرات بعد أن حملوا معهم الكثير من الغنائم[7].

وكانت هذه الغارة على شمال بلاد الشّام هي كل ما فعله الملك أبغا لمساعدة حليفه الأمير إدوارد[8].

شجّعت تحركات المغول هذه الأمير إدوارد، فاعتقد بأنّهم سيواصلون الزحف على معاقل المسلمين ببلاد الشّام، فبادر في 18 ربيع الآخر/23 نوفمبر[9] بتنظيم قوّاته، كما أعدّ خطة لمهاجمة حصن قاقون مرّة أخرى[10]، وكان هذا الحصن يتولّى حماية الطرق عبر التلال، لذلك عبر جبل الكرمل وأغار على سهل شارون في فلسطين[11]، ولأنّ قوّاته قليلة

---

(1) عبد السلام الترمانيني، أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، ج3/مج2، ط1، دار طلاس، دمشق، سوريا، 1994، ص 1030.

(2) حارم: حصن منيع تجاه مدينة أنطاكية، وهي الآن من قرى حلب. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 205.

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 576.

(4) معرّة النعمان: مدينة كبرى في حمص بين مدينتي حلب وحماه. ينظر: ياقوت الحموي، مج5، المصدر السابق، ص 156.

(5) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 331ـ332.

(6) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 577.

(7) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 332.

(8) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 215.

(9) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 314.

(10) قاقون: حصن بفلسطين في ساحل الشّام قرب الرّملة. ينظر: ياقوت الحموي، مج4، المصدر السابق، ص 299.

(11) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 120.

العدد مع عدم قدوم القوّات المغولية لمساندته كما كان ينتظر، فشل في مهمّته، حيث استطاعت القلعة الصمود أمام هجومهم على الرغم من استشهاد الأمير حسام الدين، وفربجكا العلائي والي الحصن[1]، بالإضافة إلى إصابة الأمير ركن الدين جالق بجُرح خطير[2].

وعندما علم السلطان الظاهر بيبرس بما حدث، سيّر الأمير آقوش الشّمسي للتصدّي لهم، حيث استطاع هذا الأخير استرجاع عدد من التركمان كان الصليبيون قد أخذوهم أسرى، إضافة إلى قتل الكثير منهم، كما غنم منهم من البغال والخيول ما يقرب من الخمسمائة رأس، وقد عاد بعد ذلك الأمير إدوارد أدراجه إلى مدينة عكا[3].

ثمّ خرج السلطان بيبرس بجيشه من دمشق في 3 جمادى الأولى/7 ديسمبر للإغارة على مدينة عكا، غير أنّ سقوط الأمطار بشكل كثيف في منطقة مرج برغوث، والتي كادت أن تتسبب في هلاك العديد من جنوده، جعلت السلطان يعود أدراجه إلى مصر[4].

وعلى ضوء إدراك الملك هيو الثالث والأمير إدوارد لضعفهما في مواجهة السلطان الظاهر بيبرس واسترداد معاقلهما في الشرق، وكذا بعد تلاشي إمكانية التحالف مع المغول، فكّر الأمير إدوارد في العودة إلى بلاده على أمل العودة بحملة صليبية أخرى في الوقت المناسب[5]، ولذلك لم يجد هذا الأمير مخرجاً إلاّ عقد هدنة مع السلطان بيبرس، وقد توسط له في ذلك ملك صقلية شارل[6]. فعقدت الهدنة بين الأمير إدوارد والسلطان بيبرس في مدينة قيسارية في 21 رمضان سنة 670هـ/22 أفريل 1272م، نصّت على:

- احتفاظ مملكة عكا بممتلكاتها التي تمتد على شريط ساحلي ضيق من مدينة عكا إلى صيدا[7].

---

(1) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق ص 314.

(2) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 202.

(3) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 332.

(4) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 202.

(5) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 332.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 66.

(7) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 332.

- منح حكومة عكا حق استخدام طريق الحُجّاج إلى مدينة النّاصرة[1].
- تكون مدينة أسكندرونة[2] مناصفة بين الطرفين[3].
- مدّة الهدنة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيّام وعشر ساعات، أوّلها يوم 21 رمضان سنة 670هـ/22 أفريل 1272م[4].

وبعد عقد الأمير إدوارد لهذه الهدنة، أسرعت بقية المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة مع السلطان بيبرس[5].

ولقد أدرك السلطان أنّ الأمير إدوارد سيحاول مُجدّداً القيام بحملة صليبية أخرى، لذلك قرّر التخلّص منه[6].

كما تروي بعض المصادر الغربية نقلاً عن كتاب الأنكليز والحروب الصليبية لمؤلّفته زينب عبد المجيد عبد القوي، وجود نيّة التخلص من الأمير إدوارد من طرف السلطان بيبرس انتقاما منه لما قام به أمام حصن قاقون[7].

وهناك روايتان في هذا الصدد، الأولى مفادها أنّه بعد التشاور بين السلطان بيبرس وأمير الرّملة غرس الدين بن شاور[8] حول كيفية اغتياله، قام هذا الأخير بمراسلة الأمير إدوارد متظاهراً برغبته في اعتناق الدّيانة المسيحية. كما اصطحب معه بعض المسلمين الآخرين لتنصيرهم، وقد استجاب الأمير إدوارد لطلبه، فأرسل أمير الرّملة اثنين من طائفة الباطنية لتسليم رسالته. وفي 18 ذي القعدة/16 جوان، تقدم أحد هؤلاء لتسليم رسالة أميرهم للأمير إدوارد. وبينما كان هذا الأخير مشغولاً بقراءتها، قام أحدهم بطعنه بخنجر

---

(1) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 128.

(2) أسكندرونة: مدينة في شرقي أنطاكية بين عكا وصور على ساحل بحر الشّام. ينظر: ياقوت الحموي، مج1، المصدر السابق، ص 182.

(3) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 315.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 66.

(5) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 215.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 66.

(7) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 215.

(8) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 66.

مسموم، ولكنّ الطعنة لم تكن قاتلة[1]، فقد شفي الأمير إدوارد بعد شهرين. ويروي متّى الباريسي بأنّ الأمير إدوارد أمر بتعليق جسد من حاول قتله على أسوار مدينة عكا ليكون عبرةً لغيره[2].

ونفس هذه المصادر الغربية تؤكد قيام السلطان بيبرس بإرسال مبعوث للأمير إدوارد لتهنّئته على نجاته[3] ومُعرباً عن أسفه لما حدث، ومؤكّداً عدم علاقته بأيّ شكل من الأشكال في هذا الاعتداء[4].

أمّا الرواية الثانية فمفادها أنّ أمير الرّملة أرسل أحداً من الحشيشية (وهي فرقة الباطنية) إلى عكا، وقد قام هذا الأخير بطعن الأمير إدوارد بخنجر مسموم[5] في حُجرته[6]، حيث أصابه مرتين في ذراعه ومرة ثالثة تحت الإبط[7].

وروى بعض المؤرّخين أنّ إليانور، زوجة الأمير إدوارد، قامت بامتصاص جرح زوجها لتخرج السمّ منه[8].

وفي 26 صفر 671هـ/22 سبتمبر 1272م، أبحر الأمير إدوارد مع قوّاته فور شفائه من مدينة عكا عائداً إلى بلاده، وقبل ذلك، وفي شوال/ماي غادر مدينة عكا أخوه الأمير إيدموند، ثمّ وليم فالنس في نهاية محرم/أوت[9].

وفي طريق عودته إلى بلاده، قضى الأمير إدوارد شتاءً آخر في جزيرة صقلية، وأثناء وجوده هناك، علم بوفاة أبيه الملك هنري الثالث في 23 ربيع الآخر/17 نوفمبر،

---

(1) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 171.

(2) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 216.

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 2، ص 579.

(4) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 216.

(5) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 66.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 120.

(7) Matt Hew Paris's: English History From the YEAR 1235 to 1273, Vol3 , London, HENRY G. Bohn, York Street, Covent Garden, 1854, p 379.

(8) يوسف الدبس المطران، المرجع السابق، ص 261.

(9) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 216.

وبذلك أصبح ملكاً على أنكلترا[1] بعد أن أقسم الكونت كلوستر على ضمان سلامة المملكة الأنكليزية لحين عودته[2].

ومن هنا فقد كانت هذه الحملة الصليبية التي قادها الأمير إدوارد هي الحملة الأخيرة للصليبيين في العصور الوسطى على بلاد المشرق[3].

❖ بعض المهادنات والتحالفات والهجمات بين السلطان الظاهر بيبرس والصليبيين والمغول من جهة، ومملكة أرمينية من جهة أخرى:

لقد أعطت الهدنة الأخيرة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس الفرصة له لمواجهة هجمات المغول ومملكة أرمينية الصغرى، والتي اشتدّت على الحدود الشمالية لبلاد الشّام[4].

وعلى الرغم من أنّ عملياته الحربية ضدّ معاقل الصليبيين التي بقيت في السّاحل الشّامي قد توقفت سنة 670هـ/1272م باستثناء فتحه لحصن القصير الذي سيتمّ ذكره لاحقاً، فقد استمر في مهادنتهم سياسياً. كما أنّ الصليبيين أنفسهم ظلّوا يتودّدون إليه بعد أن خبروا عزيمته القتالية. ومن الأمثلة على ذلك أنّ الأمير بوهمند السابع الذي تولّى حكم مدينة طرابلس بعد وفاة والده الأمير بوهمند السادس في ذي القعدة سنة 673هـ/ماي 1275م[5]، أرسل إلى السلطان بيبرس يطلب تجديد الهدنة التي كانت قد عُقدت مع والده بحكم وفاته، فوافق السلطان بيبرس على عقد الهدنة، وأرسل إليه الأمير سيف الدين بلبان الرّومي الدوادار لعقدها[6]، وهذا على أساس أن يدفع الأمير بوهمند السابع للسلطان بيبرس مبلغاً قدره عشرون ألف دينار صورية كلّ سنة، ويردّ إليه عشرين أسيراً مسلماً، فقبل

---

(1) كانت فترة حكم الملك إدوارد الأول لأنكلترا ما بين سنتي 671ـ706هـ/1272ـ1307م. ينظر: زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 219.

(2) نفسه، ص 216.

(3) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 121.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 67.

(5) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 172.

(6) سعدون عبّاس نصر الله، المرجع السابق، ص 123ـ124.

الأمير بوهمند السابع بذلك، وعُقدت الهدنة بينهما في شهر محرم سنة 674هـ/جويلية 1275م[1].

كما هاجم السلطان الظاهر بيبرس مملكة أرمينية الصغرى للمرّة الثانية، حيث أنّها لم تلتزم بنصوص الهدنة التي عُقدت بين ملكها هيثوم الأول والسلطان بيبرس سنة 666هـ/1268م[2]، فقد هاجم أهل قلعة كينوك[3] بعض التجار المسلمين، فكتب السلطان بيبرس بذلك إلى ملكها ليو الثالث، والذي تولّى الحكم بعد اعتزال أبيه هيثوم الأول، لكنّ هذا الملك لم يهتم بذلك، بل استمرّت اعتداءاتهم على التجار المسلمين وقوافلهم[4]، ونتيجة لذلك خرج السلطان بيبرس على رأس جيشه في رمضان سنة 673هـ/مارس 1275م[5] متوجّهاً للإغارة على مملكة أرمينية وتأديب ملكها، فهاجم عاصمتها سيس[6]، وكذا أذنة وطرسوس وأياس[7] وغيرها من المدن، فقتل وأسر وغنم منهم الكثير، ثمّ هُدّمت وأحرقت مدينة سيس بعد ذلك.

وقد أنشأ القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر شعراً في ذلك، وممّا جاء فيه:

يا ملك الأرض الذي عزْمه كم عامر للكفر منه خرب

قلبت سيسا فوقها تحتها والنّاس قالوا سيس لا تنقلب[8]

---

(1) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 67.

(2) نفسه، ص 68.

(3) كينوك: وتسمّى قلعة الحدث الحمراء، وهي إحدى قلاع مملكة أرمينية الحدودية مع بلاد الشّام، وقد بناها الأمير سيف الدولة بن حمدان. ينظر: بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 50.

(4) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 68.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 177.

(6) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 69.

(7) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص 13.

(8) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 54.

وعندما عاد السلطان بيبرس من غارته هذه، جرّد الأمير سيف الدين الدوادار[1] إلى حصن القصير[2] لمهاجمته، وقد كان أهله عند فتح مدينة أنطاكية قد هادنوا السلطان بيبرس، غير أنّهم لم يلتزموا بذلك، حيث قدّموا المساعدة للقائد المغولي صمغار في وقت سابق[3].

أراد حاكم الحصن سير ويليام[4] مهادنة السلطان بيبرس من جديد، فأرسل إليه الأمير سيف الدين الدوادار لعقد الهدنة، غير أنّ الحاكم سير ويليام لم يخرج لاستقباله، فعاد الأمير سيف الدين أدراجه، ولمّا بلغ ذلك حاكم الحصن، خرج إليه مُسرعاً ليسترضيه[5]، لكنّ الأمير سيف الدين، وبناءً على أوامر السلطان بيبرس كما ذكرنا، تمكّن من أسره[6]. غير أنّه لم يتمكّن من اقتحام الحصن، فأمره السلطان بيبرس بالاستمرار في حصاره حتّى يتمّ فتحه. وقد تمكّن هذا الأمير من فتحه يوم الأربعاء 23 جمادى الأولى سنة 674هـ/ 14 نوفمبر 1275م، حين طلب من فيه من الصليبيين الأمان، وبذلك تسلّمته القوّات الإسلامية منهم في ذلك اليوم[7].

كما يمكن الإشارة إلى أنّ زعيم المغول أبغا قد حاول دفع الصليبيين في أوربا إلى مشاركته في حملة عسكرية مشتركة ضدّ دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشّام بقيادة السلطان الظاهر بيبرس. ففي أواخر سنة 671هـ/1273م، أرسل أبغا إلى البابوية وإلى الملك الأنكليزي إدوارد الأول رسالة يطلب فيها التحالف معهم ضدّ عدوّهما

---

(1) هو من الأمراء المقربين للسلطان الظاهر بيبرس، والذي كان يعتمد عليه في المهمّات الكبرى ويطلعه على أسراره. قتل في حمص سنة 680هـ/1281م ودفن بها. ينظر: عزّ الدين بن شدّاد، تاريخ الملك الظاهر، اع: أحمد حطيط، ج31، مطابع مركز الطباعة الحديثة، بيروت، لبنان، 1983م، ص 121.

(2) القصير: حصن جنوب مدينة أنطاكية. ينظر: بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 54.

(3) نفسه، ص 54.

(4) وفي رواية أخرى ذُكر أنّ اسمه جيوم كليام. ينظر: عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 68.

(5) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 55.

(6) قام الأمير سيف الدين بإرسال الحاكم سير ويليام إلى السلطان الظاهر بيبرس بدمشق، وقد كان شيخاً كبيراً، وبعد فترة وجيزة توفي هناك. ينظر: نفسه، ص 55.

(7) عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 69.

المشترك السلطان بيبرس، غير أنّ الملك إدوارد اعتذر عن تحديد موعد لذهابه إلى بلاد الشّام[1].

كما أنّه عندما انعقد في أوربا مجمع ليون سنة 672هـ/1274م، حضره مبعوثان من قبل الملك أبغا، وقد عرضا على المؤتمرين مشروعاً للتحالف المغولي الصليبي، غير أنّ هذين المبعوثين عادا إلى بلادهما دون تحقيق الهدف المنشود[2].

وفي يوم الخميس 8 جمادى الآخرة سنة 674هـ/29 نوفمبر 1275م، وصل جيش مشترك من المغول وسلاجقة الرّوم بقيادة كلٍّ من القائد المغولي أبطاي، والأمير معين الدين سليمان البرواناه[3] إلى منطقة البيرة شمال بلاد الشّام وحاصروها، وكان عددهم ثلاثين ألف مقاتل[4]، فلمّا بلغ ذلك السلطان بيبرس خرج بنفسه على رأس جيشه، ولمّا وصل مدينة القطيف،[5] بلغه أنّ المغول قد تراجعوا لمّا علموا بمجيئه، فعاد السلطان بيبرس إلى دمشق ومنها رحل إلى مصر[6].

ومع ذلك فقد كرّر أبغا إرسال السفراء إلى أوربا من أجل التحالف. ففي جمادى الأولى سنة 674هـ/نوفمبر 1276م، ثمّ في رمضان سنة 675هـ/مارس 1277م، أرسل عدّة سفارات إلى البابوية وإلى ملك أنكلترا يحثّهم على القيام بحملة مشتركة، ولكنّ آمال الملك أبغا ذهبت أدراج الرّياح[7].

ومن هنا فإنّه لم يكن هناك أيّة هجومات متبادلة بين السلطان الظاهر بيبرس والصليبيين، كما أنّه لم يكن هناك أيّة مهادنات واتفاقيات بينهما في هذه الفترة، واستمر هذا الحال إلى غاية وفاة السلطان بيبرس سنة 676هـ/1277م[8]، حيث أنّه خلال هذه الفترة قد تفرّغ لمحاربة المغول، وكذا لتوسّعاته في بلاد النّوبة.

---

(1) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 173ـ174.

(2) نفسه، ص 174.

(3) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 349.

(4) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص 17.

(5) القطيف: مدينة ببلاد الشّام بينها وبين مدينة دمشق 24 ميلاً. ينظر: نفسه، ج50، ص 17.

(6) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 55.

(7) فايد حمّاد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 174.

(8) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 111.

❖ وفاة السلطان الظاهر بيبرس:

بعدما قام السلطان الظاهر بيبرس بجولة في بلاد الشّام تصدّى فيها لهجومات المغول بقيادة الملك أبغا[1]، إضافة إلى أنّه هاجم دولة سلاجقة الرّوم، دخل دمشق في الخامس من شهر محرم سنة 676هـ/8 جوان 1277م[2][3]. ولمّا كان يوم الخميس 14 محرم/17 جوان، جلس السلطان بيبرس بالجوسق[4] على عادته لشرب القمز[5]، ولشدّة سروره وفرحه أكثر من الشرب[6]، ثمّ نام على هذه الحال، وفي صبيحة يوم الجمعة شكا للأمير شمس الدين سنقر الألفي السلحدار[7][8] مرضاً ببطنه، فأشار عليه بالقيء، لكنّه استعصى عليه ذلك.

وبعد صلاة الجمعة، خرج السلطان بيبرس من الجوسق إلى الحديقة على عادته ليزيل عن نفسه الكسل والملل، ولكنّ الألم مع ذلك كان يزيد، ولم يزل على هذه الحال إلى أن غربت الشمس، فعاد إلى الجوسق[9].

---

(1) عبد الحكيم العفيفي، موسوعة 1000 حدث إسلامي، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1996م، ص 263.

(2) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 61.

(3) وفي رواية أخرى أنّه دخل دمشق يوم 7 محرم/19جوان. ينظر: شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص 29.

(4) الجوسق: وهو القصر الصغير، وقد بنى السلطان الظاهر بيبرس هذا القصر سنة 665هـ/1267م تحت قلعة مدينة دمشق. ينظر: محمد أحمد وهمان، المرجع السابق، ص 57، عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 221.

(5) وهو الشّراب المتخذ من لبن الفرس بعد تخميره. ينظر: محمد سهيل طقّوش، المرجع السابق، ص 154.

(6) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 212.

(7) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 208.

(8) السلحدار: لفظ فارسي معناه صانع الأسلحة، دخل هذا المصطلح البلاد العربية في العصر الإسلامي المتأخر ليطلق على المملوك المكلف بحمل آلات الحرب الخاصة بالسلطان أثناء القتال، ثمّ أطلق على فرقة من المماليك السلطانية كانت معروفة عند الأيّوبيين والمماليك باسم خاصكية، مهمّة عناصرها حراسة السلطان في قصره ومجالسه. وكان يتولّى شأنهم رئيس منهم يعرف بأمير السلاح، وهو من أصحاب المراتب العالية. تطوّر مدلول هذا المصطلح ليصبح في نهاية العصر المملوكي مسؤولاً عن أماكن حفظ السلاح في الدّار السلطانية. وقد استمرت هذه الوظيفة في العصر العثماني بحيث كانت مرتبة السلحدار قريبة من مرتبة الوزير. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 256.

(9) عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 222.

وفي يوم الأحد 17 محرم/20 جوان، اشتكى السلطان بيبرس حرارة في بطنه[1]، فصنع له بعض خواصّه دواءً ليخفّف عنه بعض الألم، ولم يكن صنع هذا الدّواء باستشارة طبيب، فحدث العكس، حيث تضاعف ألمه، فأمر السلطان بيبرس بإحضار الأطباء[2]، فلمّا قدموا أجمعوا رأيهم على أن يعالجوه بدواء مسهّل يدفع ما في جسمه من الفضلات، فسقوه للسلطان بيبرس غير أنّه لم ينجح مفعوله، فسقوه دواءً آخر كان مسبباً للإفراط في الإسهال، فدفع دماً مجتمعاً، فتضاعفت حرارته وضعفت قواه، فتخيّل خواصه أنّ كبده تتقطّع[3]، وأنّ ذلك عن سمّ شربه، فعولج بدواءٍ آخر، وكان ذلك يوم الثلاثاء 26 محرم/29 جوان، غير أنّ المرض زادت حدّته إلى أن توفي بعد ثلاثة عشر يوماً من مرضه[4]، وكان ذلك بعد صلاة الظهر من يوم الخميس 27 محرم/29 جوان[5][6].

وحول وفاة السلطان الظاهر بيبرس، فهناك عدّة روايات، منها الرواية الأولى التي ذُكرت، وكذا ما ذكره المؤلف بيبرس المنصوري في كتابه مختار الأخبار حول وفاته، حيث قال: << حدّثني من أثق إليه، أنّ السلطان الملك الظاهر لمّا عاد إلى دمشق ...، جمع الأمراء ... لشرب القمز، وكان بمدينة دمشق شخصٌ من سلالة بني أيّوب يسمّى الملك القاهر، ... وكان يسمّى الملك القاهر لذكر العادة، ... وأنّ السلطان لغيرته من بقاء من يشاركه في هذه التسمية أراد إعدامه، ... فأحضره في مجلس القمز وأمر بسقيه، فعملت له في كأس ــ السم ــ، ... فشربه وأحسّ بما فيه، فقام لوقته وحمل نفسه إلى داره، فمات بها، وغفل السّاقي عن كأس السّقية فاختلط بأواني الشرب، فملأه على أثره[7]

---

[1] شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص 29.

[2] عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 222.

[3] شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص 29.

[4] شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص 330.

[5] محمود شلبي، المرجع السابق، ص 378.

[6] وفي رواية أخرى ذُكر أنّه توفي يوم 28 محرم/30 جوان. ينظر: شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص 196.

[7] بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 62.

وناوله السلطان، فشرب، فكان ... موته بما دبّره على غيره، ... >>[1][2].

وفي رواية أخرى، ذكر المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك في نفس الصدد: << إنّ الظاهر ــ السلطان بيبرس ــ كان مولعاً بعلم النّجوم، فقيل له أنّه سيموت بدمشق في سنة ست وسبعين هذه ملك بالسمّ[3]، ... فلمّا دخل معه إلى بلاد الرّوم ــ السلاجقة ــ الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ابن الملك المعظّم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيّوب[4]، أبلى ــ الملك القاهر ــ ... بلاءً عظيماً أنكى به العدو، وتعجّب النّاس لعظم شجاعته، فأثّر ذلك عند السلطان، ... وظهر عليه الخوف والنّدم على ما فعله من تورّط نفسه وعساكره ببلاد الرّوم، فأنكر عليه الملك القاهر وقبّح فعله، فأسرّ له السلطان ذلك إلى أن قدم دمشق، فسمع السلطان النّاس تلهج ممّا فعله الملك القاهر ...، فاشتدّ حنقه (غضبه)[5] وأخذ يتحيّل في سمّه ليصح فيه ما دلّت عليه النّجوم ...، فعمل دعوة لشرب القمز حضرها الملك القاهر، وقد أعدّ السلطان سُمّاً من غير أن يشعر به أحد، وكان له ــ السلطان ــ ثلاث هنابات[6] تختص به مع ثلاث سقاة لا يشرب فيها غيره، أو من يكرمه فيناوله أحدها بيده. فلمّا قام الملك القاهر لقضاء حاجته جعل السلطان السمّ الذي أعدّه في نهابٍ وأمسكه بيده، فلمّا عاد الملك القاهر ناوله إيّاه، فقبّل الأرض وشرب جميع ما فيه، وقام السلطان لقضاء حاجته، وأخذ السّاقي النهاب من يد الملك القاهر وملأه على العادة من غير أن يشعر بما عمله السلطان من السمّ فيه، وأمسكه بيده ووقف مع السّقاة، فلمّا عاد السلطان من الخلاء تناول ذلك النهاب بعينه وشرب ما فيه وهو لا يعلم أنّه

---

(1) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 62.

(2) يقال على ضوء هذه الرواية أنّه انكسف القمر ذات يوم كسوفاً كلّياً، وشاع بين النّاس أنّ ذلك يدل على موت رجلٍ جليل القدر، فأراد السلطان الظاهر بيبرس أن يصرف التأويل إلى غيره، فاستدعى الشخص المذكور في هذه الرواية لقتله بالسمّ كما ذكرنا، وقد كان هذا الشخص من أبناء الملك النّاصر داود. ينظر: أبا الفداء، المختصر، ف6، ص 468.

(3) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 214.

(4) كان الملك القاهر يشغل منصب أمير الكرك. ينظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 154.

(5) المنجد في اللغة والأعلام، ص 158.

(6) هنابات: ومفردها هناب، لفظ متداول في العصر المملوكي، ويُقصد به كأس الشراب. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 434.

النهاب المسموم، فعندما شربه أحسّ بالتغيّر، وعلم أنّه قد شرب بقايا السمّ الذي كان في النهاب، فتقيّأ فلم يفد، وما زال به حتى مات >>[1].

وفي رواية أخرى، ذُكر أنّ السلطان الظاهر بيبرس قد توفي متأثراً بجراحه التي أصيب بها في حملته الأخيرة على سلاجقة الرّوم، حيث أصابه سهم في وركه، وظلّ أيّاماً كثيرة على تلك الحال، ولمّا أذن للجرّاح أن يُخرجه توفي السلطان بيبرس[2].

ومن خلال هذه الروايات، نجد أنّ الروايتين الأوليين، وعلى الرّغم من اختلافهما البسيط هي الأقرب إلى الحقيقة، إن لم تكن كذلك.

وهكذا كانت نهاية هذا البطل الذي كانت حياته مليئة بالأحداث والوقائع على اختلافها، بعد أن حكم مصر وبلاد الشّام لمدّة بلغت قرابة سبع عشرة سنة[3].

وقد اتفق رأي أمراء المماليك عند وفاة السلطان بيبرس على إخفاء ذلك، وكان على رأسهم الأمير بدر الدين بيليك الخازندار[4]، فأشيع أنّه ما زال مريضاً[5]، وقد تمّ إخفاء خبر وفاته إلى غاية العشر الأواخر من شهر ربيع الأول/أوت[6]، ومن ثمّ تمّ حمل السلطان بيبرس إلى القاهرة ليلاً حتى لا يشعر العامة بوفاته، فلمّا كان آخر الليل، حمله من كبار الأمراء كلٌّ من سيف الدين قلاوون الألفي، وبدر الدين بيسرى الشّمسي، وشمس الدين سنقر الأشقر العلائي، وبدر الدين بيليك الخازندار، وعزّ الدين الحموي[7]، وعزّ الدين أيبك

---

(1) تقي الدين المقريزي، ج1، المصدر السابق، ص 214.

(2) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 154.

(3) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 111.

(4) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 346.

(5) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 62.

(6) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 379.

(7) هو الأمير عزّ الدين أيبك الحموي، كان نائباً للسلطنة بدمشق، ثمّ نقل إلى صرخد (قلعة حصينة ملاصقة لحوران، وهي من أعمال مدينة دمشق) ومنها إلى حمص، وقد توفي بها في شهر ربيع الآخر سنة 703هـ/نوفمبر 1303م. ينظر: عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 223، ياقوت الحموي، مج3، المصدر السابق، ص 401.

الأفرم، وعلم الدين سنجر الحموي، وعزّ الدين أيدمر الظاهري[1]، إضافة إلى أكابر خواصه[2].

وقد تولّى غسله وتحنيطه وتصبيره[3] وتكفينه المهتار[4] شجاع الدين عنبر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المؤذن المعروف بابن المنجبي، والأمير عزّ الدين الأفرم، ثمّ جُعل السلطان بيبرس في تابوت وأخفي في بيت من بيوت المماليك البحرية بقلعة مدينة دمشق، وهذا حتى يتم الاتفاق بينهم على مكان دفنه[5].

ثمّ سيّر الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى مصر الأميرين بدر الدين بكتوت الجوكندار[6]، وعلاء الدين أيدغمش الحكيمي[7]، ليخبرا الملك السّعيد ابن السلطان الظاهر بيبرس بوفاة أبيه.

ولمّا كانت صبيحة يوم السبت، ذهب أمراء المماليك على عادتهم إلى سوق الخيل ولم يُظهروا شيئاً من الحزن[8].

---

(1) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 209.

(2) عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 223.

(3) تصبيره: ومفردها صبّر، يقال صبّر الميّت، أي جعل الصبر، وهي مادة توضع في جوف الميّت حتى لا تخرج النّتانة منه بسرعة. ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص 414.

(4) المهتار: أصله مهتر، وهو لفظ فارسي معناه رئيس القوم، وقد شاع استعمال هذا المصطلح في البلاد العربية كلقب أطلق على الكبير من كل طائفة منذ بداية العصر الأيّوبي. وقد توسّع المماليك في استعمال هذا اللّقب حتى صار لقباً وظيفياً من ألقاب أرباب الوظائف، فقد كان للمسؤولين عن أشربة السلطان رئيس يقال له مهتار الشرابخانة وغيرهم. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 411.

(5) أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 209.

(6) كان نائباً للأمير بدر الدين بيليك الخازندار، ببلاد الشّام، توفي في حمص سنة 680هـ/1281م. ينظر: عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 224.

(7) كان أحد أمراء السلطان الظاهر بيبرس، ومن بعده ابنه السلطان السّعيد، قتل في منطقة بيسان بفلسطين سنة 680هـ/1281ـ1282م. ينظر: نفسه، ص 224.

(8) نفسه، ص 224.

- **دفن السلطان الظاهر بيبرس:**

كان السلطان الظاهر بيبرس قبل وفاته قد أوصى أنّه إذا توفي أن يدفن في مكان عيّنه لأمرائه من المماليك، وهو قريب من قرية داريّا[1] ببلاد الشّام[2]، كما أمرهم أن يُبنى عليه بناءٌ يبقى أثره على مرِّ الزمان[3][4].

كما أنّ السلطان بيبرس كان قد بعث رسالة قبل وفاته إلى ابنه الملك السّعيد، وممّا جاء فيها: << ... إنّك صبي، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه، فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله، ولا تستشر أحداً في هذا، وافعل ما أمرتك به وإلاّ ضاعت مصلحتك ... >>. إضافة إلى أنّه حلّف جنوده لولده الملك السّعيد ليكون سلطاناً من بعده[5].

فلمّا توفي السلطان بيبرس، أمر ابنه الملك السّعيد أن يدفن أبوه داخل دمشق أسوة كغيره من السلاطين والملوك المدفونين بها، فكتب إلى الأمير عزّ الدين أيدمر الظّاهري نائب السلطنة بدمشق، يأمره أن يختار مكاناً يكون قريباً من قبري السلطان الكامل وأخيه الملك الأشرف[6].

ثمّ أمر الملك السّعيد الأمير علم الدين سنجر بأن يتوجّه إلى مدينة دمشق لدفن السلطان الظاهر بيبرس، فلمّا دخلها اجتمع مع الأمير عزّ الدين أيدمر وأخبره بما جاء من أجله، فحُمل السلطان بيبرس من القلعة إلى قبره ليلاً على أعناق الرجال، وكان ذلك يوم الجمعة 5 رجب 676هـ/2 ديسمبر 1277م[7].

ولقد رثى محيي الدين بن عبد الظاهر، الذي كتب سيرة السلطان الظاهر بيبرس، هذا الأخير بقصيدة طويلة جاء فيها:

---

(1) داريّا: قرية كبيرة مشهورة من قرى مدينة دمشق. ينظر: ياقوت الحموي، مج2، المصدر السابق، ص 431.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 111.

(3) عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 224.

(4) تمّ بناء مدرسة للحنفية والشّافعية في الموضع الذي اختاره السلطان بيبرس ليدفن فيه. ينظر: جمال الدين أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص 226.

(5) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 346.

(6) عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 224.

(7) محمود شلبي، المرجع السابق، ص 379.

أبـــداً عليـــك تحيّـــة وســـــلام يا قبر من فُجعت بـــه الإســـلام
الظاهر السلطان من كانت لـــه منن على كـــلّ الورى وتطـــول
لهفي على تلك العزائم كيف قد غفلت وكـــانت قبل ذا لا تغفل[1]
الله أكبـــر إنّـــها لمصيبـــــــة منها الرّواســـي خيفـــة تتقلقـــل
أنا إن بكيت فإنّ عذري واضحٌ ولئـــن صبرت فإنّنـــي أتمثّـــل[2]
أسفي على تلك الجيوش وقولها أيـــن الـــذي كنّـــا بـــه لا نُخذل
أين الذي فتـــح البـــلاد فسيفـــه مفتاحٌ مـــا بيدي الأعادي يُقفـــل
تعساً لـــها مـــن نكبةٍ وافا بـــها يوم الخميس إلى الخميس تولول
أبـــداً عليـــك تحيتـــي وســـلام يـــا قبر من فُجعت به الأيّـــام[3]

وللإشارة فقط، فقد خلّف السلطان الظاهر بيبرس بعد وفاته ثلاثة أولاد ذكور وهـــم: الملك السّعيد، والمسعود نجم الدين خضر[4]، والعادل بدر الدين سلامش[5][6]. أمّـــا فيمـــا يخص البنات فكنّ سبعاً[7].

---

[1] قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 112.

[2] محمود شلبي، المرجع السابق، ص 381.

[3] أبو بكر بن أيبك الدواداري، ج8، المصدر السابق، ص 216 ،218.

[4] توفي سنة 708هـــ/1309م. ينظر: عزّ الدين بن شدّاد، ج31، المصدر السابق، ص 233.

[5] نفسه، ص 233.

[6] توفي ببيزنطة سنة 690هـــ/1291م. ينظر: نفسه، ص 233.

[7] شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص 197.

الخاتمة

الخاتمة

ومن خلال ما سبق ذكره في هذا العرض، فإننا تمكنا من استخلاص النتائج التالية:

عرفت دولة المماليك البحرية في مصر العديد من السلاطين الذين كان لهم دور كبير في الحروب الصليبية في بلاد المشرق، وكان من أهمّ هؤلاء السلطان الظاهر بيبرس محل دراستنا، والذي كان قد انتقل من بلده الأصلي التركي بلاد القفجاق إلى بلاد الشام، أين أصبح من مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيّوب، كما كان لهذا المملوك دور فعّال في استرداد بيت المقدس، وفي الحملة الصليبية السابعة، ولاسيما الدور الذي قام به في معركة المنصورة، دون أن نغفل عن مساهمته الفعّالة في معركة عين جالوت التي أسفرت عن هزيمة ساحقة للمغول.

وقد تولى بيبرس الحكم بعدما تمكن من القضاء على السلطان قطز، والذي كان قد تجاهل مكانته بعدم منحه نيابة حلب كما وعده بعد معركة عين جالوت.

ومن ثم قام السلطان بيبرس بعد توليه الحكم بالتقرب من الخاصة والعامة لإرساء دعائم دولته. كما أنّه استطاع القضاء على الحركات المناهضة لحكمه، ممّا يعتبر عاملاً من عوامل تثبيت سلطته بشكل خاص، إضافة إلى إعادة إحيائه للخلافة العبّاسية في مصر مرتين، ممّا أكسبه سنداً شرعياً أمام العالم الإسلامي يقوّي به مركزه ومركز دولته.

كما كان تحصين السلطان بيبرس للثغور وأطراف الدولة، وتنظيمه للجيش، وعنايته بالأسطول والبريد، من أهم الدعائم لإقامة دولته على أسس ثابتة من ناحية، ولبداية جهاده ضد الصليبيين من ناحية أخرى، والدليل على ذلك أنّه استطاع بفضل ذلك الجيش والأسطول والتحصينات، أن يقوم بالدور الذي كان الأجدر أن يقوم به، وهو محاكاة السلطان صلاح الدين الأيّوبي في الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم في بلاد الشّام، فضلاً عن جهاده ضد المغول.

وعندما قرّر السلطان بيبرس الشروع في الجهاد، اتجه إلى عقد الأحلاف والاتفاقيات مع القوى الخارجية المعادية لكلٍّ من الصليبيين والمغول، وهذا ليأتمن جانبهم ويضمن حيادهم في الصراع الوشيك ضد الصليبيين في بلاد الشام. وعندما بدأ مرحلة عسكرية أولى ضدهم مال فيها إلى مهادنتهم على بعض الجبهات، وشن هجمات عسكرية على

جبهات أخرى، ومن أهم ما قام به هو مهاجمة مدينتي أنطاكية وعكا. وفي المقابل أخذ الصليبيون يشنّون الهجمات المعاكسة، فأغاروا على حصن ليزون الصغير وعلى مدينة عسقلان.

وبعد أن حقق السلطان كل أهدافه من المرحلة الأولى بنجاح كبير، قرّر الانتقال إلى مرحلة الحرب الشاملة التي بدأها سنة 663هـ/1265م بفتحه مدينة قيسارية، ثمّ تبعتها مدن أخرى أهمّها: أرسوف وصفد. وفي أواخر سنة 664هـ/1266م، ردّ الصليبيون بهجومهم على قرية طين شيحا وحمص، فردّ عليهم السلطان بيبرس بالاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شمالي طرابلس.

ومن الملاحظ أيضاً أنّ السلطان بيبرس قد استخدم سياسة الهدم والتخريب في المعاقل الصليبية التي استولى عليها، فحطّم تماماً الحصون والقلاع والقرى والموانئ، حتى لا يستخدمها الصليبيون كنقاط تجمّع، أو لرسو السفن بها، فتكون معقلاً لانطلاق الهجمات والغارات الصليبية على البلاد الإسلامية.

وقد واصل السلطان مسيرة الجهاد الإسلامي التي كان قد بدأها بفتحه لمعاقل الصليبيين في بلاد الشّام، وكان من بين أهمّ هذه المعاقل: مدينة يافا وقلعة الشقيف، وإمارة أنطاكية التي أبان فيها عن كفاءته العالية من خلال وضعه لخطة إستراتيجية محكمة للدخول إلى المدينة، وهذا ما هو إلا دليل على حنكته وفطنته.

وكان استعادة المسلمين لمدينة أنطاكية صدمة كبيرة بالنسبة للصليبيين المحيطين بها، ممّا أدّى بهم إلى تسليم حصونهم أو الفرار منها.

كما أنّ الرسالة التي بعث بها السلطان بيبرس للأمير بوهمند السادس بعد فتحه لأنطاكية، وما جاء فيها من سخرية واحتقار لشخصه، هو دليل على مدى القوّة التي وصل إليها السلطان الظاهر بيبرس، والضعف الذي أضحى عليه الصليبيون في بلاد المشرق.

ومن جرّاء الهزائم المتلاحقة التي مني بها الصليبيون في بلاد الشّام، تسابق الأوربيون للمجيء إلى الشرق لمساعدة الصليبيين هناك، وكان هذا من خلال وصول حملتي ملكي أراغون وفرنسا، حتى وإن كانت الثانية قد تغيّرت وجهتها إلى تونس.

وقد استطاع السلطان التصدّي للأولى، كما أبدى مساعيه لمساعدة الأمير المستنصر بالله الحفصي للتصدّي لحملة الملك لويس التاسع، والتي كان مآلها الفشل كالأولى.

ومن ثم استأنف السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته ضدّ الصليبيين في بلاد الشّام، بفتحه لحصني صافيتا والأكراد، هذا الأخير كان فتحه بمثابة ضربة قويّة لنفوذ الإسبتارية في بلاد الشّام، كما مكّن هذا الفتح السلطان بيبرس من التحكم في الطرق المؤدّية إلى مدينة طرابلس، والتي مكنته من اتخاذها قاعدة لعملياته الحربية ضد هذه المدينة.

وقد واصل هذا الأخير هجماته بفتح حصن عكار، كما أنّه كتب إلى أمير طرابلس بوهمند السادس رسالة يبشّره فيها بفتحه هذا، تحطيماً لمعنوياته وتحذيراً له بسبب تحالفه مع أبغا بن هولاكو زعيم المغول، وقد انتهى الصراع بينهما بعقد الصلح.

كما أراد السلطان بيبرس استغلال ذهاب ملك قبرص وعكا هيو الثالث إلى عكا محاولاً فتح جزيرة قبرص، لكنّه فشل في ذلك نظراً لتحطم معظم سفن أسطوله أمام ميناء ليماسول القبرصي.

وواصل السلطان بيبرس فتوحاته سنة 669هـ/1271م بفتحه لحصن القرين، كما أنّه تمكن من التصدّي لحملة الأمير الأنكليزي إدوارد، الذي وعلى الرغم من بعض الغارات التي شنّها على معاقل المسلمين ببلاد الشّام، إلاّ أنّه ولضعفه وقلة عدد جيشه آثر عقد هدنة مع السلطان بيبرس الذي وافق على ذلك. وعندما أدرك الأخير أنّ هذا الأمير سيحاول مُجدّداً القيام بحملة أخرى، قرّر التخلّص منه، غير أنّه فشل في ذلك.

وعلى ضوء الانتصارات التي حققها السلطان بيبرس، تودّد الصليبيون لعقد الهدنة معه، وهذا ما حدث مع أمير طرابلس بوهمند السابع.

كما يعتبر فتح حصن القصير على يد الأمير سيف الدين الدوادار آخر معقل فُتح على حساب الصليبيين في عهد السلطان بيبرس.

وفي الأخير توفي هذا البطل بعد مسيرة حافلة بالإنجازات يوم الخميس 27 محرم سنة 676هـ/29 جوان 1277م عن عمر قارب ثلاثا وخمسين سنة.

وتعتبر مسيرة الجهاد الإسلامي التي قام بها السلطان الظاهر بيبرس ضد الصليبيين ببلاد الشام ناجحة، حيث أنّه تمكن بفضل حنكته وذكائه من فتح العديد من معاقل الصليبيين، ولهذا عُدّ من أهم السلاطين إلى جانب عماد الدين زنكي، وصلاح الدين الأيّوبي، والمنصور قلاوون، والذين نذروا أنفسهم في سبيل الإسلام والمسلمين، وجاهدوا في سبيل طرد الصليبيين وفتح معاقلهم في بلاد المشرق.

قائمة الملاحق

الملحق رقم 1

معاقل الصليبيين التي حررت ببلاد الشام زمن دولة المماليك البحرية

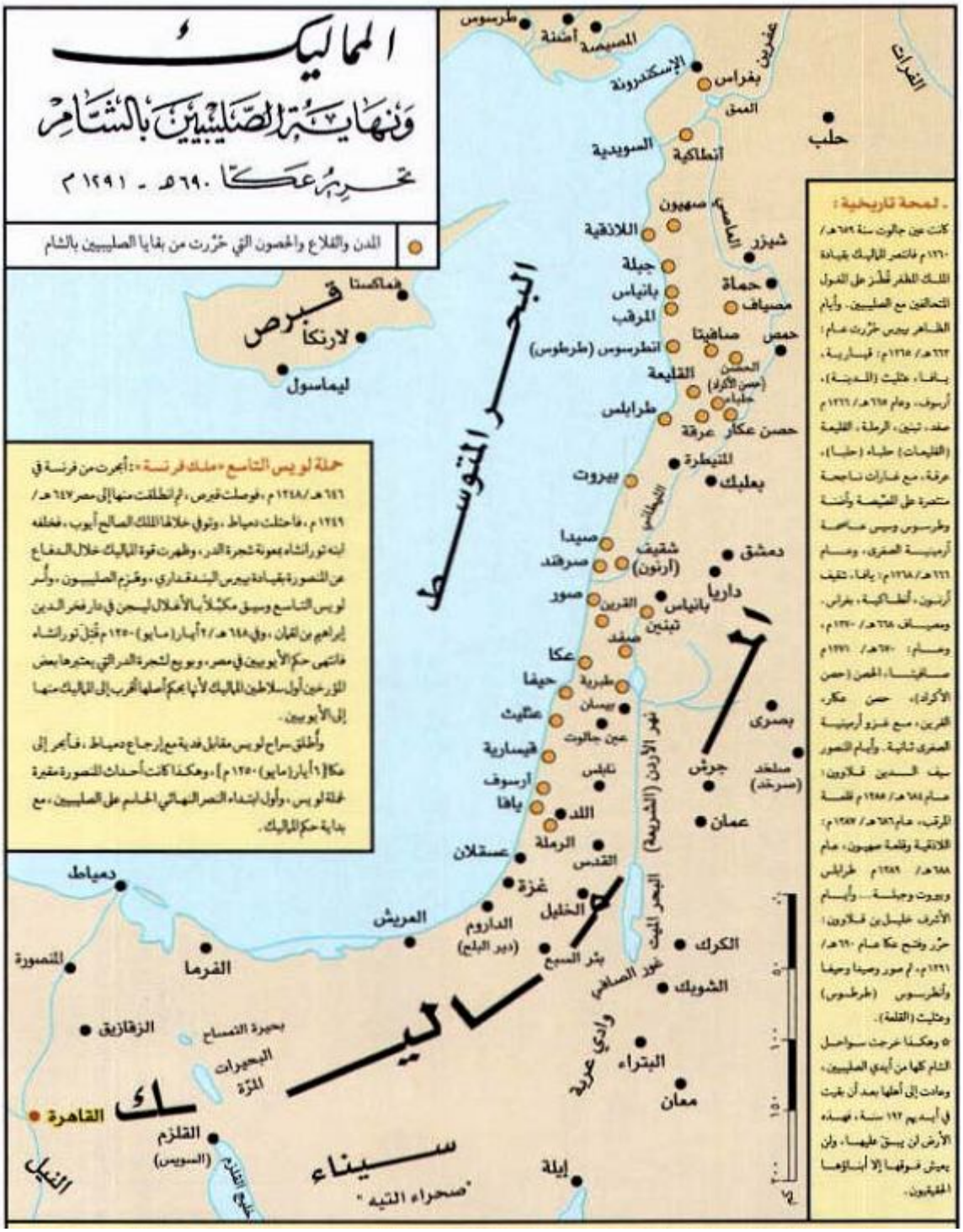

شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط12، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2005م، ص 90.

الملحق رقم 2

باب زويلة بمئذنتيه

شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 91ــ92.

الملحق رقم 3

خريطة الحملة الصليبية السابعة

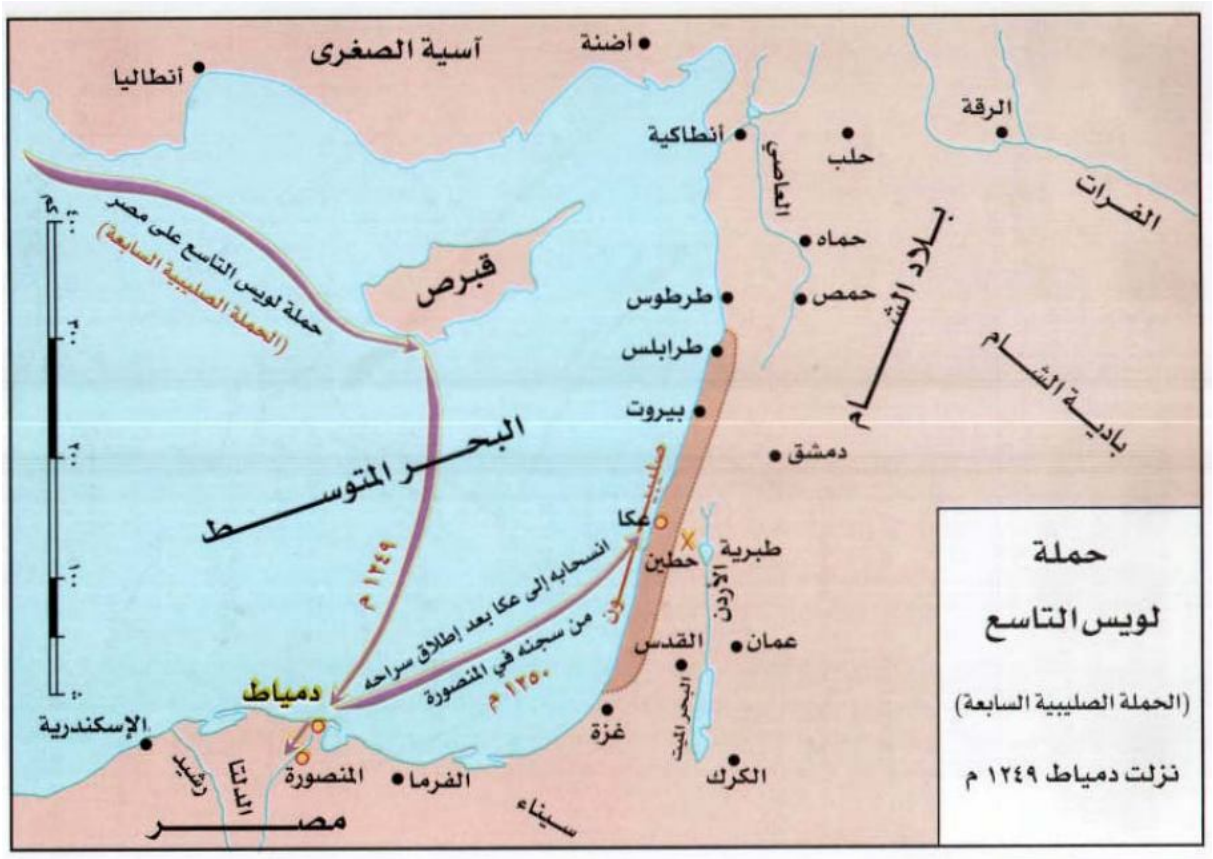

شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 93.

الملحق رقم 4

صورة لقلعة الكرك

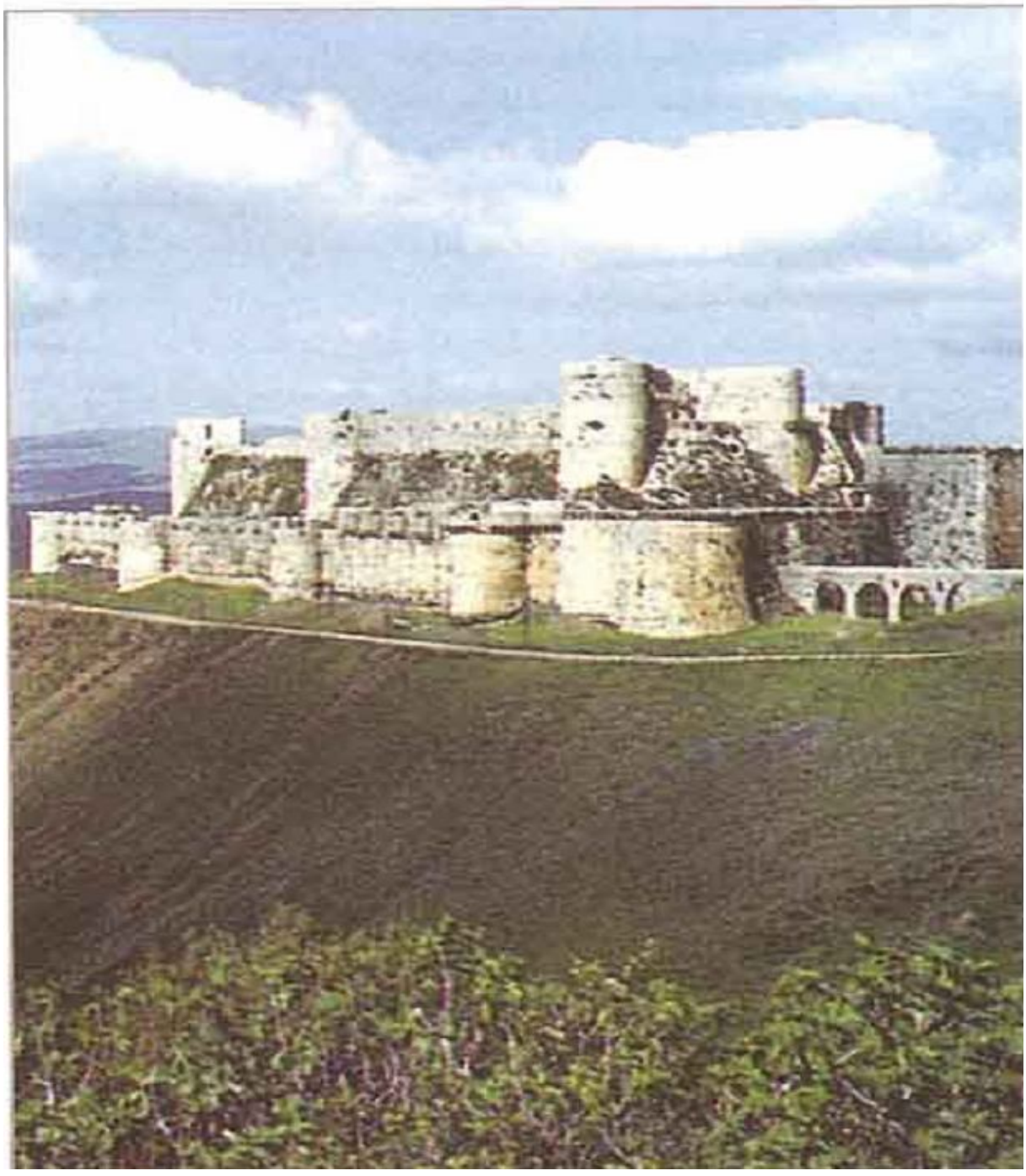

طارق السويدان، المرجع السابق، ص 113.

الملحق رقم 5

صورة لكنيسة القيامة بالقدس

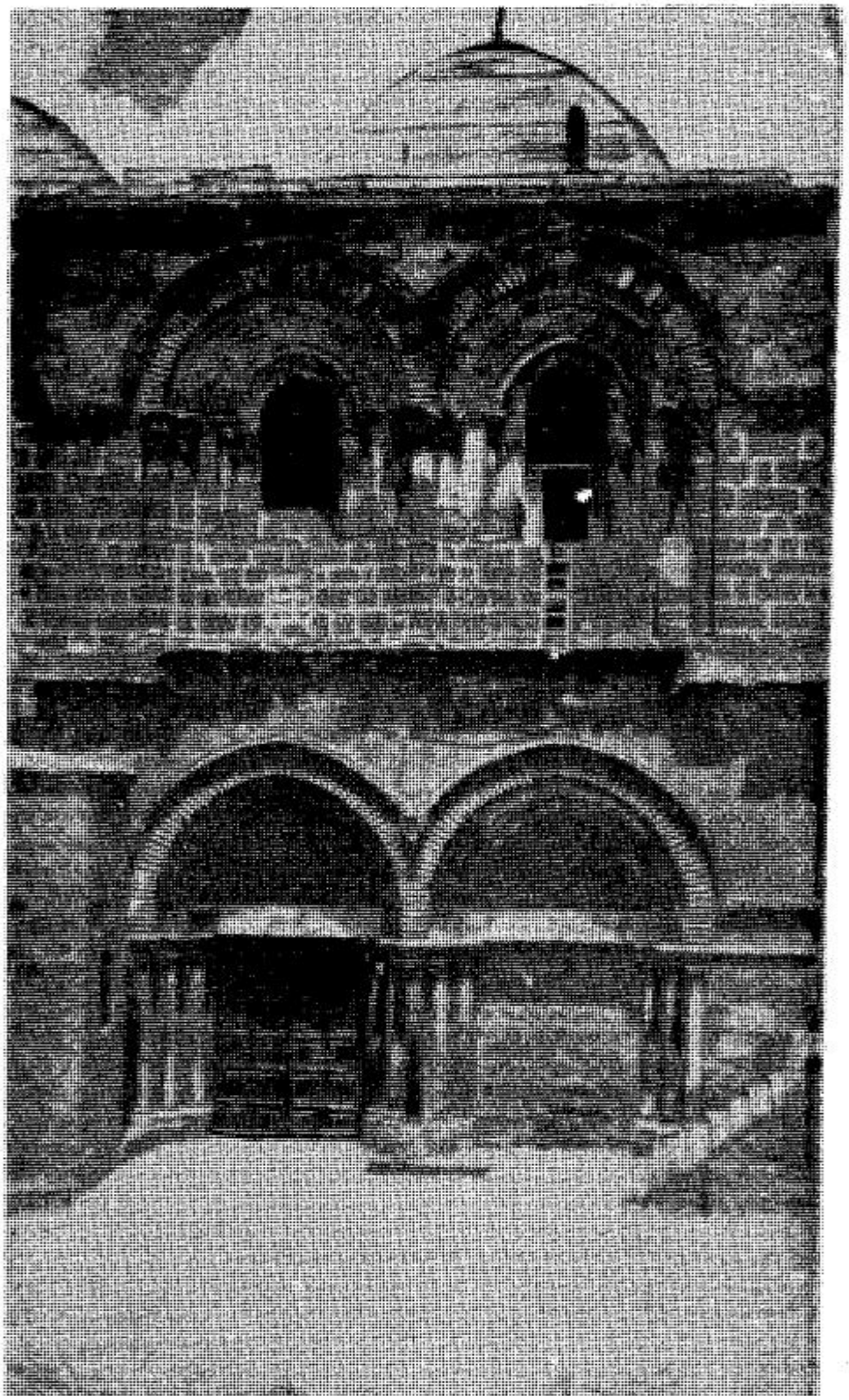

محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 55.

الملحق رقم 6

صورة لحصن الأكراد

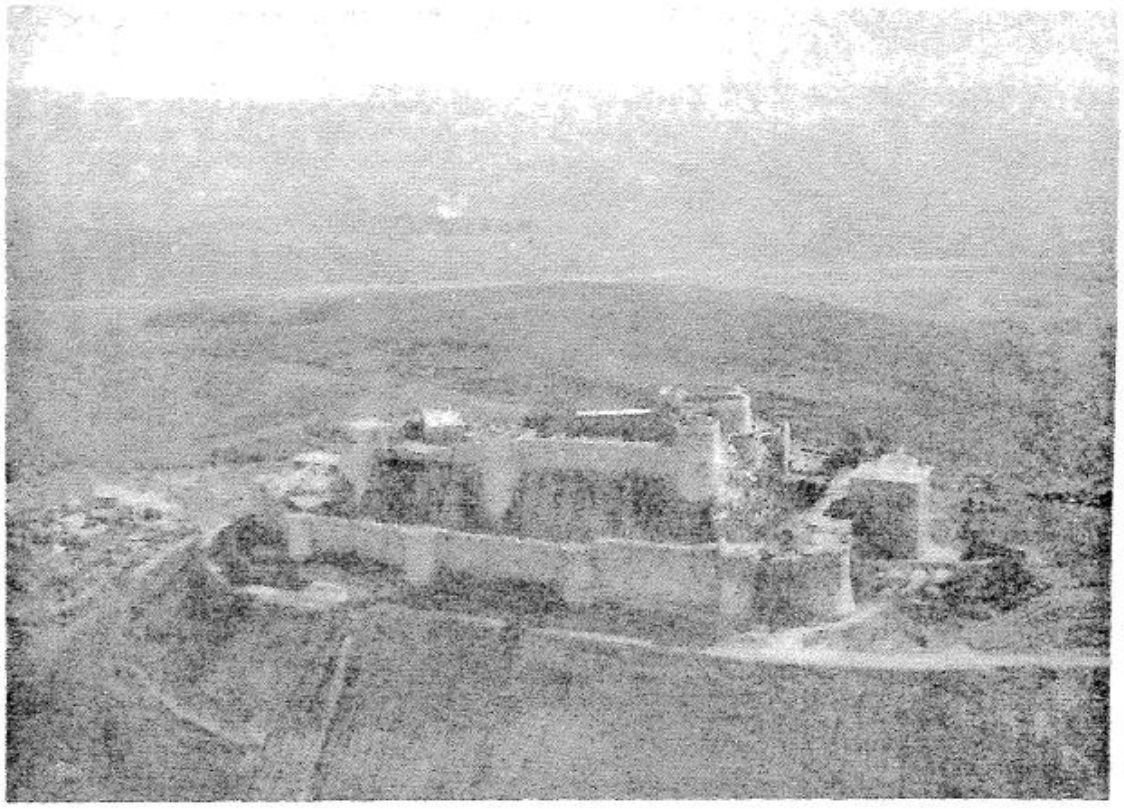

ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج 3، ق 1، ص 412.

الملحق رقم 7

صورة لأحد المنجنيقات التي استعملها الصليبيون

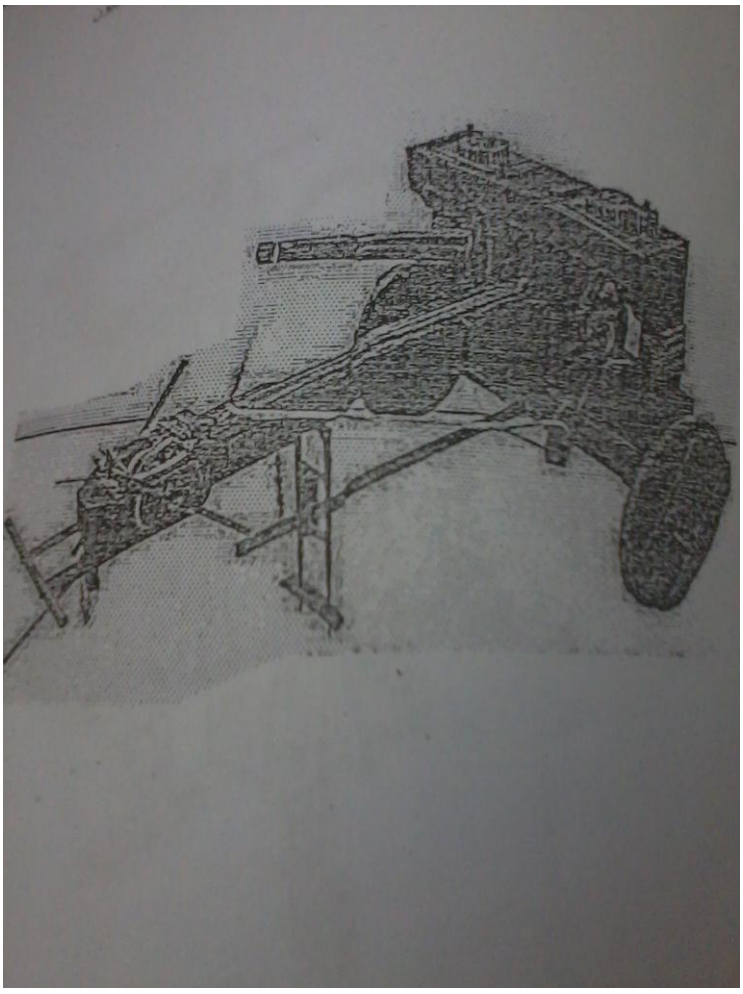

طارق السويدان، فلسطين .. التاريخ المصور، الإبداع الفكري، الكويت، 2004م، ص 106.

الملحق رقم 8

صورة لفارس صليبي

طارق السويدان، المرجع السابق، ص 113.

الملحق رقم 9

رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى هيو الثالث ملك قبرص وعكا بعد فتحه لحصن القرين سنة 669هـ/1271م

إلى حضرة الملك أَوَكْ دلزنيال، جعله الله ممن يوفي الحق لأهله، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتي قبله أو بعده بخير منه أو مثله، نُعلمه أن الله إذا أسْعَدَ إنسانًا دفع عنه الكثير من قضائه باليَسير، وأحسن له التدبير فيما جرت به المقادير، وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدةً من شوانينا وصار بذلك يتبجح، وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القُرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله إن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصرُ بالهواء مليح، إنما النصرُ بالسيف هو المليح، ونحنُ نُنْشئ في يوم واحد عدَّة قطائع، ولا يُنْشَأ لكم من حصن قطعة، ونجهّز مائة قلع ولا يُجهّز لكم في مائة سنة قلعة، وما كلٌّ من أُعْطَي مقذافًا قذَف، وما كُلٌّ من أُعطي سيفًا أحسن الضرب به أو عرف، وإنَ عُدمت من بحرية المراكب آحادٌ فعندنا من بحرية المراكب ألوف، وأين الذين يطعنون بالمقاديف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصفوف، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين مَنْ يُجْريها كالبحار ومَنْ تقفُ به في الوحول، وفرقٌ بين مَنْ يتصيَّد على الصقور من الخيل العراب، وبين مَنْ إذا افتخر قال: تصيدت بغراب، فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخليتا بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فترى أيُّنا أغنم، ولو أن في الملك سكوتًا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم.

---

(١) هو «هيو دي لوزنيان Hugh de lusignan».

محمود شلبي، المرجع السابق، ص 249-252.

الملحق رقم 10

رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس أمير طرابلس بعد فتحه لحصني الأكراد وعكار سنة 669هـ/1271م

«قد علم القومص بيمند - جعله

الله ممن ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه - نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها من جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في صبرها على مناكدة الأوحال، ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل أذا مشى، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان عيّر حبالها رشا، وكيف صابرت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، حسنت بهم استعانة نائبك الذى انتخى بهم، وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس عوضه «الله أكبر» ومن بقي من رجالك اطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح، واطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى،... ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلاّ القليل، وأنهم ما تركونا إلاّ على رحيل، فنعرّف كنائسك واسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب، وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول أنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعا، ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلاّ كما عافت شرب دمائهم، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عسكر يعلم القومص هذه الجملة المسرودة، ويعمل بها، وإلاّ فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده»[٢].

عزمي عبد أبو عليان، المرجع السابق، ص 61.

الملحق رقم 11

صورة لجبل سيلبيوس قرب مدينة أنطاكية

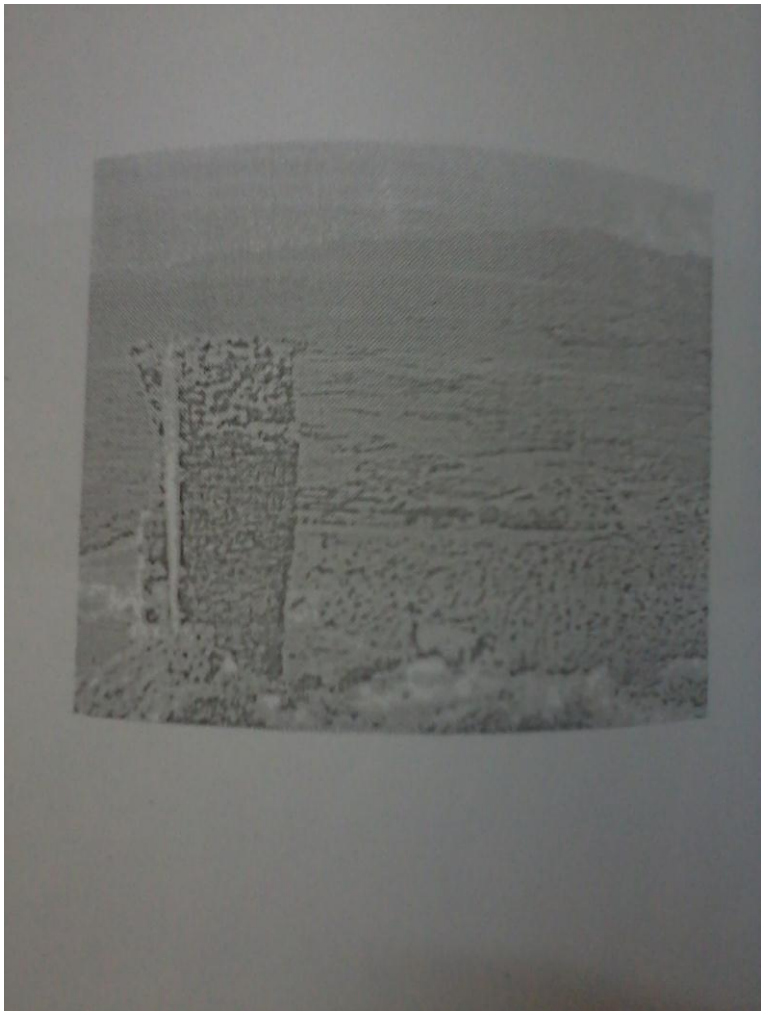

المنجد في اللغة والأعلام، ص 80.

الملحق رقم 12

صورة لمدينة عكا

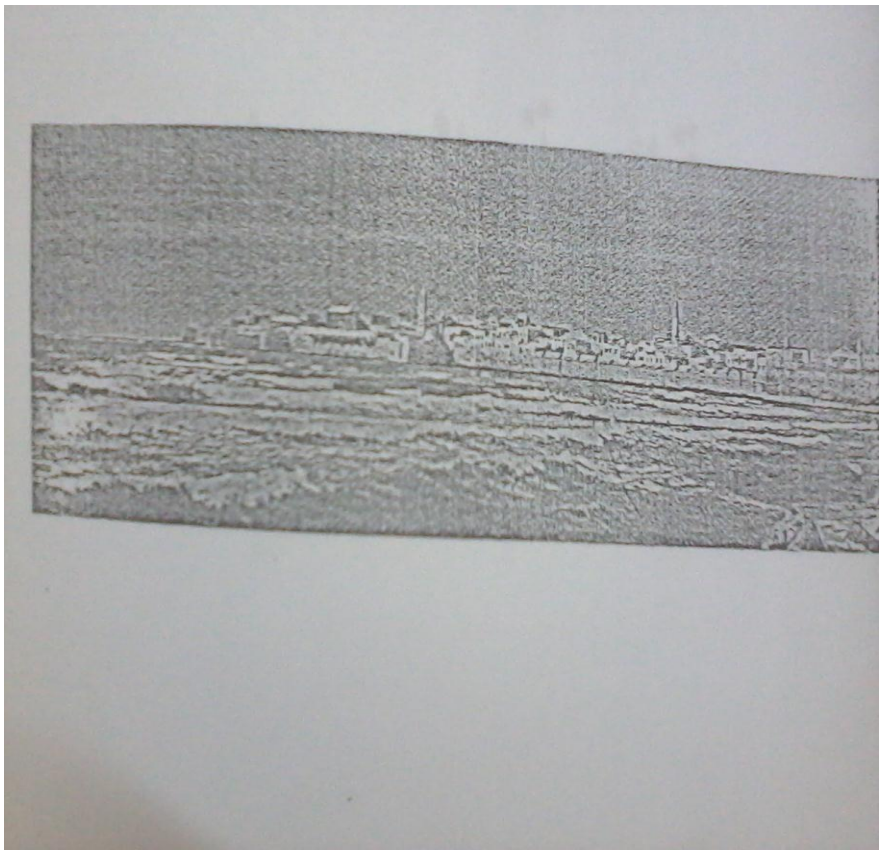

المنجد في اللغة والأعلام، ص 472.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أ- **المصادر العربية:**

1 ــ ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي المصري (ت 930هـ/1524م).

المختار من بدائع الزّهور في وقائع الدّهور، مطابع الشعب، مصر، 1960م.

2 ــ ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن (ت 808هـ/1406م).

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مر: سهيل زكار، ج3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000م.

3 ــ ابن شدّاد: عزّ الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684هـ/1285م).

تاريخ الملك الظاهر، اع: أحمد حطيط، ج31، مطابع مركز الطباعة الحديثة، بيروت، لبنان، 1983م.

4 ــ ابن كثير: أبو الفداء الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت 774هـ/1372م).

البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج17، ط1، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، مصر، 1998م.

5 ــ ابن العماد: شهاب الدين أبو الفلاح الحنبلي الدمشقي (ت 1089هـ/1678م).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، مج7، ط1، دار ابن الكثير، بيروت، لبنان، 1991م.

6 ــ أبو الفداء: إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد (ت 732هـ/1332م).

المختصر في أخبار البشر، ف 6، موقع الوراق، المكتبة الشاملة.

7 ــ (ــــــ،ــــــ): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1995م.

8 ــ أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت 874هـ/1470م).
مورد اللطافة في من وَلِيَ السلطنة والخلافة، تح: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، ج2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1997م.
9 ــ (ــــــ،ــــــ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ع: محمد حسين شمس الدين، ج6 و7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992م.
10 ــ الدواداري: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت 734هـ/1334م).
كنز الدُّرر وجامع الغرر (الدُّرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تح: أولرخ هارمان، ج8، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، مصر، 1971م.
11 ــ الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1347م).
سير أعلام النبلاء، تق: سيد حسين العفّاني، تح: خيري سعيد، ج17، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (ب س).
12 ــ (ــــــ،ــــــ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، ج47 و48 و49 و50، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1998م.
13 ــ (ــــــ،ــــــ): دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل، تق: محمود الأرناؤوط، ج2، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1999م.
14 ــ (ــــــ،ــــــ): العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985م.
15 ــ السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م).
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ط1، دار إحياء الكتب العربية، (ب م)، 1968م.
16 ــ (ــــــ،ــــــ): تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، ط1، مكتبة نزار مصطفى الباز، (ب م)، 2004م.

17 ــ الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1363م).

تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، ح: إحسان بنت سعيد خُلوصي، زهير حميدان الصمصام، ق 2، منشورات دار الثقافة، دمشق، سوريا، 1992م.

18 ــ (ــــــ،ــــــ): الوافي بالوفيات، ط: يحيى بن حجي الشّافعي بن أيبك الصفدي أحمد بن مسعود، تح: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، ج10، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2000م.

19 ــ العيني: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى (ت 855هـ/1451م).

السّيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد (شيخ المحمودي)، تح: فهيم محمد علوي شلتوت، را: محمد مصطفى زيادة، ط2، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، 1998م.

20 ــ القرماني: أحمد بن يوسف (ت 1019هـ/1610م).

أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح: أحمد حطيط، فهمي سعد، مج2، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1992م.

21 ــ القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت 821هـ/1418م).

صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تع: عبد القادر زكّار، ج4، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1983.

22 ــ المقريزي: تقي الدين أبو العباس الحسيني العبيدي (ت 845هـ/1441م).

السلوك لمعرفة دول الملوك، ج4، موقع الوراق، المكتبة الشاملة.

23 ــ المنصوري: ركن الدين بيبرس بن عبد الله الدوادار (ت 702هـ/1302م).

مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيّوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ)، تح: عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1993.

ب- **المراجع العربية:**

1 ــ أبو خليل شوقي:

أطلس التاريخ العربي الإســـلامي، ط12، دار الفكـــر، دمـــشق، ســـوريا، 2005م.

2 ــ أبو عليان عزمي عبد:

مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك (648ــ923هـــ /1250ــ1517م)، ط1، دار النفائس للنشر والتوزيع، عَمان، الأردن، 1995م.

3 ــ الأبياري إبراهيم:

نظرات في التاريخ الإسلامي، مج2، ط1، دار الكتاب المصري، القـــاهرة، مصر، 1987.

4 ــ الأنصاري ناصر:

المجمل في تاريـــخ مصر (النظم السياسية والإدارية)، ط2، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1997م.

5 ــ الأنطاكي محمد:

معارك حربية فاصلة عربية وإسلامية (معركة عين جـــالوت 658هـــــ/ 1260م)، ج6، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، (ب س).

6 ــ البرغوثي عمر الصّالح، طوطح خليل:

تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 2001م.

7 ــ الترمانيني عبد السلام:

أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب الـــسنين، ج3/مـــج2، ط1، دار طـــلاس، دمشق، سوريا، 1994.

8 ــ الحدّاد محمد حمزة إسماعيل:

صفحات من تاريخ مصر (السلطان المنصور قلاوون (تاريخ ــ أحـــوال مصر في عهده ــ منشآته المعمارية))، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1998م.

9 ــ الحريري سيد علي:

الأخبار السنّية في الحروب الصليبية، ط3، الزّهــراء للإعــلام العربــي، القاهرة، مصر، 1985م.

10 ــ حسن أسامة:

طومان باي آخر سلاطين المماليك، ط1، دار الأمــل للنــشر والتوزيــع، الجيزة، مصر، 2000م.

11 ــ حسين أحمد:

موسوعة تاريخ مصر، ج2، مؤسســة دار الشعب، القاهرة، مــصر، (ب س).

12 ــ حسين حسن عبد الوهاب:

تاريخ جماعــة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة حوالــي 1190ــ 1291م/586ــ690هــ، تق: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإســكندرية، مصر، 1989م.

13 ــ حمّاد محمد عاشور فايد:

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول فــي العــصر المملــوكي، ط1، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1995م.

14 ــ حمادة محمد ماهر:

دراسة وثقيّة للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بني أميّــة حتــى الفــتح العثماني لسورية ومصر (40ــ922هــ/661ــ1516م)، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1988م.

15 ــ (ــــــ،ــــــ): وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي 489 ــ1206هــ/1096ــ1404م (دراسة ونصوص)، ط2، منشورات مؤســسة الرســالة، بيروت، لبنان، 1982م.

16 ــ الحميدي عبد العزيز بن عبد الله:

التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (ما بعد الخلفاء الراشدين)، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، 2004م.

17 ــ الحويري محمود محمد:

مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، ط2، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2002م.

18 ــ الخطيب مصطفى عبد الكريم:

معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1966م.

19 ــ زكي عبد الرحمن:

الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1970م.

20 ــ زيادة محمد مصطفى:

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ط1، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، مصر، 2000م.

21 ــ السّرجاني راغب:

التتار من البداية إلى عين جالوت، الدرس 8، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net .

22 ــ سرور محمد جمال الدين:

دولة بني قلاوون في مصر (الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص)، دار الفكر العربي، (ب م س).

23 ــ سليمان أحمد عبد الكريم:

المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس (648ــ676هـ/1250ــ1277م)، ط1، دار النّهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، مصر، 1984م.

24 ــ السويدان طارق:

فلسطين .. التاريخ المصور، الإبداع الفكري، الكويت، 2004م.

25 ــ السيد محمود:

تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيّوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1998م.

26 ــ الشاعر محمد فتحي:

مصر قاهرة المغول في عين جالوت، دار المعارف، (ب م)، 1995م.

27 ــ شاكر محمود:

التاريخ الإسلامي (العهد المملوكي)، ج7، ط5، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.

28 ــ الشّامي أحمد:

صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الأيّوبية)، ط1، مكتبة النّهضة العربية، القاهرة، مصر، 1991م.

29 ــ شلبي أحمد:

موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج5، ط7، مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1986م.

30 ــ شلبي محمود:

حياة الملك الظاهر بيبرس الأسد الضاري! قاهر التتار ومدمّر الصليبيين!، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992م.

32 ــ صبره عفاف سيّد:

التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ط1، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 1987م.

33 ــ الصّلاّبي علي محمد محمد:

المغول (التتار) والمماليك بين الانتشار والانكسار، ط1، الأندلس الجديدة، مصر، 2009م.

34 ــ (ـــــ،ـــــ): الأيّوبيون بعد صلاح الدين، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر، (ب م س).

35 ــ ضيف شوقي:

تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ــ مــصر ــ، ج7، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1990م.

36 ــ طقّوش محمد سهيل:

تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشّام (648ــ923هـ/1250ــ1517م)، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1997م.

37 ــ عاشور سعيد عبد الفتاح:

الأيّوبيون والمماليك في مصر والشّام، دار النّهضة العربية، القاهرة، مصر، 1996م.

38 ــ (ـــــ،ـــــ): مصر والشّــام في عصــر الأيّوبيين والمماليــك، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، 1972م.

39 ــ (ـــــ،ـــــ): العصر المماليكي في مصر والشّام، ط2، دار النّهضة العربية، القاهرة، مصر، 1976م.

40 ــ عامر سامية:

الصليبيون في فلسطين (بلاد الشّام)، ط1، عــين للدراســات والبحــوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 2002م.

41 ــ العبادي أحمد مختار:

في تاريخ الأيّوبيين والمماليك، دار النّهــضة العربيــة للطباعــة والنــشر، بيروت، لبنان، 1995م.

42 ــ (ـــــ،ـــــ): قيام دولة المماليــك الأولى في مصــر والشّــام، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، 1986م.

43 ــ عبد الحليم رجب محمد:

انتشار الإسلام بين المغول، دار النّهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (ب م)، 1986م.

44 ــ عبد الدايم عبد العزيز محمود:

مصر في عصري المماليك والعثمانيين (648ــ923هـ/1250ــ1517م) (923ــ1213هـ/1517ــ1798م)، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر، 1996م.

45 ــ عبد القادر محمد فريد:

معارك فاصلة في تاريخ الإسلام، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، 1998م.

46 ــ عبد القوي زينب عبد المجيد:

الانجليز والحروب الصليبية في الفترة من 1189ــ1291م، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 1996م.

47 ــ العدوى إبراهيم أحمد:

مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، مطبعة هيئة الآثار المصرية، مصر، 1992م.

48 ــ العريني السيّد الباز:

الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)، ج1، دار النّهضة العربية، (ب م)، 1967م.

49 ــ العسيري أحمد معمور لاحق:

موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر 1417هـ/1996ــ1997م، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الدمام، السعودية، 1996م.

50 ــ العفيفي عبد الحكيم:

موسوعة 1000 حدث إسلامي، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1996م.

51 ــ علي حسين ممدوح حسين:

الحروب الصليبية في شمـــال إفريقية وأثرهـــا الحضاري سنة 668ــ792 هجرية/1270ــ1390 ميلادية، تق: شاكر مصطفى، ط1، دار عمـــار للنـــشر، عمـــان، الأردن، 1998م.

52 ــ عمارة محمد:

الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، دار الرّشاد، القاهرة، مصر، 1997م.

53 ــ عمران محمود سعيـــد:

تاريخ الحروب الصليبيـــة (1090ــ1291م)، دار المعرفـــة الجامعيـــة، السويس، مصر، 2000م.

54 ــ عودة محمد عبد الله، فريحات حكمت، الخطيب إبراهيم ياسين:

مختصر التاريخ الإسلامي، الأهليّـــة للنـــشر والتوزيـــع، عَمـــان، الأردن، 1989م.

55 ــ عوف أحمد:

أحوال مصر من عصر لـــعصر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (ب س).

56 ــ غانم حامد زيان:

صفحة من تاريخ الخلافة العبّاسية في ظل دولة المماليك (الخليفة المستعين بالله العبّاسي سلطان الديار المصرية)، دار الثقافة للطباعة والنـــشر، القـــاهرة، مـــصر، 1978م.

57 ــ غنيم إسمت:

الدولة الأيّوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الإســـكندرية، مـــصر، 1990م.

58 ــ فرغلي إبراهيم:

الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن الـــسابع الهجـــري، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000م.

59 ــ قاسم عبده قاسم:

عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والاجتماعي)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 1998م.

60 ــ قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي:

الأيّوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، (ب س).

61 ــ قساطلي نعمان:

الرّوضة الغنّاء في دمشق الفيحاء، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1982م.

62 ــ ماجد عبد المنعم:

الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية (التاريخ السياسي) (567ــ 648هـ/1171ــ1250م)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997م.

63 ــ محمد حسين حمدي عبد المنعم:

دراسات في تاريخ الأيّوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، السويس، مصر، 2000م.

64 ــ المطران يوسف الدبس:

تاريخ سورية الديني والدنيوي، ج6، را و دق: مارون رعد، إش: نظير عبود، دار نظير عبود، الإسكندرية، مصر، 1902م.

65 ــ المطوي محمد العروسي:

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، (ب م)، 1982.

66 ــ المكين جرجس بن العميد:

أخبار الأيّوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، (ب س).

67 ــ مؤنس أحمد عوض محمد:

الحروب الصليبية (العلاقـــات بين الشرق والغرب في القرنين 12ــ13م/ 6ــ7هـــ)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنـــسانية والاجتماعيـــة، الهـــرم، مـــصر، 2000/1999م.

68 ــ مؤنس حسين:

أطلس تاريخ الإسلام، ط1، الزهراء للإعلام العربـــي، القـــاهرة، مـــصر، 1987م.

69 ــ نصر الله سعدون عبّاس:

رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النّهـــضة العربيـــة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1995م.

70 ــ نديم أحمد فهيم محمود:

الفن الحربي للجيش المصري في العـــصر المملـــوكي البحـــري، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1983م.

71 ــ وهبة مصطفى:

موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط1، مكتبة الأيمان، المنـــصورة، مـــصر، 1997م.

72 ــ وهمان محمد أحمد:

معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكـــر المعاصـــر، بيروت، لبنان، 1990م.

73 ــ يوسف جوزيف نسيم:

العدوان الصليبي على مصر (هزيمـــة لـــويس التاســـع فـــي المنـــصورة وفارسكور)، ط2، دار النّهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م.

ج- المراجع العربية المترجمة:

1 ــ معلوف أمين:

الحروب الصليبية كما رآها العـــرب، تر: عفيف وشقية، الفـــارابي، (ب م س).

د- **المراجع الأجنبية المعربة:**

1 ــ رنسيمان ستيفن:

تاريخ الحروب الصليبية (المغول والمماليك ونهاية الشرق الفرنجي)، مج 3، ق 1 و2، تر: السّيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997م.

2 ــ (ــــــ،ــــــ): تاريخ الحملات الصليبيــة (مملكة عكــا والحــملات الصليبية المتأخرة)، ج3، تر: نور الدين خليل، مكتبة الشروق، القاهرة، مصر، (ب س).

3 ــ زابوروف ميخائيل:

الصليبيون في الشرق، تر: إلياس شاهين، دار التقــدم، موســكو، الإتحــاد السوفييتي، 1980م.

4 ــ نتنج أنتوني:

العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، تر: راشد البــرواي، مكتبــة الأنجلــو المصرية، مصر، 1974م.

5 ــ وليم موير:

صفحات من تاريخ مصر (تاريخ دولة المماليك في مصر)، تر: محمود عابدين، ســليم حسن، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1995م.

هـ- **المراجع الأجنبية:**

1 - Matt Hew Paris's: English History From the YEAR 1235 to 1273, Vol 3, London, HENRY G. Bohn, York Street, Covent Garden, 1854.

2 - Histoire des Croisades: Par M. Michaud Ducollet, Lisleraire - Editeur, Paris, 1838.

و- **مواقع الإنترنت:**

1 ــ تحويل التاريخ من الميلادي إلى الهجري والعكس، موقع طبيب دوت كوم.

فهرس
الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	
شكر وعرفان	
قائمة المختصرات	
مقدمة	
الفصل الأول: نشأة السلطان الظاهر بيبرس وتوليه السلطة	
1 ــ نشأة السلطان ودوره في استعادة بيت المقدس وفي الحملة الصليبية السابعة	2
2 ــ توليه السلطة وتوطيد الحكم	22
الفصل الثاني: بداية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس (659ــ665هـ/1261ــ1266م)	
1 ــ مرحلة تأمين وتقوية الجبهة الداخلية والمهادنات والهجمات العسكرية الأولى (659ــ662هـ/1261ــ1264م)	39
2 ــ مرحلة الحرب الشاملة (663ــ665هـ/1265ــ1266م)	59
الفصل الثالث: مواصلة السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته وتصديه لحملتي ملكي أراغون وفرنسا (665ــ669هـ/1267ــ1270م)	
1 ــ مواصلة الفتوحات (665ــ667هـ/1267ــ1269م)	75
2 ــ مهادنة الصليبيين للسلطان ودوره في التصدي لحملتي ملكي أراغون وفرنسا (667ــ669هـ/1269ــ1270م)	94
الفصل الرابع: استئناف السلطان الظاهر بيبرس فتوحاته وتصديه لحملة الأمير إدوارد ثمّ وفاته (669ــ676هـ/1271ــ1277م)	
1 ــ استئناف الفتوحات (669هـ/1271م)	109

2 ــ حملـــة الأمير إدوارد ووفاة السلطـــان الظاهر بيبرس (669ــ 676هـــ/1271ــ1277م)	123
الخاتمة	145
قائمة الملاحق	149
قائمة المصادر والمراجع	162
فهرس الموضوعات	176

تمّ بحمد الله